التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

السيرة النبوية

(١)

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

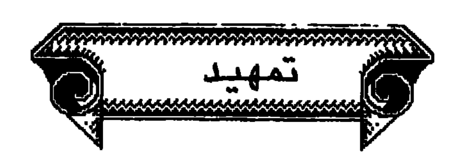
رقم الإيداع ٥٦٣٢ / ٩٧

الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله الذي أوجد البشر في هذه الحياة الدنيا ولم يتركهم سدى ، بل بين لهم سبيله الهادي إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، وجعلهم قدوة لأممهم ، ينفذون شريعة الله تعالى في الأرض ، ويرفعون معالم الحياة الكاملة التي تجمع بين سعادة الدارين .

وصلى الله تعالى على سيدنا ونبينا محمد الذي أدى الأمانة وبلغ الرسالة وأقام التوحيد وهدم الشرك ، وجاهد في الله حق جهاده ، وبنى دولة الإسلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن التاريخ الإسلامي مادة مهمة في مجال العقيدة والأحكام والدعوة والجهاد والأخلاق وغيرها حيث إنه سجل حافل من مآثر سلفنا الصالح ، فهو عبارة عن قوالب تختزن فيها وقائع تشتمل على نماذج حية من تطبيق الإسلام على هذه الأرض .

فالنصوص المجردة قد تتلقاها بعض النفوس بشيء من البرود وعدم التأثر ، ولكن حينما تُروى ضمن وقائع حدثت فعلاً من رجال سموا إلى

المعالي ، وتخلصوا من ضغط الجاهلية ، وجردوا أنفسهم لما يحبه الله تعالى منهم ، وأصبحوا يمثلون الإسلام الواقعي المطبق في الحياة وليس الإسلام المسطر في الكتب فحسب . . . حينما تُروى على هذا النحو الحي المتحرك فإنها تهز الضمائر الحية وتدفع النفوس الأبية إلى التأثر ومحاولة التأسي بأولئك الأماجد الكرام .

لذلك اتجهت همة العلماء رحمهم الله تعالى إلى جمع سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة رضي الله عنهم والمصلحين من بعدهم ، واستفاد منها المربون عبر الأجيال في إصلاح النشىء وتقويم السلوك .

ولما كان كل عصر له ملامحه الخاصة ، من حيث تَغَيُّر أنماط الحياة الاجتماعية واختلاف موارد الثقافة ، وتعدد المناهج السياسية والاقتصادية ، وتنوع وسائل الغزو الفكري من الأعداء كان لا بد من إعادة دراسة سيرة السلف الصالح ، ومحاولة الاستهداء بها في تقويم حياة المسلمين على ضوء الحياة المعاصرة .

وإذا كانت الأمم الغربية تفتخر بقوتها المادية وتقدمها الصناعي فإن لنا ماضياً مجيداً بلغت فيه الأمة الإسلامية من الرقي الأخلاقي والمادي ما لم تبلغه أمة من الأمم .

وإننا حينما نحيي مآثرنا ونردد مفاخر ماضينا فليس ذلك لمجرد استجلاب النشوة بتذكر أيام عزنا ومجدنا ، وليس ذلك لمجرد الاستعلاء على الآخرين ، أو تعزية النفوس عن النقص الحاضر بترديد مفاخر الكمال في الماضي ، وإنما ليكون ذلك دافعاً إلى انبعاث الحياة في النفوس

لتعود هذه الأمة إلى رقيها الأخلاقي الكامل ، ولتأخذ بأسباب التقدم المادي المناسب لعصرها حتى تكون كسلفها الصالح أقوى وأكبر أمة في هذه المعمورة .

والموضوعات التي سأقدمها للقراء الكرام في هذا الكتاب إنما هي قبسات من أمجاد سلفنا الصالح ، وومضات من تاريخهم الزاهر في مجال العقيدة والدعوة والجهاد ومكارم الأخلاق ، ابتداء بذكر مآثر رسول الله ﷺ والمشاهير من صحابته رضي الله عنهم ، وسيراً مع أمجاد المصلحين من هذه الأمة العظيمة ، التي أحدثت في تاريخ البشرية ذكراً خالداً مع الزمن .

هذا وقد اخترت هذه الموضوعات بعدما طوفت في عدد من كتب السير والتراجم ، وجمعت الكثير من مآثر السلف ومناقبهم واطلعت على واقعهم الذهبي في تطبيق الإسلام الكامل في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين ، وما نتج عن ذلك من مظاهر الحياة الكاملة التي تتسم بالقوة من غير عنف وباللين من غير ضعف ، وبالعزة على الكافرين وبالذلة والتواضع للمؤمنين وبالعدل في الحكم حتى مع الكافرين ، وباعتبار الكفاءة بقوة الإيمان والعمل الصالح والخبرة ، وباستبعاد المؤهلات التي تتنافى مع الإسلام كالأنساب والأوطان والمجد الدنيوي .

وآمل أن أكون في تقديم هذا الجهد المتواضع قد أسهمت في أداء بعض ما لسلفنا الصالح من حق على أحفادهم الذين ورثوا عنهم هذا المجد العريض والعز المنيع ، وفي تذكير أبناء الأمة الإسلامية بما بلغته هذه الأمة في ماضيها من قوة ورقي أخلاقي .

وقد جمعت مادة هذه الموضوعات في العقد الأخير من القرن الماضي حينما مررت على أكثر كتب السنة والسيرة المطبوعة وظلت هذه المادة حبيسة الأوراق حتى أتيحت لي فرصة البدء في إعدادها في عام سبعة وأربعمائة وألف .

وكان من طريقتي في إعدادها والكتابة عنها أنني أجمع مادة الموضوع الذي أريد الكتابة عنه من جميع الكتب التي تتيسر لي ، ثم أختار الروايات الجامعة وأشير إلى بقية الروايات غالباً ، وإذا كان النص يشتمل على بعض الأعلام فإنني أرجع إلى كتب التراجم حيث أحصل منها على فوائد في خدمة النص ، وخاصة ما يتعلق بحكم العلماء على تلك النصوص ، وكذلك فيما إذا كانت تشتمل على آيات من القرآن الكريم فإنني أرجع غالباً إلى كتب التفسير بالمأثور حيث يورد أصحابها أحياناً تلك النصوص .

هذا وقد عرضت هذا الجزء وخاصة المقدمة على علماء فضلاء لهم تفوق وبروز في علوم الكتاب والسنة ، وهم أصحاب الفضيلة : الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد نور سيف ، والدكتور منصور بن عون العبدلي ، والدكتور عبد المهيمن بن عبد السلام الطحان ، والدكتور محمد بن سعيد بخاري ، والدكتور وصي الله بن محمد عباس ، وقد استفدت من ملاحظاتهم القيمة ، وإنني من باب الاعتراف بالجميل والثناء على أهل الفضل أشكرهم على ما بذلوا من وقت وجهد في هذا المجال ، جزاهم الله خيراً ونفع بعلمهم المسلمين .

المقدمة

نبذة عن المنهج الأمثل في اعتماد الأخبار :

حينما يتصدى أي كاتب للكتابة عن مضمون النصوص الحديثية والتاريخية فإنه بحاجة أولاً إلى أن يتثبت من صحة نسبة الوقائع والأقوال إلى أصحابها وسلامتها من الكذب أو الخطأ ، ثم يتحدث عنها بعد ذلك بما يتناسب مع موضوعاتها .

وقد سرت في البداية على طريقة دراسة الأسانيد والحكم من خلال ذلك على الأحاديث ، وهذه هي الطريقة السائدة في هذا العصر ، ولكن من خلال عملي في هذا الموضوع وبحوث أخرى ، ومن خلال إشرافي على رسائل علمية ومناقشتي رسائل أخرى تشتمل على دراسة الأسانيد تبين لي أن هذا العمل كبير جداً ، ولا يليق بي ولا بأمثالي اقتحام هذا الأمر وكلما تعمقت في هذا الموضوع تبين لي أنه من اختصاص العلماء الكبار الذين تعمقوا وتوسعوا في هذا العلم ، حيث إن الحكم على الأحاديث يحتاج مع دراسة الأسانيد إلى إحاطة بالأحاديث المروية في موضوع ذلك الحديث إذا كان في سنده مقال حتى لا يحكم الباحث عليه بالرد مع وجود شواهد له ترفعه إلى القبول .

كما يحتاج الباحث إلى إحاطة بمرويات الرواة الذين جمع العلماء

في الحكم عليهم بين الجرح والتعديل مثل الحكم على الراوي بأنه صدوق يخطئ أو يهم أو ثقة له أوهام ونحو ذلك ، لأن الحكم على أحاديث هؤلاء جميعاً بالقبول يتضمن قبول أحاديث أخطئوا فيها أو وهموا فيها ، والحكم عليها جميعاً بالرد يتضمن الحكم بذلك على أحاديث أصابوا فيها .

والذي سار عليه المحققون من العلماء هو دراسة مرويات هؤلاء الرواة واختيار ما لم يخطئوا فيه وترك ما أخطئوا فيه .

وفي بيان هذا المنهج يقول الإمام ابن القيم بعدما ذكر ما عِيبَ على الإمام مسلم في إخراجه حديث مطر الوراق : « ولا عَيْبَ على مسلم في إخراج حديثه لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه ، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه » ثم خطّأ من أخرج جميع حديث الثقة وإن كان فيه غلط ، وذكر أن هذه طريقة الحاكم وأمثاله ، كما خطّأ من ضعف جميع حديث سيء الحفظ ، وذكر أن هذه طريقة ابن حزم وأمثاله ، وصوب طريقة الإمام مسلم وذكر أنها طريقة أئمة هذا الشأن [1] .

أما الباحثون في هذا العصر فمنهم من يسير على منهج ابن حزم في رد أحاديث من اتهموا بالوهم أو الخطأ أو سوء الحفظ ، وفي ذلك ضياع لثروة علمية كبيرة .

وهذه الاستدراكات التي يطلقها العلماء النقاد بقولهم يخطىء أو

(١) زاد المعاد ، فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في سجود القرآن (١/ ٣٦٤)

يهم أو له أوهام لا يعنون بها جرح الراوي ليرد حديثه ، وإنما يصفونه بذلك من باب الاحتياط للدين ليتوقف العلماء الباحثون عند هذه الإشارات فيبحثوا بعد ذلك في مرويات هؤلاء الرواة فيتقوا رواية ما انتقدوا فيه .

وهؤلاء العلماء الذين يؤلفون الكتب في الجرح والتعديل إنما يؤلفونها للعلماء المتأهلين للحكم على الأحاديث من باب التنبيه إلى مواقع الخلل إجمالاً ليقوم العلماء الباحثون بتكميل مراحل البحث في الحكم على النصوص من خلال ذلك ، لا ليحكموا على الرواة ثم على الأحاديث على ضوء تلك الكلمات الموجزة التي أطلقها أولئك العلماء النقاد .

ومن الباحثين من يتساهل فيقبل أحاديث من اتهموا بالوهم والخطأ مطلقاً من غير بحث ولا نظر في مرويات الرواةولا في روايات الرواة الآخرين في الموضوع نفسه ، وهذا تفريط كبير ، فإن هؤلاء الرواة لم يتهموا بالخطأ أو الوهم أو الغلط إلا وفي مروياتهم شيء من ذلك .

وقل من يسير على منهج المحققين من أهل هذا الشأن لأن هذا المنهج يحتاج إلى علم واسع ، وتفرغ طويل لهذا العلم ، ولا ينجح في ذلك إلا العلماء الأفذاذ الموهوبون الذين يدركون الخطأ في الأسانيد بمجرد سماعها لسعة اطلاعهم ، ولما منحهم الله تعالى من الحافظة القوية والذكاء النادر ، ولهذا لم يشتهر بالنقد من العلماء الذين أمضوا أعمارهم في هذا الفن إلا نوادر في كل عصر مع أن كثيراً من الرواة قد جعلوا هذا العلم شغلهم الشاغل ، ووصلوا فيه إلى حفظ الأسانيد والمتون .

ومن الأمثلة الجيدة للنقد الصحيح الصادر من هؤلاء العلماء ما ذكر الإمام الذهبي من خبر عباس الدُّوري : حدثنا يحيى بن معين ، قال : حضرت نعيم بن حمّاد بمصر ، فجعل يقرأ كتاباً صنفه ، فقال : حدثنا ابن المبارك عن ابن عون ، وذكر أحاديث ، فقلت : ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب ، وقال : ترد علي ؟ قلت : إي والله ، أريد زَينَك ، فأبى أن يرجع ، فلما رأيته لا يرجع . قلت : لا والله ما سمعتَ هذه من ابن المبارك ولا سمعها هو من ابن عون قط . فغضب وغضب من كان عنده وقام فدخل ، فأخرج صحائف ، فجعل يقول ، وهي بيده : أين الذين يزعمون أن يحي بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث ؟ نعم يا أبا زكريا : غلطت وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك عن ابن عون[1] .

ومن ذلك ما رواه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي رحمه الله يقول : جاءني رجل من جِلّة أصحاب الرأي من أهل الفهم منهم[2] ومعه دفتر فعرضه عليَّ فقلت في بعضها : هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث ، وقلت في بعضه : هذا حديث باطل ، وقلت في بعضه : هذا حديث منكر ، وقلت في بعضه : هذا حديث كذب ، وسائر ذلك أحاديث صحاح .

فقال لي من أين علمت أن هذا خطأ وأن هذا باطل وأن هذا كذب؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٩٠) .

(٢) أصحاب الرأي مصطلح يطلق في ذلك الزمن على الفقهاء الذين ليس لهم عناية برواية الحديث .

أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا ؟ فقلت: لا ، ما أدري هذا الجزء من رواية من هو ؟ غير أني أعلم أن هذا خطأ وأن هذا الحديث باطل وأن هذا الحديث كذب ، فقال تدعي الغيب؟ قال : قلت : ما هذا ادعاء الغيب ، قال : فما الدليل على ما تقول ؟ قلت : سل عما قلت من يحسن مثل ما أحسن ، فان اتفقنا علمت أنا لم نجازف ولم نقله إلا بفهم . قال : من هو الذي يحسن مثل ما تحسن ؟ قلت : أبو زرعة ، قال : ويقول أبو زرعة مثل ما قلت ؟ قلت : نعم ، قال : هذا عجب ، فأخذ فكتب في كاغد[1] ألفاظي في تلك الأحاديث ثم رجع إليّ وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة في تلك الأحاديث ، فما قلت : إنه باطل قال أبو زرعة : هو كذب قلت : الكذب والباطل واحد ، وما قلت : إنه كذب قال أبو زرعة : هو باطل ، وما قلت : إنه منكر قال : هو منكر كما قلت وما قلت إنه صحاح قال أبو زرعة : صحاح فقال : ما أعجب هذا تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما ، فقلت : فقد علمت من ذلك أنا لم نجازف وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتينا ، والدليل على صحة مانقوله بأن دينارا مُبَهرجًا يحمل إلى الناقد فيقول : هذا دينار مُبَهرج ويقول لدينار : هو جيد ، فإن قيل له من أين قلت إن هذا مُبَهرج ؟ هل كنت حاضراً حين بُهرج هذا الدينار ؟ قال : لا ، فإن قيل له فأخبرك الرجل الذي بهرجه أني بهرجت هذا الدينار ؟ قال : لا ، قيل فمن أين قلت إن هذا مُبَهرج ؟ قال : علمًا رُزقتُ ، وكذلك نحن رُزقنا معرفة ذلك ، قلت : فَتَحْمل فصٍّ ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين

---

(١) يعني في ورق .

فيقول: هذا زجاج ، ويقول لمثله : هذا ياقوت ، فإن قيل له : من أين علمت أن هذا زجاج وأن هذا ياقوت ؟ هل حضرت الموضع الذي صُنع فيه هذا الزجاج ؟ قال : لا ، قيل له : فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجًا ؟ قال: لا ، قال : فمن أين علمت ؟ قال : هذا علم رُزقتُ، وكذلك نحن رُزقنا علمًا لايتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا حديث منكر إلا بما نعرفه .

قال أبو محمد : تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه ، وأن يكون كلاما يصلح أن يكون من كلام النبوة، ويُعلم سقمه ونكارته بتفرد من لم تصح عدالته بروايته والله أعلم[1] .

ومما يبين قلة النقاد البارعين في الحكم على الأحاديث حتى في زمن ازدهار هذا العلم ما ذكره ابن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: جرى بيني وبين أبي زرعة يوما تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ، فقال لي : يا أبا حاتم قلَّ من يفهم هذا، ما أعز هذا، إذا رفعت هذا من واحد واثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا ! وربما أشك في شيء أو يتخالجني شيء في حديث فإلى أن ألتقى معك لا أجد من يشفيني منه . قال أبي: وكذاك كان أمري[2] .

---

(١) الجرح والتعديل ١/٣٤٩ - ٣٥١ .

(٢) الجرح والتعديل ١/٣٥٦ .

وإذا كان لايوجد غير اثنين ممن يحسنون الحكم على الأحاديث في ذلك الزمن المزدهر بعلوم الحديث وروايته فكيف بعصرنا الحاضر ؟!

· ومن ذلك ما رواه أبو محمد المخلدي قال: أخبرنا أبو حامد الأعمش: أن إنساناً قرأ على الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري حديث حجاج بن محمد عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كفارة المجلس إذا قام العبد أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» فقال له مسلم - يعني ابن الحجاج - : في الدنيا أحسن من هذا الحديث: ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح ؟ تعرف بهذا الإسناد في الدنيا حديثاً ؟ فقال محمد بن إسماعيل: إلا أنه معلول، فقال له مسلم: لا إله إلا الله - وارتعد - أخبرني به، فقال: استر ما ستر الله، هذا حديث جليل رواه الناس عن حجاج بن محمد عن ابن جريج، فألح عليه، وقبَّل رأسه وكاد أن يبكي، فقال: اكتب إن كان ولابد: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن عون بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس . . . .» فقال له مسلم: لايبغضك إلا حاسد وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك.

وقد جاء في رواية أخرى أن الإمام مسلم جاء إلى الإمام البخاري فقبَّل بين عينيه وقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله. . . ثم ذكر هذا الحديث وأن الإمام

البخاري بين أن علة الإسناد المشهور هي أن موسى بن عقبة لم [illegible] له سماع من سهيل بن أبي صالح[1].

وهذه براعة من الإمام البخاري في فهم علل الأحاديث [illegible] هذا الفن أصعب فنون علوم الحديث وأشدها غموضا

وقد يصل إلى المقصود من ليسوا في مستوى هؤلاء في [illegible] والحفظ ولكن بعد بذل جهد كبير ووقت طويل في البحث عن [illegible] الراوي وعن المرويات في الموضوع، بينما يكون هذا الجهد والوقت مختصرين أمام العلماء الأفذاذ لسرعة تذكرهم لهذه الموضوعات

كما أن الحكم على الأحاديث يحتاج إلى معرفة تامة بموضوع العلل، لأن من شرط قبول الحديث خلوه من العلل.

فإذا بلغ الباحث مرتبة الأئمة الكبار من أمثال أحمد بن حنبل والبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم والدار قطني الذين كانوا تُعرض عليهم الأحاديث فيبينون ما فيها من علل حال سماعها غالباً، فإنه جدير بأن يحكم على الأحاديث بأدنى نظر وإلا فإنه مع التوسع في هذا العلم بحاجة إلى البحث الطويل حتى يصل إلى معرفة [illegible] العلل وقد لا يصل إلى ذلك.

ولا يكون العالم متأهلاً للحكم على الأحاديث إلا إذا [illegible] الاطلاع على السنة بمختلف طرقها، وقد كان العلماء [illegible]

---

(١) مقدمة فتح الباري / ٤٨٨

حياتهم العلمية بالرواية عن العلماء، وكانوا يقطعون آلاف الأميال في رحلاتهم العلمية من أجل رواية أحاديث جديدة أو الاستزادة من طرق الرواية، فإذا أنهوا هذه المرحلة أو قاربوا على الانتهاء واجتمع لدى الواحد منهم عدد من الطرق لكل حديث فإنهم يدخلون مرحلة التأهل للحكم على الأحاديث، ومع ذلك فإنه لم يشتهر بالحكم المذكور إلا قليل من العلماء في كل عصر لأنه من الصعب الإحاطة بالطرق المتعددة للحديث الواحد ومعرفة العلل ونحو ذلك مما يلزم للحكم على الأحاديث.

أما في هذا العصر فيمكن أن تتم المرحلة الأولى بدراسة كتب السنة دراسة وعي واستيعاب على شيوخ متقنين، بحيث يكون الدارس قادراً على جمع طرق الحديث الذي يريد الحكم عليه، والأحاديث الواردة في موضوعه، وفي أثناء هذه الدراسة يدرس مصطلح الحديث على الشيوخ لا ليحكم على الأحاديث في هذه المرحلة وإنما ليفهم به تعبيرات العلماء، وليطبقه على كلامهم في كتب السنة.

ومن خلال دراسته كتب السنة واطلاعه على شروحها ستكون عنده معلومات كثيرة عن طرق الروايات وعن كلام العلماء في الحكم على الأحاديث وعلى الرجال، ولا يمكن أن ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي التأهل للحكم على الأحاديث إلا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى.

لهذا فإنني حرصت على تتبع حكم العلماء المعتبرين في هذا العلم وإثباته مع النصوص التي أوردها، فإذا حكموا على الأثر بما يشعر بقبوله

فإنني أقبله ولو تبين لي ضعف في إسناده، ولا أقبل مخالفة الباحثين المعاصرين للعلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم، لأن أغلب الباحثين المعاصرين حسب علمي لم تتحقق فيهم أهلية الحكم على الأحاديث، فكيف أقبل مخالفتهم لعلماء قد بلغوا الأهلية في ذلك، بل قد بلغ بعضهم القمة في الكفاءة في هذا الشأن ؟!.

ومن مسوغات ذلك أن العالم الخبير قد يحكم على الحديث بالصحة بالنظر لمجموع أسانيده من غير أن يصرح بأنه صحيح لغيره، فيأتي من يعارضه فيحكم له بالحسن، لأنه نظر إلى سند واحد ولم يستوعب دراسة أسانيد الحديث، وربما حكم العالم على الحديث بالحسن لشواهده فيأتي من الباحثين المعاصرين من يضعفه لما ظهر له من دراسة أحد أسانيده، وربما حكم العالم على الحديث بالصحة مع عدم بلوغ رجاله درجة الثقة لكون الرواية من صحيفة، وإذا كانت كذلك فإنه لايشترط في رواتها أن يبلغوا تمام الضبط، فيأتي من لم يتعمق في العلم فيحكم على الحديث بالحسن أو الضعف.

وقد حدث ذلك مني حيث حكمت قديما على روايات صحيفة على ابن أبي طلحة بالضعف لأن فيها عبدالله بن صالح وقد وصف بأنه كثير الغلط، ومعاوية بن صالح وقد وصف بأنه له أوهام.

فلما تقدمت في العلم في مرحلة لاحقة حكمت على روايات هذه الصحيفة بالحسن لأن الكلام الذي في معاوية بن صالح لايضر، لأنه لم يَهِمْ في تلك الروايات، ولأن عبدالله بن صالح ثبْت في كتابه، وهذه الروايات من صحيفة.

ثم وجدت بعد ذلك أن الحافظ ابن حجر حكم على إسناد رواية من هذه الصحيفة بالصحة، فتعجبت من ذلك وقلت: كيف يحكم على هذه الصحيفة بالصحة وهو الذي تكلم على رواتها في "التقريب" بالكلام السابق ؟!.

ثم تبين لي بعد ذلك أن الرواية إذا كانت من صحيفة فإنه لايشترط في رواتها اتصافهم بتمام الضبط ليُحكم عليها بالصحة لأنهم يروون من صحيفة مكتوبة، فإذا وُصفوا بالعدالة فإن روايتهم صحيحة ولو لم يبلغوا تمام الضبط.

فعرفت بهذا وغيره أن هذا العلم يحتاج إلى جهد كبير وزمن طويل قبل أن يصل صاحبه إلى مرتبة الأهلية للحكم على الأحاديث.

وبهذا يتبين لنا أن مخالفة العلماء المتبحرين في هذا العلم لاتليق بالباحثين المبتدئين، ولاتقبل إلا من عالم مماثل لأولئك العلماء في علمهم أو مقارب لهم على الأقل.

وحينما لانجد حكما للعلماء السابقين الذين يعتد بحكمهم فإن الحاجة قائمة لاجتهاد علماء هذا العصر في الحكم على تلك الأحاديث، ولكن ليس هذا من شأن المبتدئين ولا المتوسطين في هذا العلم، وإنما هو من شأن المنتهين الذين يشهد لهم أهل العلم بالتقدم والتعمق في هذا الشأن، كما هو الحال في علماء العصور السابقة.

إن البحث في الحكم على الأحاديث يمر عادة بمرحلتين : المرحلة الأولى الحكم على رجال الإسناد، والمرحلة الثانية الحكم على الحديث

نفسه، فإذا صدر الحكم من العلماء على رجال الإسناد فقط فقد تمت بعض مرحلة من البحث، وينبغي للعلماء المتأهلين للحكم على الأحاديث أن يكملوا هذه المرحلة، وذلك بالبحث أولا في روايات المتكلم فيهم لمعرفة الحديث المبحوث فيه هل هو مما أخذ عليهم أم لا، ثم بالبحث ثانيا في الروايات المروية في هذا الموضوع إن كان الحديث يحتاج إلى تقوية، أما إذا صدر الحكم على الأحاديث نفسها من علماء هذا الشأن فالمنهج الصحيح أن نقبل حكم هؤلاء العلماء، مالم نعثر على حكم مخالف لمن هم أعلم منهم، وأن نتفرغ للأعمال العلمية الأخرى التي هي بحاجة إلى بحث.

لكن المشاهد في هذا العصر أن بعض الباحثين يأتون إلى هذه الأحاديث التي حكم العلماء عليها بالصحة أوبالحسن أو قبلوها في بابها وانتهى أمر البحث فيها فيقومون باستئناف المرحلة الأولى من البحث حيث يقومون بالحكم على بعض رجالها ببيان ما قيل فيهم من جرح، ثم إن بعضهم يتوقف عند هذه المرحلة من البحث إما تورعا عن الحكم على متون الأحاديث أو لغير ذلك من الأسباب، وهؤلاء لم يصنعوا شيئا سوى التشكيك في قبول نصوص السنة والسيرة، وبعضهم يقوم بالمرحلة الثانية فيحكم على تلك النصوص بالضعف مع أنه غير مؤهل لهذا الحكم لما سبق بيانه من عدم الإلمام بمرويات الرواة المتكلم فيهم، وعدم إحاطته بالنصوص الواردة في الموضوع، وبهذا يكون قد ألغى نصوصاً صالحة مقبولة.

هذا وقد حاولت أن أسير في ترتيب هذه الموضوعات على التسلسل

التاريخي للوقائع، ليكون العثور عليها سهلا لمن أراد ذلك، ولكنني خالفت ذلك في بعض الموضوعات تغليبا لجانب التناسب الموضوعي، وهذا لايكون غالبا في الموضوعات التي اشتهرت بمراحلها التاريخية.

وقد جاءت هذه الموضوعات بحمد الله تعالى مشتملة على مواقف متنوعة، فالأجزاء الأولى يغلب عليها جانب الدعوة والعقيدة لكون أحداثها قد جرت في العهد المكي، والأجزاء التي تليها يغلب عليها الجانب الجهادي والإداري لكون أحداثها قد جرت في العهد المدني وعهد بني أمية، وهناك أجزاء خصصت للمواقف الأخلاقية والعلمية لكون هذه المواقف لاترتبط بالمراحل التاريخية، وهذه قد تم ترتيبها على حسب موضوعاتها .

توثيق الروايات المختارة :

قبل الشروع في بيان هذه المواقف فإنني أذكر كلمة موجزة عن توثيق الروايات التي بنيت عليها المواقف المذكورة فأقول: إنني اعتمدت في اختيار هذه الروايات على كتب السيرة والتاريخ المعتمدة عند أهل العلم ومن أبرزها: سيرة الإمام محمد بن إسحاق عن طريق ابن هشام.

كما اعتمدت على كتب السنة حيث يوجد فيها نصوص كثيرة في السيرة ، ومن أبرزها مسند الإمام أحمد بن حنبل وصحيح الإمام البخاري.

وقد قمت بتوثيق هذه الروايات، وذلك ببيان حكم العلماء المعتدِّ بهم في هذا العلم على هذه الروايات، من أمثال الحفاظ: ابن كثير

والذهبي والهيثمي وابن حجر العسقلاني أو اعتمادهم لها .

وليُعلَم أن ما كتبته من توثيق الروايات التي أوردتها من رواية كبار المحدثين فليس ذلك لعدم الثقة بهؤلاء الحفاظ الكبار ، وإنما هو لتحصيل مزيد من الثقة عند القراء الذين قد يشكون في بلوغ تلك الروايات درجة القبول .

منهج العلماء في قبول الأخبار :

حينما اتسعت دائرة الرواية في عهد التابعين ومن بعدهم أصبح يقبل على الرواية رواة متفاوتون من ناحية الحفظ والعدالة ، فظهرت بسبب ذلك الحاجة إلى تمييز الرواة والروايات ، وتصدى لباب الجرح والتعديل ونقد الروايات عدد من العلماء المتبحرين في علم الحديث ورواية الأخبار الذين أصبحوا يدركون الخلل في الروايات بمجرد سماعها بأسانيدها المختلفة .

وقد تمخضت حركة النقد هذه عن مناهج مختلفة في معايير الروايات ، وذلك بعدما اتفق العلماء على قبول ما بلغ درجة الصحة أو الحسن في جميع الموضوعات التي تعرضت لها الروايات ، واتفق العلماء المعتبرون في هذا الشأن على رد الروايات الشديدة الضعف ، وهي التي قد أتى ضعفها من جانب الطعن في بعض رواتها من حيث العدالة[1] .

ولكنهم اختلفوا في جانب قبول الروايات التي جاء الحكم عليها من ناحية اتهام بعض رواتها بالضعف من ناحية الحفظ .

---

(١) وقد ألحق بعض العلماء بذلك من فحش خطؤه وكثرت غفلته .

وفي ذلك يقول الإمام البيهقي رحمه الله في بيان الأحاديث الضعيفة: فهي أحاديث اتفق أهل العلم بالحديث على ضعف مخرجها وهذا النوع على ضربين: ضرب رواه من كان معروفاً بوضع الحديث والكذب فيه، فهذا الضرب لايكون مستعملاً في شيء من أمور الدين إلا على وجه التليين، وضرب لايكون راويه متهماً بالوضع غير أنه قد عرف بسوء الحفظ وكثرة الغلط في رواياته، أو يكون مجهولاً لم يَثْبُت من عدالته وشرائط قبول خبره ما يوجب القبول.

فهذا الضرب من الأحاديث لايكون مستعملاً في الأحكام كما لاتكون شهادة من هذه صفته مقبولة عند الحكام، وقد يستعمل في الدعوات والترغيب والترهيب والتفسير والمغازي فيما لايتعلق به حكم.

ثم ذكر بإسناده عن عبدالرحمن بن مهدي أنه قال: إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال.

وروى بإسناده عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن محمد بن إسحاق فقال: وأما محمد بن إسحاق فهو رجل تكتب عنه هذه الأحاديث - كأنه يعني المغازي ونحوها - فأما إذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا - وقبض أصابع يده الأربع من كل يد ولم يضم الإبهام-[1].

---

(١) دلائل النبوة ١/ ٣٣-٣٨، وانظر فتح المغيث ١/ ٢٦٧.

منهج العلماء في تدوين السيرة :

لقد كان للعلماء في تدوين السيرة مناهج متعددة، وأهم [illegible] الكتب التي عرضت السيرة النبوية على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الكتب التي اقتصر أصحابها على ما [illegible] الصحة حسب معايير المحدثين، ومن ذلك ما تضمنه كتب السنة التي التزم أصحابها بإخراج الصحيح فقط، وعلى رأس هذه الكتب صحيحا الإمامين البخاري ومسلم.

النوع الثاني : الكتب التي التزم أصحابها بإخراج ما كان صالحاً في هذا الباب، وذلك يشمل الصحيح والحسن والصالح للاعتبار، ومن ذلك كتب السنة التي لم يلتزم أصحابها بإخراج الصحيح وحده، وعلى هذا النحو أكثر كتب السنة المعتبرة مثل كتب السنن الأربع ومسند الإمام أحمد، ومن أبرز ما يدخل في هذا الباب كتب السيرة المعتمدة، وعلى رأسها [سيرة ابن إسحاق] بالنسبة لكتب المتقدمين.

وقد جاءت بعد ذلك كتب مختارة دوَّنها أصحابها بالأسانيد، وعلى رأس هذه الكتب [دلائل النبوة للبيهقي]، وفي هذا المنهج الذي يدل على اختيار ما هو مقبول في هذا الباب يقول الإمام البيهقي : «ويُعلم أن كل حديث أوردته فيه قد أردفته بما يشير إلى صحته، أو تركته مُبهماً وهو مقبول في مثل ما أخرجته. وما عسى أوردته بإسناد فيه ضعف أشرت إلى ضعفه، وجعلت الاعتماد على غيره.

وقد صنف جماعة من المتأخرين في المعجزات وغيرها كُتُباً وأوردوا فيها أخباراً كثيرة من غير تمييز منهم صحيحها من سقيمها، ولا مشهورها من غريبها، ولا مرويها[1] من موضوعها، حتى أنزلها من حسنت نيته في قبول الأخبار منزلة واحدة في القبول، وأنزلها من ساءت عقيدته في قبولها منزلة واحدة في الرد.

قال: وعادتي - في كتبي المصنفة في الأصول والفروع - الاقتصار من الأخبار على ما يصح منها دون ما لا يصح، أو التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح؛ ليكون الناظر فيها من أهل السنة على بصيرة مما يقع الاعتماد عليه، لايجد من زاغ قلبه من أهل البدع عن قبول الأخبار مَغْمَزاً فيما اعتمد عليه أهل السنة من الآثار.

ومن أنْعَمَ النظر في اجتهاد أهل الحفظ في معرفة أحوال الرواة، وما يقبل من الأخبار وما يرد، علم أنهم لم يَألُوا جُهْداً في ذلك، حتى إذا كان الابن يَقْدَحُ في أبيه إذا عثر منه على ما يوجب ردّ خبره، والأب في ولده، والأخ في أخيه، لا تأخذه في الله لَوْمَةُ لائم، ولا تَمْنَعُه في ذلك شَجْنَةُ رَحم ولا صلة مال، والحكايات عنهم في ذلك كثيرة، وهي في كتبي المصنفة في ذلك مكتوبة.

ومن وقف على تمييزي في كتبي بين صحيح الأخبار وسقيمها، وساعده التوفيق علم صدقي فيما ذكرته.

---

(١) هذا فيه تجوُّز في التعبير لأن الحديث الموضوع من جملة المروي، ومن السياق يفهم أن المراد ما له أصل ثابت وإن كان ضعيفاً.

ومن لم يُنْعم النَّظر في ذلك ولم يساعده التوفيق فلا يغنيه شرحي لذلك، وإن أكثرت، ولا إيضاحي له، وإن بلغت، كما قال الله عز وجل: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون﴾»[1]،[2].

وقد بين في موضع آخر أنه قد يورد ما لم يَسُغْ قبوله لكونه يوضح ما سبق من الروايات المقبولة حيث قال: «على نحو ما شرطته في مصنفاتي، من الاكتفاء بالصحيح من السقيم، والاجتزاء بالمعروف من الغريب إلا فيما لايتضح المراد من الصحيح أو المعروف دونه فأورده، والاعتماد على جملة ما تقدمه من الصحيح أو المعروف عند أهل المغازيّ والتواريخ»[3].

النوع الثالث: الكتب التي اعتمد أصحابها على مجرد الرواية وجمع مروياتهم وذكر إسنادهم في ذلك ليكون محل دراسة للعلماء.

وقد جاء في مقدمة تاريخ الطبري ما يشعر بأنه قد سار في كتابه على هذا المنهج وذلك في قوله: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يُؤتَ في ذلك من قِبَلنا وإنما أتيَ من قِبَل بعض ناقليه إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدِّيَ إلينا»[4].

---

(١) سورة يونس آية [١٠١]

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٤٧

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٦٩ .

(٤) تاريخ الطبري ١/ ٨ .

وبما أنه قد صدَّر كتابه بما يُشعر بعدم قيامه بانتقاء الروايات المقبولة فإنه ينبغي عرض مروياته على روايات المحققين القدامى كابن هشام وعلى اختيارات الحفاظ المتأخرين كابن كثير والذهبي. ونظراً لاحتمال كون الطبري لايتقيد باختيار الروايات المقبولة فإنني لم أذكر عنه شيئاً مما يتعلق بالسيرة النبوية إلا على سبيل الاستشهاد.

وبعد أن تم تدوين السيرة في كتبها القديمة التي وصلت إلينا برواية أصحابها قام بعض العلماء في مختلف العصور بتدوين كتب في السيرة اختاروها من كتب السيرة والسنة وكان منهجهم يقوم على إيراد الأخبار كاملة من كتب السيرة مع الإشارة إلى روايات كتب السنة وأحياناً يقدمون روايات كتب السنة إذا كانت كاملة مع بيان الخبر ويشيرون إلى روايات أهل السيرة.

ومن أبرز هذه الكتب [عيون الأثر] لابن سيد الناس و [البداية والنهاية] لابن كثير و[تاريخ الإسلام] للذهبي.

يقول الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس: وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحاق إذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا، غير أني قد أجد الخبر عنده مرسلاً وهو عند غيره مسنداً فأذكره من حيث هو مسند ترجيحاً لمحل الإسناد[1].

(١) عيون الأثر ١/٧.

منهج الباحثين في العصر الحاضر :

لقد كان اهتمام الباحثين في بداية هذا العصر متجهاً نحو تلخيص أحداث السيرة وعرضها بأسلوب سهل مع حذف أسانيدها وحذف المكرر منها، وكان لتلك الطريقة فوائدها الملموسة في تقريب السيرة إلي أذهان القراء وخاصة المبتدئين.

ثم كان اتجاه المؤلفين في السيرة بعد ذلك إلى استنباط العبر والفوائد من النصوص وبيان المواقف الدعوية من خلال أحداث السيرة، فقد كان اهتمام هؤلاء المؤلفين موجهاً إلى المقاصد المهمة من السيرة وتوجيه الاستفادة منها في مجال الدعوة الإسلامية، ومحاولة علاج مظاهر النقص في تطبيق الإسلام في هذا العصر من خلال عرض النماذج العالية لهذا التطبيق في العهد النبوي.

ولكن مما يؤخذ على بعض المؤلفين في هذين الاتجاهين أنهم سردوا أحداث السيرة مع إغفال ذكر المراجع، فأصبحت هذه الكتب تفقد سند توثيقها.

وهذا المنهج إضافة إلى كونه مخالفاً لمنهج السلف في الرواية والتدوين فإنه يفقد الثقة بهذه النصوص ويجعل القراء لايطمئنون إلى ثبوت تلك الأخبار لاحتمال أنه قد اختلط فيها المقبول والمردود.

وبالتالي فإن ما بُنِي عليها من الفوائد والعبر لاينتج الثمرات المرجوة من أخذ العبرة والموعظة لقيام الشك في النفوس في تلك الأخبار التي بنيت عليها تلك النتائج.

وإذا عرفنا أن الميزة الكبرى لتلك المؤلفات هي ما قام به أصحابها من تلخيص السيرة لتقريبها إلي الأذهان أو استنباط الفوائد والعبر فإن هذين المقصدين لن تتحقق الفائدة منهما إلا إذا قام الباحثون بتوثيق النصوص التي بُنِيت عليها تلك النتائج .

ثم كان اتجاه بعض الباحثين في السيرة إلى دراسة الأسانيد واستخراج النصوص الصحيحة ، حيث ألفوا كتباً في السيرة اقتصروا فيها على ما بلغ درجة الصحة .

وهذا المنهج له فائدته الكبرى في معرفة النصوص الصحيحة التي يمكن أن تؤخذ منها العقائد والأحكام ونحوها حيث إن هذه المجالات هي التي يشترط أن يكون الحديث فيها صحيحاً أو حسناً .

ولكن المنهج الذي سار عليه هؤلاء المؤلفون لم يحدَّد فيه هذا المقصد بوضوح ، وربما كان هناك إشارات خفيفة إليه في بعض المقدمات ، ولكن الذي يفهمه غالب القراء أن هذه الكتب هي كتب السيرة المعتمدة ، وأن كتب السيرة القديمة قد اختلط فيها الصحيح والضعيف فلا يعتمد عليها .

وحينما نأخذ هذه الكتب المعاصرة التي اقتصرت على ذكر النصوص الصحيحة على أنها كتب في السيرة فإنه سيحصل بذلك نقص وفجوات في عرض الأحداث ، لأن القصة قد تأتي بعدة أخبار يكون بعضها صحيحاً وبعضها دون ذلك ، فإذا اقتصرنا على الصحيح منها حصل انقطاع في بعض مراحل القصة ، أو حصل طمس لها بالكامل ما عدا الإشارة إلى خبر يعتبر من نتائج القصة أو من ملابساتها .

ومن أمثلة ذلك خبر حصار الشعب، حيث اكتفى بعض مؤلفي السيرة الصحيحة بذكر حديث للإمام البخاري جاء فيه ذكر نزول رسول الله ﷺ في المحصّب وأنه المكان الذي تقاسم فيه الكفار على الكفر، يعني يوم أن قاطعوا بني هاشم ومن كان معهم، فهل هذا الخبر القصير يفيد شيئاً عن حصار الشعب الذي فصّله أهل السيرة، واستنتج منه العلماء الفوائد والعبر العظيمة ؟!

وكذلك خبر خروج النبي ﷺ لدعوة أهل الطائف قد اقتصر بعض من ألفوا في السيرة الصحيحة على إيراد حديث الإمام البخاري الذي فيه بيان أن أشد ما مرّ على النبي ﷺ من الأذى مالقيه من أهل الطائف، فهل يسوغ لمؤلف أن يعقد فصلاً عن خروج النبي ﷺ إلى الطائف ثم لايذكر إلا هذا الحديث ؟!

إن هذه المؤلفات لاتصلح أن تكون كتباً في السيرة، خاصة إذا توقعنا أنه قد يستغني بها طلاب العلم عن الرجوع إلى كتب السيرة القديمة، لأن وصف هذه الكتب المعاصرة بالصحة يقتضي الدعوة إلى الإعراض عما لم يدون في هذه الكتب الصحيحة.

لقد سار بعض مصنفي كتب السنة الأوائل على اختيار الأحاديث الصحيحة في السيرة وما يقرب منها وأدخلوها في كتبهم في مناسباتها، وهذا عمل لاغبار عليه لأنهم لم يؤلفوا كتباً في السيرة وإنما ألفوا كتباً في السنة، واختاروا من السيرة ما يصل إلى مستوى اختيارهم في السنة من درجة الصحة، أما تأليف كتب في السيرة تختص بما يصل إلى درجة الصحة فليس من منهج العلماء المتقدمين فيما أعلم.

وعلماء السنة الذين دونوا السيرة في كتبهم لم يقصدوا استيعاب أحداث السيرة كلها ولا تأليفها على ترتيبها الزمني في الغالب وإنما قصدوا اختيار بعض الأخبار التي بلغتهم على حسب منهجهم في تصنيف الكتب في السنة .

وكان الأولى بهؤلاء الباحثين الذين توجهوا إلى جمع نصوص السيرة الصحيحة أن يختار الواحد منهم كتاباً من كتب السيرة المشهورة وأن يعلق عليه ببيان الأخبار الصحيحة التي ورد أكثرها في كتب السنة، حتى نحافظ على تسلسل الأخبار وتكاملها مع معرفة ما بلغ منها درجة الصحة لمن أراد ذلك .

هذا وإن أسوأ ما في هذا المنهج أن يأتي الباحث فيستخرج ما في كتاب معين من الأحاديث والأخبار التي يراها صحيحة فيفردها في كتاب من غير نظر إلى منهج المؤلف الذي سار عليه في قبول الأخبار .

فإذا أخذنا كتاب [دلائل النبوة] للإمام البيهقي مثلاً فإننا نعرف أن منهجه أنه يورد في كتابه الأخبار الصحيحة ويشير إلى صحتها، ويورد الأخبار المقبولة في مثل هذا الموضوع الذي ألف الكتاب لبيانه، وأنه إذا أورد خبراً ضعيفاً بيَّن ضعفه واعتمد على غيره، كما بيَّن أنه قد يورد مالا يُقْبَل بعد إيراد المقبول لكون المقبول لايتضح المراد منه إلا بإيراد ذلك الخبر فيورده للبيان ويكون الاعتماد على ما تقدمه من أخبار مقبولة .

وهذا لايعني خلو الكتاب من وجود نصوص لاينطبق عليها شرط المؤلف فإن كثيراً من الكتب لاتخلو من ذلك، والعلماء من أهل هذا

الشأن يقومون عادة ببيان الأحاديث الشديدة الضعف مع الالتزام بمنهج المؤلف .

أما ما يفعله بعض الباحثين المعاصرين من الهجوم على كتب العلماء المحققين من غير نظر إلى منهجهم الذي ساروا عليه والقيام باختصار كتبهم وذلك بالاقتصار على ذكر الأحاديث الصحيحة وحذف كل خبر ينزل عن ذلك ، فإنه يعتبر جناية على أولئك العلماء ، والذي يفعل ذلك يكون قد اقتنع بمنهج النقاد المتشددين وهو عدم قبول ما نزل عن درجة الحسن مطلقاً بينما قد يكون المؤلف يرى قبول الأخبار الصالحة للاعتبار في مجال السيرة والدلائل ونحوها ، وبهذا يكون المختصِر قد ألزم المؤلف بمنهج لا يراه .

نعم لو جاء من يستدرك على الكتب التي عنونها أصحابها بالصحة كصحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان فيستخرج منها ما يراه صحيحاً فإن هذا العمل مقبول ، لأن من قام بهذا العمل يكون قد استدرك على المؤلف على حسب منهجه الذي التزم به ولم يحافظ عليه ، مع أن المنهج السليم هو الإبقاء على كتاب المؤلف كما هو مع التعليق عليه ، هذا هو منهج علماء السلف رحمهم الله تعالى ، فإنهم كانوا يحترمون كتب العلماء السابقين وإن خالفوهم في الرأي والاجتهاد ، ومن أمثلة ذلك ما قام به الإمام الذهبي من اختصار مستدرك الحاكم ، فإنه لم يقتصر على ذكر الأحاديث التي يراها صحيحة ويلغي ما عدا ذلك ، بل أثبت الكتاب كله حتى ما يراه منه موضوعاً مع بيان رأيه في الحكم على الأحاديث التي أوردها .

إن الذي كان يقوم به العلماء قديماً من أنواع الاختصار يتضمن فائدة لطلاب العلم من غير أن يترتب على عملهم تشويه للكتاب الأصلي وذلك مثل ما يقومون به من حذف الأسانيد أو حذف الأخبار المكررة أو الجمع بين الأمرين أو الاقتصار على ما ذكر المؤلف مما لا يوجد في الكتب المشهورة ونحو ذلك من باب تسهيل المعرفة على طلاب العلم .

أما الاقتصار على ذكر بعض أخبار الكتاب ووصفها بالصحة فإن ذلك يعتبر طعناً في بقية الكتاب إلا إذا كان ما تُرك غير مقبول حتى على منهج المؤلف نفسه .

إن العلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم من أمثال الإمام البيهقي كانوا أقدر على استخراج الأخبار الصحيحة وإفرادها في كتاب من علماء هذا العصر وباحثيه ولكن كان منهجهم قبول ما كان صالحاً للاعتبار في المجالات التي حددوها ، ومنها السيرة ودلائل النبوة لما يترتب على ذلك من فوائد عظيمة في مجال الدعوة والقدوة الحسنة ، في مجال الأخلاق والسياسة والإدارة والحرب وغير ذلك ، وعلى هذا المنهج سار من جاء بعدهم من العلماء الكبار كالذهبي وابن كثير وابن حجر العسقلاني .

ولا أدري كيف يسوغ لباحث أن يلغي هذه الأخبار مع ترتب هذه الفوائد العظيمة عليها وعدم تعارضها مع أصول الإسلام وقواعده وأحكامه الثابتة !

الآثار السلبية لهذا المنهج :

إن هذا المنهج الذي يقوم على اختيار النصوص الصحيحة من السيرة

وجمعها في كتب وعرضها على أنها هي السيرة المعتمدة بالرغم من نتيجته الإيجابية فيما يتعلق بكونه من روافد السنة التي تثبت بها العقائد والأحكام فإن له نتائج سلبية خطيرة ، منها أنه يعتبر اختزالاً للسيرة وتضييعاً لثروة علمية كبرى كانت ولا تزال المصدر الثالث بعد الكتاب والسنة في الدعوة إلى الإسلام وتقويم السلوك وعمارة الأرض على مقتضى شريعة الله تعالى .

إن النبي ﷺ قد أذن لنا بالتحديث عن بني إسرائيل حيث يقول : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» رواه الإمام البخاري [1] .

وإذا كان لا حرج من التحديث عن بني إسرائيل لأخذ العبرة والموعظة مع أن أخبارهم خالية تماماً من الإسناد فكيف بأخبار المسلمين المروية غالباً بالسند وإن كان بعضها لا يصل إلى درجة الصحيح أو الحسن؟

لا شك أن الاستفادة من هذه الروايات الإسلامية في مجال الوعظ وتقويم الأخلاق وأخذ الخبرة في مجال الحرب والإدارة من أهم الأمور التي يقوم عليها بناء الأمة وربطها بماضيها المشرق الذي تفاخر به الأمم .

ومن آثار هذا المنهج السلبية أن بعض طلاب العلم أصبحوا لا يقبلون روايات السيرة التي لم يُدخلها هؤلاء المؤلفون المعاصرون في كتبهم التي اختاروا مادتها ووصفوها بالصحة ، ومن أمثلة ذلك أنني كنت يوماً أتحدث عن العبر والفوائد التربوية في خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف

---

(١) صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء رقم [٣٤٦١] الفتح ٦/ ٤٩٦ .

ودعوة أهلها فقال لي أحد الحاضرين : أثبت أولاً هذا الخبر ثم بين ما فيه من الفوائد ، فقلت له : ألا يكفي أن ابن إسحاق الإمام الكبير في السيرة قد أخرجه وأثبته ابن هشام في تهذيبه لسيرته ؟ فقال : لا إن روايات ابن إسحاق غير صحيحة .

ومن آثار ذلك حتى على المؤلفين في السيرة أن أحدهم ذكر رواية الإمام البخاري في قول النبي ﷺ عن أسرى بدر : « لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له » فاستشهد بذلك على أن لخروج النبي ﷺ إلى الطائف أصلاً ، وذلك لما جاء في خبر الخروج إلى الطائف من أن المطعم قد أجار النبي ﷺ يوم أن أراد دخول مكة .

فهل خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف لا يثبت إلا بمثل هذا الخبر القصير الذي لا تفهم علاقته بهذا الخروج إلا بعد معرفة تفاصيل رحلة الطائف ؟ وهل فقدنا الثقة بخبر ابن إسحاق المفصل حتى نحتاج إلى تدعيمه بهذه الرواية التي لا تدخل ضمن أخبار رحلة الطائف ؟!

ومن الآثار السلبية لهذا المنهج أن بعض الباحثين يحكم على بعض النصوص بالضعف ثم يتبع ذلك بالكتابة عن العبر والفوائد التي يحتوي عليها النص ، وفي هذا نوع من التناقض ، لأنه ما دام قد حكم على النص بالضعف فإنه قد ألغاه من التاريخ لأن الحكم على النص بالضعف يدفع القاريء إلى عدم الثقة به وصرف النظر عنه وعن التعليق عليه .

وهؤلاء الباحثون يكونون قد تأثروا بروعة النصوص فأحبوا أن يسهموا في إبداء مشاعرهم نحو عظمة مضامينها ، ولكنهم تأثروا بالمنهج

السائد الذي أصبح رائجاً في هذا العصر ، وهو أن لا يثق الباحث بأي نص كان إلا بعد بحث إسناده وإن كان مصدره قد بلغ آفاق الشهرة في العظمة والإتقان وأقره عظماء المؤلفين من أساطين العلم ، ما عدا ما اتفق علماء الأمة على استثنائه وهو ما أخرجه الإمام البخاري أو مسلم رحمهما الله في صحيحيهما .

المشكلة والحل :

تبين لنا من هذا العرض أن هناك مشكلة في أخبار السيرة والتاريخ ، وهي أن بعض الأخبار في هذا الموضوع لا تصل إلى درجة القبول عند بعض المحدثين حيث لا يبلغ إسنادها درجة الصحيح أو الحسن .

وهذه الأخبار منها ما هو صالح للاعتبار ، وهي أحاديث من اتُّهموا في حفظهم ولم يتهموا في عدالتهم ولم يصلوا إلى حد الفحش في الغلط ومنها ما هو مردود ، وهي أحاديث من اتهموا في عدالتهم أو فحش غلطهم ، فأما هؤلاء فقد اتفق العلماء على رد أحاديثهم وعدم الاعتبار بها .

وأما الأحاديث الصالحة للاعتبار فللعلماء أمامها موقفان :

الموقف الأول : موقف المعتدلين ، وهم العلماء الذين فرقوا بين الموضوعات التي اشتملت عليها النصوص ، حيث اشترطوا بلوغ النص درجة الحسن أو الصحة فيما إذا كان في العقائد أو الأحكام وتساهلوا في موضوعات أخرى منها السيرة والرقائق وفضائل الأعمال فقبلوا النصوص الصالحة للاعتبار وهي التي لم تبلغ درجة الحسن لكون بعض

رواتها وصفوا بالضعف من قبل حفظهم إذا لم يكن في متنها نكارة وإن لم يكن لها شواهد ترفعها إلى درجة الحسن واعتبروها من قبيل الحديث الصالح للعمل في المجالات المذكورة بينما توقفوا عن العمل بالأحاديث الصالحة للاعتبار في مجال الأحكام ، حتى يجدوا لها ما يرفعها إلى درجة الحسن .

وهذا هو الذي عبر عنه الحافظ عبد الرحمن بن مهدي بقوله السابق الذكر « إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال ، وإذ روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال » .

فهذا يعني أن الصالح للاعتبار صالح للعمل في هذه المجالات ، بينما لا يكون كذلك في الأحكام ، بل لا بد له من شواهد ترفعه إلى درجة الحسن .

ولا يمكن أن يحمل تسامح هؤلاء العلماء وتساهلهم على قبول الأحاديث التي بلغت درجة الحسن في هذه المجالات لأن الحديث الحسن مقبول حتى في الأحكام باتفاق العلماء فلا بد أن يحمل كلامهم على قبول ما دون الحسن في تلك الأمور وهو الصالح للاعتبار .

وكذلك لا يمكن حمل كلامهم على التسامح في الرواية مع اعتبار تلك الأحاديث غير صالحة للعمل إلا إذا جاء ما يرفعها إلى درجة الحسن لأن هذا الأمر وارد حتى في أحاديث الأحكام فكونهم يتشددون فيما يتعلق بالأحكام دليل على أنهم لم يريدوا مجرد تدوين الأحاديث بما في

ذلك الصالح للاعتبار حتى يوجد ما يقويه ، وإنما أرادوا اختيار الأحاديث المقبولة الصالحة للعمل .

أما الموقف الثاني : فهو موقف المتشددين في النقد ، وهم الذين لا ينظرون إلى موضوع النص ، وإنما ينظرون إلى الإسناد فيردون جميع الأحاديث الضعيفة ما لم يرد ما يسندها ويرفعها إلى درجة الحسن .

ولا شك أن مذهب جمهور العلماء هو الراجح ، وهو الذي عليه عمل أغلب العلماء الذين دونوا السنة والسيرة .

بل إن بعض كبار العلماء كانوا يحكمون على بعض كبار المؤرخين بالإمامة في التاريخ كما ذكر الحافظ ابن سيد الناس والحافظ ابن حجر عن الإمام ابن إسحاق مع أنه لم يتجاوز مرتبة الصدق في الحديث عند بعضهم (١) . وكما ذكر الحافظ الذهبي عن الواقدي بأنه إمام المؤرخين مع أن المحدثين حكموا عليه بأنه متروك (٢) .

وهذا دليل واضح على أن العلماء يفرقون بين معايير النقد في الحديث ومعاييره في التاريخ .

بل أبلغ من ذلك أن من الرواة من حكم له النقاد بالإمامة في القراءة مع الحكم عليه بالترك في الحديث وهو حفص بن سليمان القاريء راوي القراءة عن عاصم حيث قال عنه الحافظ ابن حجر : متروك الحديث مع إمامته في القراءة (٣) .

---

(١) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤ ، عيون الأثر ١/ ٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١ . (٣) تقريب التهذيب ١/ ١٨٦ .

وأساس ذلك أن من الرواة من يوجه اهتمامه الأكبر لفن من الفنون فيتقنه إتقاناً تاماً بينما يعطي الفن الآخر بعض اهتمامه فلا يبلغ فيه حد الإتقان .

وهكذا كان المؤرخون الأوائل الأكابر أمثال ابن إسحاق والواقدي ، حيث شهد لهم معاصروهم بالإجادة والإتقان في السِّير والمغازي لكونهم وجهوا اهتمامهم الأكبر لهذا الباب ، حتى إن بعضهم كالواقدي كان يذهب إلى مواطن الغزوات فيسأل أهل البادية عن تلك الأماكن ليطبق ما جاء في الروايات على ذلك .

ويأتي هنا تساؤل مهم ، وهو هل نحكم على هذه النصوص بالضعف ثم نقبلها ونستفيد منها ؟ أم نقبلها من غير حكم عليها بذلك ؟

فالذي سار عليه جمهور العلماء الذين دونوا السيرة هو قبول تلك الروايات الصالحة للاعتبار من غير حكم عليها بالضعف واعتبارها صالحة للعمل بها ، وهو رأي جمهور علماء الحديث كما سبق .

وبعض العلماء المعاصرين يرون قبولها تاريخياً مع الحكم عليها بالضعف ، والذي ذهب إليه جمهور العلماء هو الراجح لأن الحكم على هذه الأخبار بالضعف يفقد الثقة بها ، ولا يجعل النفوس تنشط للاتعاظ بها والاستفادة منها ، ولأن هذا هو الموافق لمنهج السلف وهم جمهور العلماء كما سبق .

ومما ينبغي أن يتنبه له الباحثون في التاريخ أن يستبعدوا جميع الأخبار التي تشتمل على طعن في الصحابة رضي الله عنهم لأن ذلك

يتنافى مع عدالتهم التي ثبتت في نصوص كثيرة صحيحة ، وأن يقبلوا ما يشتمل على بيان فضائلهم إذا ورد من طريق صالح للعمل ولم يكن في متنه نكارة .

إن الذين يردون أخبار فضائل الصحابة لأن أسانيدها لم تصل إلى درجة الحسن يسيئون إليهم لأنهم يغطون على فضائلهم التي لا مثيل لها في الجملة في جيل آخر .

وأخيراً فإن مما ينبغي التنبه له أن يتحلى طلاب العلم بالورع وأن لا يسارعوا إلى الحكم على الروايات بمجرد النظر إلى أسانيدها فإن ذلك قد يكون فيه هدم للتاريخ وإقامة لبناء مهلهل لا يقوم على أسس ثابتة ، وأن يكتفوا بحكم العلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم فيما حكموا عليه أو أقروه في كتبهم على سبيل الاختيار ، وأن يقتصر أمر الحكم من خلال دراسة الأسانيد على النوادر من العلماء الكبار في هذا الفن الذين أمضوا فيه عمراً طويلاً وشهد لهم العلماء بالفهم وسعة الاطلاع .

ابن إسحاق الإمام في السيرة :

حيث إن ابن إسحاق هو أشهر من ألف في السيرة واعتمد العلماء على سيرته ، وحيث إنني أوردت من رواياته في هذا الكتاب كثيراً فإنني سأذكر له ترجمة موجزة أبين فيها مكانته العلمية وخاصة في السيرة .

فهو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني نزيل العراق مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف [1] .

---

(١) عيون الأثر ١/٨ ، وتقريب التهذيب ٢/ ١٤٤ .

ثناء العلماء عليه وتعديله :

قال الزهري : لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا - يعني ابن إسحاق -

وقال شعبة : محمد بن إسحاق أمير المحدثين ، قيل له : لم ؟ قال : لحفظه . وسئل أبو زرعة عنه فقال : من تكلم في محمد بن إسحاق ؟ هو صدوق .

وقال ابن المديني : مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة ، فذكرهم ثم قال : وصار علم الستة عند اثني عشر أحدهم ابن إسحاق .

وسئل ابن شهاب الزهري عن المغازي فقال : هذا أعلم الناس بها -يعني ابن إسحاق- .

وقال الشافعي : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق .

وقال أبو معاوية : كان ابن إسحاق من أحفظ الناس ، فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر جاء فاستودعها محمد بن إسحاق ، فقال : احفظها علي فإن نسيتها كنت قد حفظتها علي .

وقال أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو النصري الدمشقي : محمد بن إسحاق قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه ، منهم سفيان - يعني الثوري - وشعبة وابن عيينة والحمادان وابن المبارك وإبراهيم بن سعد ، وروى عنه من الأكابر يزيد بن أبي حبيب ، وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً مع مدحة ابن شهاب له .

وقال البخاري : ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد .

وقال ابن معين : محمد بن إسحاق ثقة وليس بحجة .

وقال يعقوب بن شيبة : سألت ابن معين عنه فقلت : في نفسك من صدقه شيء ؟ قال : لا هو صدوق .

وقال العجلي عن ابن إسحاق : مدني ثقة .

وقال ابن عدي : ولمحمد بن إسحاق حديث كثير قد روى عنه أئمة الناس ولو لم يكن له من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق إليها . وقد صنفها بعده قوم فلم يبلغوا مبلغه ، وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد فيها ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف ، وربما أخطأ أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطىء غيره وهو لا بأس به .

وقال ابن حبان : ولم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه ولا يوازيه في جمعه ، وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار . . إلى أن قال : وكان يكتب عمن فوقه ومثله ودونه ، فلو كان ممن يستحل الكذب لم يحتج إلى النزول ، فهذا يدلك على صدقه [1] .

---

(١) عيون الأثر ١/ ٨-١٣ ، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٩-٤٦ .

ومع هذا الثناء الكثير على ابن إسحاق فقد اتهم باتهامات لا تصل إلى حد الجرح المؤثر وقد أجاب العلماء على تلك الاتهامات ، ومن أفضل وأوسع ما رأيت في الجواب عنها ما ذكره الحافظ ابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر » فليرجع إليه من أراد معرفة ذلك [1] .

وممن لخص القول في الإمام محمد بن إسحاق الحافظ ابن حجر حيث قال : محمد بن إسحاق بن يسار الإمام في المغازي مختلف في الاحتجاج به ، والجمهور على قبوله في السير ، قد استفسر من أطلق عليه الجرح فبان أن سببه غير قادح ، وأخرج له مسلم في المتابعات ، وله في البخاري مواضع عديدة معلقة عنه وموضع واحد قال فيه : قال إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحاق فذكر حديثاً [2] .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن علماء هذا الشأن قد قبلوا روايات ابن إسحاق ، ومنهم من وثقه ومنهم من وصفه بالصدق ، ومن الذين وصفوه بالصدق مع وصفه بالإمامة في المغازي الحافظ ابن حجر حيث يقول فيه : إمام في المغازي صدوق يدلس [3] .

وحكم الحافظ ابن حجر ونحوه على ابن إسحاق بالصدق فقط وعدم بلوغه عنده درجة الثقة إنما كان بناءً على مقارنة مروياته في الحديث مع مرويات الثقات ، فهو كذلك بالنسبة للحديث أما بالنسبة للمغازى والسير فقد حكموا له بأنه إمام في هذا الشأن ، ولا يصل إلى الإمامة في

(١) عيون الأثر ١/ ١٣ .
(٢) هدي الساري / ٤٥٨ .
(٣) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤ .

العلم إلا من كان ثقة فيما يرويه ، وإذا قارنا بين مروياته في السيرة مع مرويات الآخرين ممن حازوا على التوثيق نجده موافقاً لهم في الغالب مع تفوقه بكثرة المرويات ، ومن هذا الباب حاز على الإمامة في هذا المجال .

أما اتهامه بالتدليس فقد أجاب عنه الحافظ ابن سيد الناس بأن تدليسه ليس من النوع الذي يقدح في العدالة (١) ، ويقصد بذلك أن تدليسه ليس عن الضعفاء والمجاهيل .

سيرة ابن هشام :

في هذا الكتاب يرى القارىء اعتمادي في سيرة ابن إسحاق على رواية ابن هشام (٢) عن زياد البكائي (٣) مع الاستشهاد برواية ابن جرير الطبري (٤) بأسانيده عن ابن إسحاق ، وذلك لأن سيرة ابن إسحاق لا توجد اليوم كاملة ، وقد طبع جزء يسير منها بتحقيق محمد حميد الله .

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٣ .

(٢) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب العلامة النحوي الإخباري أبو محمد الذهلي السدوسي وقيل الحميري . ذكر ذلك الإمام الذهبي وقال : الأصح أنه ذهلي كما ذكره أبو سعيد بن يونس ، وقال : هذب السيرة النبوية ، وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق - سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢٨ .

(٣) هو زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي ، قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين - التقريب ١/ ٢٦٨ .

(٤) هو الإمام في التفسير والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، قال عنه الخطيب البغدادي : « كان أحد أئمة العلماء ، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره » تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣ . وقال عنه الإمام الذهبي : « كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرة تصانيف ، =

وقد لقي تهذيب ابن هشام لسيرة ابن إسحاق قبولاً وإعجاباً لدى العلماء على مر الأجيال ، وكان ذلك من عوامل الاحتفاظ بها والإكثار من نسخها حتى كاد ينسى أصلها .

وكان من أسباب الثقة بهذه السيرة أنها مرت على ثلاثة من الأعلام المعتبرين في هذا الشأن وهم ابن إسحاق صاحب السيرة وجامعها ، وزياد البكائي راويها عنه ، وابن هشام راويها عن البكائي ومهذبها .

وقد ذكر ابن هشام في مقدمة السيرة أنه أعرض عن أشياء لم ير قبولها ، وأنه أعرض عن أشياء لم يقرها له البكائي [1] وهذا دليل على أن هذه السيرة قد تعرضت لاختيار ابن إسحاق أولاً ثم لاختيار البكائى ثم لاختيار ابن هشام ، وذلك يعتبر توثيقاً لها من هؤلاء الأئمة .

هذا إضافة إلى أن أصحاب الكتب المختارة الذين يدونون ما يرونه مقبولاً في بابه قد ارتضوا هذه السيرة وأودعوها أو بعضها في كتبهم وعلى رأس هؤلاء الحفاظ : ابن سيد الناس وابن كثير والذهبي وابن حجر ، وكفى بذلك توثيقاً لهذه السيرة .

الواقدي الإمام في المغازي :

هذا وقد ذكرت في الجزء الرابع والأجزاء التي بعده مما يتعلق بالعهد المدني شيئًا من الأخبار التي أخرجها محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى لكون جمهور العلماء قبلوا رواياته في المغازي ، وإن كان كثير منهم قد ردُّوا رواياته في السنة .

= قل أن ترى العيون مثله » - سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ - .

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١١ .

وقد كان للواقدي عناية خاصة بالمغازي ، ومما يدل على ذلك ما جاء في قوله : « ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته : هل سمعت أحدًا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ، فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعاينه ، ولقد مضيت إلى المُرَيسيع فنظرت إليها ، وماعلمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه [1] .

وكذلك ماروُي عن ابن منيع قال : سمعت هارون الفروي يقول : رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة [1] فقلت : أين تريد ؟ قال : أريد أن أمضي إلى حُنين حتى أرى الموضع والوقعة [2] .

وكذلك ما رُوي عن إبراهيم بن إسحاق الحربي قال : سمعت المسَيَّبي يقول : رأينا الواقدي يوما جالسا إلى أسطوانة في مسجد المدينة وهو يدْرُس ، فقلنا : أي شيء تدرس ؟ فقال : جزئي من المغازي ، وقلنا له يومًا : هذا الذي تجمع الرجال تقول : حدثنا فلان وفلان وجئتَ بمتن واحد ، لو حدثتنا بحديث كل واحد على حدة ، فقال : يطول ، قلنا له : قد رضينا ، فغاب عنا جمعة ثم جاءنا بغزوة أحد في عشرين جلدا ، فقلنا : رُدَّنا إلى الأمر الأول [3] .

ونظرًا لاهتمامه الدقيق بجمع أخبار المغازي ومعرفة تفاصيلها أثنى عليه العلماء من هذا الجانب ، يقول تلميذه وكاتبه محمد بن سعد عنه : وكان عالما بالمغازي واختلاف الناس وأحاديثهم [4] .

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٦ ، عيون الأثر / ١٨ .

(١) الركوة إناء من جلد يحمل به الماء .

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٦ ، عيون الأثر / ١٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٠ ، عيون الأثر / ١٨ .

(٤) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٣٥ .

وقال فيه الإمام الذهبي : هو إمام المؤرخين [1] .

وكذلك وصفه الإمام ابن تيمية . وقد لخص الحافظ ابن حجر العسقلاني القول في قبول أخباره بقوله : والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولاغيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا [2] .

هذا ومن باب الاعتراف بالفضل لأهله فإنني اثبت أنني استفدت في الاجزاء الأولى من هذا الكتاب من التعليقات التي جاءت في هوامش الكتب التي أكثرت العزو إليها مثل صحيح مسلم وسيرة ابن هشام ومغازي الواقدي ، وقد أشرت إلى بعض ذلك في مواضعه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١ .

(٢) التلخيص الحبير ٢/ ٢٩١ .

حال العالم قبل الإسلام

قبل أن أتحدث عن المواقف والعبر من تاريخ الإسلام المشرق ، فإنني أحب أن أذكر نبذة موجزة عن أوضاع الجاهلية قبل الإسلام ، من باب تجلية النور بعد الظلام ، واستهداءً بما قام به جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبته البليغة أمام النجاشي ، حيث بين بعض مساوىء الجاهلية ، ثم انتقل إلى بيان شيء من محاسن الإسلام ، واستهداءً بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من أنه لا يقدر الإسلام حق قدره إلا من عرف الجاهلية .

فالعالم قبل الإسلام كان في جاهلية جهلاء ، في كل نواحي الحياة : من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية والمالية وغير ذلك ، وكان القاسم المشترك بين تلك الأمم الجاهلية أنهم كانوا جميعاً لا يؤمنون بالله تعالى وحده ولا باليوم الآخر ، ولذلك بنوا كل نواحي حياتهم على عدم النظر إلى رقابة الله عز وجل ، وعدم اعتبار رضاه وسخطه ، واعتبار الحياة الدنيا وعدم النظر إلى ما بعد الموت ، وإنما اختلفوا في مناهج الاستفادة من هذه الحياة الدنيا وطريقة السير على حسب ما أنتجته عقولهم المنحرفة .

الحالة الدينية :

إذا عرفنا أن التدين يعني شعور الإنسان بافتقاره إلى قوة هي أعلى من قوته وخضوعه لها ، فإن ظاهرة التدين في تلك الجاهلية كلها منحرفة بكل أشكالها ، لأنها تدور بين مخلوق يخضع ومخلوق يُخضع له ، فقد اتفقت الجاهلية في هذه النقطة ، واختلفت في تعيين من يستحق أن يعبد وأن يخضع له ، وقد اتفق أهل الجاهلية في شرك الطاعة ، حيث أطاعوا جميعاً سادتهم وكبراءهم من دون الله تعالى واختلفوا في شرك العبادة ، حيث عبد بعضهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعبد بعضهم الأصنام المنحوتة من الحجارة أو المصنوعة من الأشجار وغيرها ، وعبد بعضهم النار ، وعبد بعضهم البقر ، وعبد بعضهم الكواكب ، وغير ذلك ، ما عدا بقايا يسيرة من أفراد كانوا يعبدون الله تعالى ، كما قال رسول الله ﷺ عن تلك الجاهلية « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » أخرجه الإمام مسلم من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه [١] .

وكان أهل الجاهلية مأسورين لخرافات وأوهام لا حقيقة لها كالتشاؤم بالطيور والأيام ، ونحوها حيث رتبوا أمورهم من حيث الإقدام أو الإحجام على ذلك ، وسيتبين لنا من الكلام على الفتوحات الإسلامية كيف تورط الأعداء بالتشاؤم الذي كان يحكم تصرفاتهم وأن ذلك كان من أسباب انتصار المسلمين عليهم .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة رقم ٢٨٦٥ .

الحالة السياسية :

أما الحالة السياسية في الجاهلية فقد كان الحكم يقوم على تطبيق قوانين تعارف عليها أهل كل بلد ، ولا علاقة لها بالشرائع السماوية ، وهي تحمل انحرافات الفكر البشري الكثيرة وخاصة في الجنوح نحو الظلم وحماية الامتيازات التي تميز بها بعض طوائف البشر .

أما اختيار الزعماء فإنه يقوم عند العرب على اختيار سادة القبائل وشيوخها حيث لم تكن للعرب دولة ، ويعتمدون غالباً في مؤهلات الاختيار على توفر صفات الرجولة والسيادة حسب عرفهم مع اعتبار شرف النسب .

أما الدول ذات الحكومات كدولة الفرس والروم فإنها تقوم على النظام الطبقي ، حيث يكون بعض أفراد الأمة سادة وبعضهم عبيداً ، وتختلف درجات السيادة باختلاف درجات المسؤولية ، وكل طبقة تخضع للطبقة التي فوقها وتستعبد التي تحتها .

وكان بعضهم يعتقدون في أشرافهم أنهم فوق العامة في طينتهم وكان أشرافهم يتمتعون بالسلطة المطلقة التي لا يحكمها قانون إلا ما شرعه لهم آباؤهم الأولون كما هو الحال في ملوك الفرس .

وبعضهم كانوا يؤلهون أشرافهم ويعطونهم من الامتيازات ما لا حد له كما هو الحال في الهندوس الذين يؤلهون سادتهم من البراهمة .

فالجاهلية من حيث الحكم كانت تقوم في تلك الدول على مجموعة من الطغاة المستَعبدين المعتدِّين برأيهم ، وقد خلَّد تلك الحكومات مدة طويلة من الزمن ما توارثته شعوبها من اعتقاد أحقيتها المطلقة في الاستمرار في الحكم ، مهما جرى منها من الظلم والاستئثار لكونها تتميز بقداسة لا تتوفر في سائر البشر ، وقد قضى ذلك على كثير من مظاهر الحرية والإبداع في أمور الحياة .

أما قبائل العرب فقد كان الوضع فيها أفضل بكثير في هذا الجانب حيث كان لدى أفرادها حرية في إبداء الرأي وتوجيه سياسة القبيلة ، غير أنهم كانوا مأسورين بمفاهيم جاهلية لا يتجاوزونها في الغالب كتقديسهم لما ورثوه من الآباء والأجداد من العادات والأعراف وإن كان ظاهر البطلان .

الحالة الاجتماعية :

من مساوىء الجاهلية في الناحية الاجتماعية أن العلاقات بين الناس تقوم على أساس قومي ضيق ، وقد اتفق على العصبية القومية كل الناس في ذلك الزمن منذ أن انحسر تأثير دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك كانت الخلافات والحروب الدائمة هي الأصل في الغالب على أبناء ذلك الزمن وخاصة عند العرب بدافع حماية القوم والاعتداء على الأقوام الآخرين ، فالإغارة على الآخرين وسلب أموالهم لا تعتبر إجراماً ، بل تعتبر نوعاً من البطولة ومفخرة قومية يسجلها الشعراء في أشعارهم والخطباء في خطبهم .

ومن الغريب في حياة العرب أن هذه الأموال التي يحصلون عليها عن طريق السلب والنهب يقدمونها ولائم لإكرام الضيوف ، حيث كان أكثر أموالهم من المواشي ، ويفتخرون بالشجاعة والجسارة في ترويع الآمنين وسلب أموالهم ، وبالكرم والسخاء في تقديم هذه الأموال لنزلائهم .

وعندما يخوضون المعارك الطاحنة من أجل هذه المبادىء التافهة فإنهم لا يعتبرون أنفسهم قد انحطوا في الرذائل ، بل يعتبرون أنفسهم في القمة من الفضيلة ، ولذلك ترى أشعارهم طافحة بالحماسة والفخر كما في قول عمير بن شييم التغلبي المعروف بالقطامي .

ومن ربط الجِحَاش فإن فينا … قنا سُلباً وأفراساً حسانا

وكنَّ إذا أغرن على جَنَاب … وأعوزهن نَهْب حيث كانا

أغرن على الضِّباب على حِلالٍ … وضبَّة إنه من حانَ حانا

وأحياناً على بكر أخينا … إذا ما لم نجد إلا أخانا [1]

وكانت الحروب تقوم بينهم لأسباب تافهة ، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير ، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ١/ ٢٠٣ .

العرب وغلبتها على التعقل والتفكير ، فمن تلك الأيام مثلا يوم البَسُوس وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجَرْمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة ، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصاً به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة [1] .

وكذلك يوم داحس والغبراء وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس وهو فرس لقيس بن زهير والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحساً قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها فى الماء فسبقت الغبراء وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر وقامت الحروب بين قبيلتي عبس وذبيان [2] .

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي ، وكانت بدايتها حرب « سمير » وسببها أن رجلاً غطفانياً كان معه فرس فقال : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب ، فسمى الأوس رجالاً وسمى الخزرج رجالاً ، فدفعها إلى مالك بن العجلان الخزرجي ، فافتخر بذلك حليفه كعب بن العجلان الذبياني ، وقال ألم أقل لكم إن حليفي مالكاً أفضلكم؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس يقال له « سمير » فترصد لكعب فقتله ، فقامت الحرب بين الحيين ، وكان الظفر فيها للأوس .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٣١٢ .

(٢) المرجع نفسه ١/ ٣٤٣ .

ثم استمرت الحروب بينهما بعد ذلك مائة سنة ، حتى كان حرب «حاطب» وهي من أشهر أيامهم وسببها أن رجلاً من بني ثعلبة نزل على حاطب بن قيس الأوسي فرآه يزيد بن الحارث الخزرجي في السوق فقال لرجل يهودي : لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي [1] فأخذ اليهودي الرداء وكسع الثعلبي ، فنادى الثعلبي : يا لحاطب كُسع ضيفك وفُضح ، وأُخبِر حاطب بذلك ، فجاءه فسأله : من كسعك فأشار إلى اليهودي ، فقتله حاطب ، فجاء يزيد بن الحارث الخزرجي فأسرع ليقتل حاطباً فقتله وقتل رجلاً آخر من قومه ، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيها للخزرج ، وتبع ذلك حروب أخرى .

ثم كان آخر أيامهم « بعاث » وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة – وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة – واستعان كل فريق بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس [2] .

وهكذا قامت هذه الحروب بين أبناء العم وكان المستفيد الأول يهود المدينة ، ولم تنقطع هذه الحروب إلا بعد أن هداهم الله إلى الإسلام الذي ألف الله تعالى به بين قلوبهم فأصبحوا الرافد الثاني لنصر الإسلام بعد المهاجرين وسماهم النبي ﷺ الأنصار ، وكانت لهم بعد ذلك المواقف العظيمة في نصرة الإسلام .

---

(١) يعني أن يضربه بقدمه من الخلف ، وذلك إهانة .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٤٠٢ .

١ - إشراقة النور الإلهي

(بدء الوحي)

بينما كانت البشرية تعيش في دياجير الظلمات الحالكة ، وتعاني من أنماط الحياة المهلكة ، حيث خيم عليها الطغيان البشري الضاغط والجهل العالمي الجاثم ، والاستسلام للشهوات المنحرفة من غير رادع ولا زاجر ، إذا بشعاع النور الإلهي يهبط فجأة من السماء لينير جنبات الأرض ، يحمله الروح الأمين عليه السلام فيفاجيء به سيد المرسلين ﷺ وهو في غار حراء ، قد خلا للتأمل والتعبد بعيداً عن جلبة الناس وضجيجهم .

وأن أفضل من يحدثنا عن هذا الحادث العظيم الذي تغير له وجه التاريخ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه المَلَكُ فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني [1] حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت :

---

(١) الغط بمعنى الضغط والمقصود منه تنبيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولئن كانت وسائل التنبيه عند العرب تتحدد بدلالات الألفاظ كالحض والاستفهام مثل قولهم هلا أنبئك وألا أنبئك ، كما تتحدد بتغيير هيئة الجلوس ، فإن الوسائل التي استخدمها جبريل عليه السلام كانت بالضغط الشديد ثلاث مرات ، وما ذاك إلا لإشعار النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما هو مقدم على سماعه وتبليغه أمر في غاية العظمة ، وإن تلقيه يحتاج إلى تفريغ الفكر من كل العلائق الدنيوية ليكون في غاية الاستجماع والتركيز .

مـا أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فـقـال : اقـرأ . فـقلت : مـا أنا بقـارىء . فـأخـذني فـغطني الثـالثـة ، ثم أرسلني فـقـال : ﴿ **اقـرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسـان من علق . اقـرأ وربك الأكرم** ﴾ .

فرجع بها [1] رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خـويلد رضي الله عنها فقال : زَمِّلوني زمِّلوني ، فَزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقَد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كـلا والله لا يخـزيك الله أبداً ، إنك لتـصل الرحم ، وتحـمل الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فـانطلقت به خديجـة حتى أتت به ورقـة بن نوفل بن أسد بن عبـد العُزَّى - ابن عم خديجة - وكـان امرءًا تنصر في الجاهلية ، وكـان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكـان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن عمٍّ اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة

---

(١) يعني بأول سورة العلق .

أن تُوفي ، وفتر الوحي[1] .

لقد كانت الأرض كلها تعيش في ذلك الزمن في ظلمات الجاهلية ، فكانت بداية انطلاق النور الإلهي في تلك اللحظة التي خاطب بها جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ .

ولقد حل ذلك النور في قلب رسول الله ﷺ حتى تحول إلى مصباح متحرك يضيء لمن حوله ، وأصبح يراه من زالت عن عينيه الغشاوة فينجذب إليه ويترقى بهديه نحو الكمال .

لقد كان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله ﷺ كما هو واضح من النص بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلباً كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة ، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر .

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤولية عظمى لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها .

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ « لقد خشيت على نفسي » وقول عائشة رضي الله عنها في هذا

---

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - رقم ٣ ، صحيح مسلم - كتاب الإيمان -رقم ١٦٠ .

الحديث « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع » .

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «ولقد رأيته - تعني رسول الله ﷺ - ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرقاً » (١) .

وما أخرجه الإمام مسلم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كُرِب لذلك وتربَّد وجهه » (٢) .



(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - رقم ٢ ، صحيح مسلم - الفضائل رقم ٢٣٣٣ .
(٢) صحيح مسلم ، الفضائل رقم ٢٣٣٤ .

٢ - أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة

(إسلام خديجة بنت خويلد وجهودها في الدعوة)

من المعروف أن المجتمع الإسلامي مكون من الرجال والنساء ، وأنه كما أن للرجال جهوداً مشكورة في خدمة الإسلام فإن للنساء جهوداً مشكورة كذلك ، وإن كانت هذه الجهود قد تختلف في بعض أنواعها حسب اختلاف تكوين الرجال والنساء .

وأمامنا في هذه المرحلة التي يدور حولها الحديث مثل من جهود المرأة الصالحة في حياة زوجها الداعية .

فحينما أنزل الله تعالى الوحي بواسطة جبريل عليه السلام على رسول الله فوجىء به كماتقدم في خبر بدء الوحي الذي أخرجه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها . فكان موقف خديجة رضي الله عنها عالياً في تثبيت النبي ﷺ حيث قالت : « والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ثم في ذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وعرضها الموضوع عليه رجاء أن تجد عنده ما يسَرِّي عن النبي ﷺ ويقوي قلبه .

وهكذا كان موقف خديجة رضي الله عنها الذي يدل على قوة قلبها حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر الخارق للعادة ، ولعل ما كانت تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل من انطباق صفات النبي المنتظر على محمد

ﷺ كان له الأثر الأكبر في ثباتها ويقينها حيث غاب عنها عامل المفاجأة واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة ، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة وعرض الأمر عليه .

وقد كان ورقة ينتظر هذا الخبر بشوق بالغ ، ومن قوله في ذلك فيما رواه ابن إسحاق رحمه الله :

لججتُ وكنت في الذكرى لجوجا ... لِهَمٍّ طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكّتين [1] على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا

بما خبّرتِنا من قول قِسٍّ ... من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا

إلى آخر الأبيات التي ذكرها [2] .

وقوله : « بما خبرتنا من قول قس » . يعني الراهب بحيرا الذي خبَّر عن انطباق ما جاء في كتب أهل الكتاب من التبشير بالنبي الخاتم على رسول الله ﷺ [3].

---

(١) المكتين : جانبا مكة ، أو بطاحها وظواهرها .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٤ .

(٣) وقد أخرج هذا الخبر الإمام الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن - سنن الترمذي / أبواب المناقب ، باب رقم ٤ ، وصححه الشيخ الألباني ونقل تصحيحه عن الإمام الجزري - فقه السيرة للغزالي / ٦٨ .

وقـد صـور ورقـة هذا الموقف فـي أبيات من الشعـر يقول فيـها :

يا للرجـال وصـرف الدهـر والقـدر	وما لشـيء قضـاه الله من غِـيَر
حتى خديجة تدعونـي لأخبـرهـا	وما لهـا بِخَفـيٍّ الغيـب من خـبر
جـاءت لتسـألني عنه لأخبرهـا	أمـراً أراه سيـأتـي الناس من أخَـر
فخبَّـرتْني بأمر قـد سمعـت بـه	فيما مضى من قديم الدهر والعُصُر
بأن أحمـد يأتـيه فيخـبره	جبريل أنـك مبعـوث إلى البشر
فـقلت عـلَّ الذي ترجـين ينجـزه	لك الإله فَـرَجِّي الخيـر وانتظـري
وأرسلـيه إليـنا كـي نسائلـه	عن أمـره مـا يرى في النوم والسهـر
فقال حـين أتانـا مَنْطِقـاً عـجباً	تقفُّ منه أعـالي الجـلد والشـعـر
إني رأيـت أمين الله واجـهـني	في صـورة أكْملت من أهيب الصور
ثم استمر [1] وكـان الخوف يذعرني	مما يسلِّم من حـولـي من الشـجـر
فـقلت ظني ومـا أدري أيصـدقنـي	أن سـوف تبـعـث تتلو مُنزَل السـور
وسـوف أبليك إن أعلنت دعـوتهم	من الجـهـاد بـلا مَنٍّ ولا كـدر [2]

ومن أجل هذا التصديق برسالة رسول الله ﷺ من ورقة بن نوفل ولما صـدر منـه من ذلـك الموقـف الذي ثَبَّتَ به النـبي ﷺ فإنه ﷺ قد شهد له

(١) يعني استمر يعرض أمره ثم قال :

(٢) أخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق قال : حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان واعية ، وسكت عنه الحاكم والذهبي-المستدرك٢/ ٦٠٩-٦١٠ - .

بالجنة كما جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين » قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي [1] .

وذكر الصالحي أن البزار وابن عساكر روياه بإسناد جيد ، وقال : وروى الإمام أحمد بسند حسن عن عائشة أن خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة فقال : «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً ، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض» قال : وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال : «أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس»[2] .

كما أن موقف خديجة من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النبي ﷺ فأدركت أن من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لايخزيه الله أبداً ، فقد وصفته بأنه يصل الرحم ، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس ، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه ، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم بماله عليهم من معروف كان حرياً به أن ينجح

---

(١) المستدرك ٢/ ٦٠٩ ، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني ، قال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٢٤٤ ، وذكره الهيثمي من رواية أبي يعلى وقال : فيه مجالد ، وهذا مما مدح من حديث مجالد وبقية رجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦ .

في كسب الآخرين من البشر، وإن هو أخفق مع الأقربين كان إخفاقه مع الأبعدين من باب أولى.

ووصفته ببذل المعروف والإحسان حيث قالت: «وتحمل الكَلَّ» والكل هو العاجز الذي لايستقل بأمره بنفسه بل يحتاج لمعونة غيره.

كما وصفته بالكرم النادر المثال حيث قالت: «وتَكْسِبُ المعدوم» يعني وتعطي غيرك المال المعدوم، أي نفائس المال التي يعدَم نظيرها، والذي تسخو نفسه بنفائس المال سيعطي ما هو دون ذلك من باب أولى، وهذا من أبلغ الوصف في الكرم.

وخصّت بالذكر إكرام الضيف وهو من الكرم لسمو من يتصف بذلك عند العرب.

ثم وصفته بالنجدة عند الشدائد حيث قالت: «وتعين على نوائب الحق» وهذه صفة من يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه وهي من أبرز صفات السادة النجباء.

وجاء في روايات أخرى عند البخاري: «وتَصْدُق الحديث وتؤدي الأمانة» وهذه تكملة لسلسلة عظيمة من مكارم الأخلاق قلما تجتمع في رجل واحد.

وفي آخر هذا الخبر موقف كريم لورقة بن نوفل رحمه الله في آخر لحظات من عمره حيث ثَبَّتَ النبي ﷺ وقوى قلبه بما أخبره به من أن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم الذي يكون سفيراً بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ومما يدل على أثر كلام ورقة في تثبيت قلب النبي ﷺ وطمأنته ما جاء في رواية أخرى أخرجها ابن إسحاق وفيها: «فرجعت - يعني خديجة رضي الله عنها - إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال لها ورقة فسهّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهمّ بما جاءه» وفي موضع آخر من الرواية: «ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله وقد زاده الله عز وجل من قول ورقة ثباتاً وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهمّ»[1].

ولقد كان الباعث على الاطمئنان إلى كلامه علمه السابق بكتب أهل الكتاب التي فيها وصف مفصل لرسول الله ﷺ ومبعثه.

ومما جاء في بيان مواقف خديجة رضي الله عنها في فترة ابتداء الوحي ما أخرجه ابن إسحاق قال: وحدثني إسماعيل ابن أبي حكيم مولى آل الزبير: أنه حُدِّث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عمّ أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم؛ قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاء جبريل عليه السلام كما كان يصنع؛ فقال رسول الله ﷺ لخديجة: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى، قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس في حجري، قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس في

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/١٤٦.

حجرها، فقالت: هل تراه ؟ قال: نعم، قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه ؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم، أُثْبُت وأَبْشر فوالله إنه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان .

قال ابن إسحاق: وقد حدَّثتُ عبدالله بن حسن هذا الحديثَ فقال: قد سمعتُ أمي فاطمة بنت حُسين تحدِّث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أني سمعتها تقول: أدخلتْ رسولَ الله بينها وبين درْعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله ﷺ: إن هذا لَمَلَكٌ وَما هو بشيطان[1] .

وهكذا تبين لنا أثر المرأة الصالحة في نجاح الدعوة، وذلك في موقف خديجة رضي الله عنها وما قامت به من تثبيت قلب النبي ﷺ وهو يواجه الوحي لأول مرة.

وفي بيان مواقفها بعد ذلك يقول محمد بن إسحاق رحمه الله: وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لايسمع شيئاً مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدقُه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٢ . وانظر تاريخ الطبري ٢/ ٣٠٢ ، وأخرجه الطبراني وحسن الحافظ الهيثمي إسناده - مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥ .

لقد كانت خديجة رضي الله عنها تثبت قلب النبي ﷺ وتسكنه وتهون عليه مخالفة الناس إياه، وكان يطلعها على جلية أمره مع المجتمع الذي يدعوه ويكابد صدوده وعداءه.

ولاشك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية بزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم عوامل نجاحه مع الآخرين.

فالإنسان يقضي مع الناس جزءاً من وقته، ولكنه يقضي في بيته الجزء الأكبر، فإذا وفق بمثل هذه الزوجة فإنه يفضي إليها بما قام به من دعوة الناس وما واجهوه من لين أو عنف، واستجابة أو امتناع ويبثها همومه ويشرح لها مشكلاته، وهي بما لديها من صلاح وكفاءة إذا وضع زوجها بها هذه الثقة ستبذل كل ما في طاقتها من تفكير ومقدرة على العمل فتبدأ أولاً بتقوية قلبه وتخليصه شيئاً فشيئاً مما يعانيه من الهم والقلق، ثم تكون عوناً له على إكمال مهمته بنجاح، إلى جانب قيامها بمهمتها في الدعوة فيما يتعلق بالنساء، وقيام زوجها بتأييدها وتثبيتها وإكمال ما تحتاج إليه لنجاحها في مهمتها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[1].

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٤٦٧، ص ١٠٩٠، كتاب الرضاع

وخديجة رضي الله عنها قد قامت بدور مهم في حياة النبي ﷺ، لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والحكمة والحزم وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

والرسول ﷺ إلى جانب ما حباه الله به من الكمالات البشرية في جميع المجالات، وإلى جانب كونه قبل ذلك محفوفاً بعناية الله جل وعلا وتأييده في كل خطوة يخطوها، فإن الله تعالى وفقه بهذه الزوجة المثالية، لأنه قدوة للعالمين وخاصة الدعاة إلى الله تعالى، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حَمَلَة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله ﷺ حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يهدفون إليها.

ولقد كان رسول الله ﷺ مثالاً عالياً للوفاء ورد الجميل لأهله، فقد كان يعامل خديجة رضي الله عنها بغاية الإكرام والتقدير حال حياتها، وظل يذكرها ويثني عليها بعد وفاتها، كما أخرج الإمام البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة»[1]. وبشرها ﷺ ببيت في الجنة حال حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا وسلام جبريل عليه السلام كما أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام -أو طعام أو

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٨١٥ (٧/ ١٣٣)، ، صحيح مسلم ١٨٨٦ رقم ٢٤٣٠، كتاب فضائل الصحابة.

شراب – فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صخب فيه ولا نصب[2].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[3].

بل إنه أظهر البشاشة والسرور لأخت خديجة لما استأذَنتْ عليه لتَذكُّره خديجة كما أخرج الإمام مسلم من حديث عائشة قالت: استأذَنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة[4] فارتاح لذلك وقال: اللهم هالة بنت خويلد، فَغِرْت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[5] هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها»[6]. وأخرجه الإمام أحمد بنحوه من غير ذكر هالة بنت خويلد وزاد: فتَمعَّر وجهه تمعراً ما كنت أراه إلا عند نزول

---

(١) يعني من لؤلؤ أو ذهب.

(٢) صحيح مسلم ١٨٨٧ رقم ٢٤٣٢، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٨١٨، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ١٣٢).

(٤) يعني لتشابه صوتيهما.

(٥) يعني لا أسنان لها من الكبر.

(٦) صحيح مسلم – كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٣٧ ص ١٨٨٩.

الوحي أو عند المَخِيلة[1] حتى ينظر أرحمة أم عذاب[2].

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: تفرد به أحمد وهذا إسناده جيد[3].

وهذا يصور مقدار غضب رسول الله ﷺ لخديجة وحفظه حقها رضي الله عنها.

ونجد أن النبي ﷺ يُظهر الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة ويبين أن حفظ العهد من الإيمان، وقد أخرج خبر ذلك الحاكم من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تُقبِل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة وليس له علة، وأقره الذهبي[4].

إن هذه الأخبار تعتبر أمثلة مهمة في الدفاع عن أهل الفضل والتقدم في حال غيبتهم، فالمسلم يُحفظ له حقه في حال حضوره وغيبته، وفي

---

(١) يعني السحاب.
(٢) مسند أحمد ٦/ ١٥٠.
(٣) البداية والنهاية ٣/ ١٢٦. وذكر نحوه الهيثمي عن الإمام أحمد والطبراني بعدة أسانيد وحسنها - مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٤.
(٤) المستدرك ١/ ١٥-١٦.

حال حياته وموته، لأن الحفاظ على ذلك ليس مبعثه محاسبةَ صاحب الحق، وإنما مبعثه رقابة الله عز وجل في حقوق المسلمين أولاً، ثم الوفاء لأصحاب المواقف العالية في بذل النفس والمال من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة المسلمين.

وفي وصف عائشة رضي الله عنها غضب النبي ﷺ بالشدة دليل على أن الغضب يكون محموداً إذا انتهكت حرمات الله تعالى أو حرمات المسلمين، مع امتلاك النفس بحيث يتصرف المسلم بالحكمة، أما عدم الغضب والحالة هذه فإنه دليل على ضعف الإيمان، وعلى قدر الإيمان يكون التأثر والغضب فيما يتعلق بأمور الدين، بخلاف أمور الدنيا فإن الأمر يكون بضد ذلك.

هذا ومن مناقب خديجة رضي الله عنها أنها أول من آمن برسول الله ﷺ على الإطلاق، وهي أول من صلى معه.

قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض أهل العلم: أن الصلاة - حين افترضت على رسول الله ﷺ - أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعَقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليُريه كيف الطُّهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة ، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته[1] .

* * *

(١) سيرة إبن هشام ١/ ٢٤٨ ، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، وذكر نحوه - دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٠ .

٣ - أول من أسلم

ذكرنا أن أول من أسلم على الإطلاق وآمن برسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ثم أسلم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أخرج ابن هشام من طريق البكائي قال: قال ابن إسحاق: ثم كان أوّل ذكَر من الناس آمن برسول الله ﷺ معه، وصدّق بما جاءه من الله تعالى، عليٌّ بن أبي طالب ابن عبدالمطلب بن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه: وهو يومئذ ابن عشر سنين.

وكان مما أنعم الله به على عَليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان في حِجْر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال: كان من نعمة الله على عَليٍّ بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فَلْنخفف عنه من عياله، آخذ مَن بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكْفُلُهُما، فقال العبّاس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عَقِيلاً فاصنعا ما

شئتما - قال ابن هشام: ويقال: عقيلاً وطالباً.

فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً؛ فاتبعه علي رضي الله عنه؛ وآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه[1].

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان؛ فقال لرسول الله ﷺ: يابن أخي! ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عمّ. هذا دين الله، ودين ملائكته ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال رسول الله ﷺ - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم، أحق مَنْ بذلتُ له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقّ مَنْ أجابني إليه وأعانني عليه - أو كما قال - فقال أبو طالب: أي ابن أخي. إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ.

وذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

---

(١) وأخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٧٦.

فقال: يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدعُك إلا إلى خير، فالزمه[1].

وأخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق وذكر مثله[2].

ولاشك أن دخول علي بن أبي طالب - على صغر سنه - في الإسلام الذي لم يكن يمثله إلا رسول الله ﷺ وخديجة، ومخالفته دين أبيه وأعمامه يعتبر موقفاً جليلاً.

ثم دخل في الإسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبدالعزى بن امرئ القيس الكلبي، مولى رسول الله ﷺ، وكان أول ذكرٍ أسلم بعد علي بن أبي طالب.

ثم ذكر ابن هشام خبر استرقاقه ومصيره إلى رسول الله ﷺ وإعتاقه وتبنيه إياه، وذلك قبل أن يوحى إليه[3].

فهؤلاء الثلاثة خديجة وعلي وزيد هم أول من أسلم وكلهم كانوا في بيت النبي ﷺ، أما أول من أسلم خارج بيت النبي ﷺ فهو أبو بكر رضي

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٠.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣١٣.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٢.

الله عنه كما سيأتي، وعلى ذلك يحمل ما جاء من الأخبار عنه بأنه أول من أسلم، وذلك كالخبر الذي أخرجه الحاكم من حديث الشعبي قال: سألت ابن عباس - أو سئل - : من أول من أسلم؟ فقال: أما سمعت قول حسان رضي الله عنه:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا[1]

* * *

(١) المستدرك ٣/ ٦٤ وسكت عنه الحاكم والذهبي.

٤ – إسلام أبي بكر واهتمامه بالدعوة

أسلم أبو بكر رضي الله عنه بدعوة من النبي ﷺ في أوائل المرحلة السرية.

قال ابن إسحاق بعدما ذكر إسلام خديجة وعلي وزيد رضي الله عنهم: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة.

قال: وكان رسول الله ﷺ يقول - فيما بلغني - : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكَم حين ذكرته له وما تردد فيه».

وقوله «كبوة» أي امتناع، و «عكم» أي تلبث[1].

وبعد أن أسلم أبو بكر دعا إلى الله في هذه المرحلة الحرجة، حتى أسلم على يده شباب كان لهم دور كبير في مستقبل الجهاد والدعوة.

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله شيئاً من مآثره في الدعوة حيث قال: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه - يعني لخاصة من يثق به - ودعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن

---

(١) سيرة إبن هشام ١/ ٢٥٥ .

مجالسته، فجعل يدعو إلى الله تعالى وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.

ثم ذكر الخمسة الذين أسلموا على يديه في أول الإسلام، وهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهم.

قال: فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا[1].

هذا النص يبين لنا شيئاً من مآثر أبي بكر رضي الله عنه في الدعوة إلى الإسلام، فهؤلاء الخمسة المذكورون الذين أسلموا على يديه كلهم أصبحوا من المبشرين بالجنة، ومن أكابر أهل الحل والعقد في الإسلام وهم إضافة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانوا أهل الشورى الذين جعل عمر رضي الله عنه الخلافة فيهم.

فكم هي فضائل أبي بكر رضي الله عنه، وكم هي سوابقه على المسلمين! إنه لم يكتف بأنه غامر بنفسه فاتبع ديناً لا يمثله خارج بيت النبي ﷺ أحد، وفي ذلك ما فيه من المغامرة، بل صار يدعو من يثق بهم سراً إلى اتباع هذا الدين الجديد، فاستجاب له هؤلاء الفحول الذين صار لهم في مستقبل الإسلام شأن كبير.

ولا شك أن الذين أسلموا واتبعوا النبي ﷺ وهو وحيد ليس معه أحد أو معه النفر اليسير. . لاشك أن لهم مكانة وفضلاً كبيراً في الإسلام، فإن الإقدام على دين جديد يهدم الأديان السائدة في المجتمع

(١) سيرة إبن هشام ١/ ٢٥٤.

أمر له خطورته، وهؤلاء الذين أقدموا على الإسلام آنذاك يدركون خطر ما توجهوا إليه، لذلك أمرهم النبي ﷺ بكتمان دعوتهم، وظلوا يدعون إلى الله تعالى سراً حتى أذن لهم النبي ﷺ بإعلان الدعوة بعد ثلاث سنوات من البعثة.

وإن استمرار هؤلاء الصحابة على دعوتهم السرية ومقدرتهم على كتمانها طيلة هذه المدة أمر يستحق الإشادة والتقدير، والدراسة والتأمل، خاصة مع ملاحظة عيشهم في مجتمع صغير بالقياس إلى حياة المدن في العصر الحاضر، فكم هي الإحراجات التي مروا بها مع أهاليهم وقومهم! وكيف استطاعوا التخلص منها!.

إن كتمان الدعوة يحصر انتشارها بلا شك، وكان هذا واقعاً اضطرارياً تمليه هيمنة الباطل، ولكنه مع ذلك يصنع رجالاً كاملين في مواهبهم وقدراتهم، لأنهم يحسون من أول خطوة في الطريق أنهم يواجهون معركة بعيدة المدى، فيخرجهم هذا الشعور من حياة الدعة والسكون التي قد تعطل بعض المواهب والقدرات، وهكذا تمت تربية أولئك العظماء في تلك الفترة.

وفي قوله عن أبي بكر: «وكان رجال من قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته» إشارة إلى عامل مهم من عوامل نجاح الداعية، وهو أن يكون متعدد المواهب، له مشاركة في عدد من الجوانب التي تربطه بالمجتمع، فيأتي إليه في كل جانب طائفة من الناس، فإذا توفر لديه مع ذلك الدافع القوي الذي يجعله يبذل كل طاقته

في سبيل دعوته فإنه يعمل عمل عدد من الناس ، وينجح في اجتذاب الكثير منهم.

هذا وقد بذل أبو بكر ماله في سبيل خدمة الدعوة الإسلامية ، كما جاء في خبر ذكره الحافظ ابن حجر عن يعقوب بن سفيان بإسناده عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً فأنفقها في سبيل الله . . . » ثم ذكر المماليك السبعة الذين اعتقهم[1] .

* * *

(١) الإصابة ٢/ ٣٣٤ .

٥ - دعوة بني عبدالمطلب
(وموقف لعلي رضي الله عنه)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جمع رسول الله ﷺ، أو دعا رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق[١] !.

قال فصنع له مُداً من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمسَّ، ثم دعا بغَمْر[٢]، فشربوا حتى رَوُوا، وبقي الشراب كأنه لم يمس، - أو لم يشرب- فقال: يا بني عبدالمطلب، إني بعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيُّكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ؟ قال: فلم يقم إليه أحد، قال فقمت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال: اجلسْ قال: ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي اجلس، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي[٣].

---

(١) الجذعة الشاة الصغيرة، والفرق بفتح الراء مكيال يتسع لستة عشر رطلاً، وقوله « كلهم » أي كل واحد منهم.

(٢) يعني بشراب كثير.

(٣) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٢/ رقم ١٣٧١، وقال أحمد شاكر رحمه الله: إسناده صحيح.
وذكره الإمام الهيثمي من رواية الإمام أحمد وقال: رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٢.

وهكذا بدأ النبي ﷺ بعشيرته الأقربين فدعاهم إلى الإسلام وحماية دعوته فلم يستجب منهم غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالرغم من مشاهدتهم تلك المعجزة الظاهرة من تكثير الطعام والشراب وبقائه بعد أكلهم وشربهم وكأنه لم يمس، مع أن فيهم - كما في الرواية - من اشتهروا بكثرة الأكل والشرب.

لقد اجتمع في ذلك الموقف أكابر بني عبدالمطلب ومع رهبة الموقف فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبدى استعداده ثلاث مرات لبيعة النبي ﷺ رغم صغر سنه وهذا دليل واضح على قوة إيمانه وشجاعته المبكرة التي أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال.



٦ - مثل من ثبات الصحابة على دينهم واعتزازهم به

(خبر سعد بن أبي وقاص وأصحابه)

قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا في الشعاب فاستَخْفَوْا بصلاتهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعير فشجّه، فكان أولَ دم هُريق في الإسلام[1].

هذا الخبر يدل على مقدار ما واجهه الصحابة رضي الله عنهم في مبدأ الإسلام من محاصرة المشركين ومتابعتهم إياهم حتى اضطروهم إلى الاستخفاء بصلاتهم في الشعاب النائية، ومع ذلك وصل إليهم المشركون فناكروهم وعابوهم وقاتلوهم.

إن محافظة هؤلاء الصحابة على دينهم وحماسهم في الدعوة إليه مع ذلك الاضطهاد الشديد من أعدائهم دليل على قوة إيمانهم وهو موقف جليل يكتب في سجلهم الحافل بالمواقف العالية.

وهكذا رأينا هؤلاء العظماء الأبطال قد اضطروا إلى الاستخفاء بأبرز شعائر دينهم وهي الصلاة، فأصبحوا يقيمونها في الشعاب والأودية خوفا من سخرية المشركين وبطشهم، ومع ذلك لم يتركوا الصلاة،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٤٧.

فكيف بالمسلمين الذي أقيمت لهم المساجد العامرة بالمصلين المزودة بكل وسائل الراحة والنشاط ومع ذلك يهجرها طائفة من المسلمين زهداً فيها وإيثاراً لمتاع الدنيا ولهوها ؟! .

إنه أمر منكر عجيب يدل على البون الشاسع بين مستوى إيمان الصحابة رضي الله عنهم وإيمان من جاء بعدهم والتفوق الواضح للصحابة في مجال الفهم والتطبيق .

كما أن هذا النص يدلنا على مستوى العزة التي ارتفع إليها المسلمون آنذاك بالرغم من ضعفهم وقلتهم حيث قام أولئك النفر بمدافعة من داهمهم من المشركين ولم يستخذوا لهم وفي ذلك إعزاز ظاهر للإسلام وتثبيت لوجوده في الأرض .



٧ - مثل من تواضع النبي ﷺ

(إسلام عبدالله بن مسعود)

لم يقتصر منهج رسول الله ﷺ الحكيم المشتمل على اللطف والتودد على الأكابر وزعماء القبائل، بل نجده يعامل بهذا المنهج الغلمان الضعفاء.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت ارعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: يا غلام هل من لبن ؟ قلت: نعم ولكني مؤتمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل ؟ فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: يرحمك الله فإنك غُلَيِّم معلَّم»[1].

فالرسول ﷺ لم يحتقر هذا الغلام الذي لم يكُن ينتمي لقبيلة قريش

---

(١) وقد ذكر الحافظ الهيثمي هذا الخبر من رواية الإمام أحمد وأبي يعلي، وقال: ورجالهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٧ .
وهكذا رواه أبو داود الطيالسي رحمه الله تعالى بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه، وذكر مثله .
وذكره الحافظ ابن كثير والحافظ الذهبي، وصحح الذهبي إسناده - البداية والنهاية ٣/ ٣٢، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦٥ .

وليس له عشيرة بمكة، بل اهتم به وقدر ما يتمتع به من خلق الأمانة الذي يدل على أنه عنصر زكي، فأثنى عليه بالعلم والفهم وأقرأه القرآن حتى أصبح بعد ذلك من قراء الصحابة وفقهائهم.



٨ – مثل من الثبات على الشدائد

(إسلام خالد بن سعيد بن العاص)

أخرج الإمام البيهقي بإسناده عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان قال: كان إسلام خالد – يعني ابن سعيد بن العاص – قديماً، وكان أول أخوته أسلم، وكان بدء إسلامه أنه رأى في النوم أنه وُقف به على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله أعلم به، ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ أخذ بحقويه لايقع، ففزع من نومه فقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق.

فلقي أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه فذكر ذلك له فقال أبو بكر: أريدَ بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها وأبوك واقع فيها.

فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجياد فقال: يا محمد إلام تدعو ؟ فقال: أدعو إلى الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايبصر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبده.

فقال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه، فأتي به فأنّبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه،

وقال: والله لأمنعنك من القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه[1].

وهكذا هدى الله تعالى خالد بن سعيد بن العاص بتلك الرؤيا المباركة، فأخرجه بها من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد، وكان يقينه بالإسلام قوياً حيث لم يتزعزع إيمانه لما وبخه أبوه وضربه وهدده بقطع رزقه مع أن أباه كان من سادة أهل مكة الكبار، بل أعلن خالد استغناءه عن أبيه واعتماده الكامل على الله تعالى وحده، وثبت رضي الله عنه على حياة الفقر لأنه أحس بأن الإسلام هو سعادة الروح، وأيقن بأن الحياة الدنيا لاتساوي شيئاً أمام الآخرة، فلتكن الدنيا كما يريد الكفار المتسلطون حياة بؤس وفاقة على المسلمين فإن الموازين ستتبدل في الآخرة فيصبح المسلمون هم أصحاب الحياة السعيدة الخالدة، وقد تتبدل في الدنيا حينما ينتصر المسلمون وتكون لهم الدولة والهيمنة في الأرض.

* * *

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٧٢، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من هذا الطريق وذكر مثله - المستدرك ٣/ ٢٤٨.
وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي بإسناده - البداية والنهاية ٣/ ٢٤٨.

٩ - موقفان لرسول الله ﷺ في العفة والقناعة

أخرج الإمام الطبراني بإسناده عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوه وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما وقال لي: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟.

قلت: لا إربَ لي فيه والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه. قال فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليَّ فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟، قلت: لست على دينه، قال: وإنْ فإنك تسمع منه عجباً وتراه. ثم قال لي: أثقفي أنت ؟ قلت: لا ولكن قرشي... قال: فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم.

قال: فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولاقام حتى أصبح كئيباً حزيناً ساقطاً غبُوقه على صَبُوحه[1] ما يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا

(١) هذا كناية عن اضطراب فكره، والغبوق بفتح الغين هو العشاء، والصبوح بفتح الصاد هو الغداء من اللبن.

نرحل ؟ قلت : وهل بك من رحيل؟ قال : نعم .

فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ثم قال في الليلة الثالثة : ألا تحدث يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك ، قال : أما إن ذلك لشيء لستَ فيه إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي ، قلت : وهل لك من منقلب ؟ قال : إي والله لأموتن ثم لأحيين ، قال : قلت : هل أنت قابل أمَانِي ؟ قال : على ماذا ؟ قلت : على أنك لا تبعث ولا تحاسب ، قال : فضحك ثم قال : والله يا أبا سفيان لنبعثنّ وليدخلنّ فريق الجنة وفريق النار . قلت : ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ ، قال : لاعلم لصاحبي بذلك لافيّ ولافي نفسه .

قال : فكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم[1] ، فما جاء إلا بعد منتصف النهار فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام وأصبح حزيناً كئيباً لايكلمنا ولا نكلمه .

ثم قال : ألا نرحل ؟ قلت : بلى إن شئت ، فرحلنا كذلك من بثه وحزنه ليالي . ثم قال لي : يا أبا سفيان هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا؟ قلت : هل لك فيه ؟ قال : نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال : هيه صخر[2] ، فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدثني عن عتبة بن

---

(١) يعني مكان عبادتهم . (٢) يعني حدثني يا صخر وهو اسم أبي سفيان .

ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم ؟ قلت : إي والله، قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إي والله ! قال : وكريم الطرفين[1] وسط في العشيرة؟ قلت : نعم ! قال : فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟ قلت : والله لا أعلم، قال : أمحوج هو ؟ قلت : لا بل هو ذو مال كثير، قال : وكم أتى عليه من السن ؟ فقلت : قد زاد على المائة، قال : فالشرف والسن والمال أزرين به، قلت : ولم ذاك يزري به ولا والله بل يزيده خيراً ؟ قال : هو ذاك . هل لك في المبيت ؟ قلت : لي فيه، قال : فاضطجعنا حتى مر الثقل[2] .

قال : فسرنا حـ ى نزلنا في المنزل وبتنا به ثم ارتحلنا منه فلما كان الليل قال لي : يا أبا سفيان، قلت : ما تشاء ؟ قال : هل لك في مثل البارحة ؟ قلت : هل لك فيه ؟ قال : نعم، فسرنا على ناقتين بُختيتين[3] حتى إذا برزنا قال : هيه صخر، هيه عن عتبة بن ربيعة، قال : قلت : هيهاً فيه[4] قال : أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إي والله إنه ليفعل، قال : وذو مال ؟ قلت : وذو مال، قال : أتعلم قرشياً أسود منه ؟ قلت : لا والله ما أعلم، قال : كم أتى له من السن ؟ قلت : قد زاد على المائة، قال : فإن السن والشرف والمال أزرين به، قلت : كلا والله ما أزرى به ذلك وأنت قائل شيئاً فقله .

قال : لا، تذكَّرْ حديثي، يأتي منه ما هو آت، ثم قال : فإن الذي

---

(١) يعني شريف النسب من جهة أجداده وأخواله .

(٢) يعني بقية القافلة .

(٣) ناقة بختية : ناقة خراسانية .

(٤) يعني كف عن الحديث عنه .

رأيتُ أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر ، قال : هو رجل من العرب ، قلت : قد علمت أنه من العرب فمن أي العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب قلت : وفينا بيت تحجه العرب ، قال : هو من إخوانكم من قريش ، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط وخرج من يدي فوزَ الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه .

قلت : فإذا كان ما كان فصفه لي ، قال : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بدء أمره يجتنب المظالم[1] والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها وهو مُحْوِج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

قال أبو سفيان : فقلت : هذا والله الباطل لئن بعث الله رسولاً لايأخذه إلا مسناً شريفاً . قال أمية : والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان ، تقول : إن قول النصراني حق ! هل لك في المبيت ؟ قلت ، نعم لي فيه .

قال : فبتنا حتى جاءنا الثقل ، ثم خرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان أو ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فسألناه فإذا هو يقول : أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

---

(١) يعني ابتداء أمره أنه يجتنب المظالم .

قال أبو سفيان: فأقبل عليَّ أمية فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان؟ قلت: أرى وأظن والله إن ما حدثك به صاحبك حق.

قال أبو سفيان: فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون عليَّ ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبدالله وهند عندي تلاعب صبيانها فسلم علي ورحب بي وسألني عن سفري ومقامي ولم يسألني عن بضاعته ثم قام.

فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أو ما علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله فوقذتني[1] وتذكرت قول النصراني فرجفت حتى قالت لي هند: مالك؟ فانتبهت فقلت: إن هذا لهو الباطل لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت: بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه وإن له لصحابة على دينه، قلت: هذا هو الباطل.

قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليَّ، وقال: إذاً لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

---

(١) يعني كسرت نفسي وأحزنتني.

قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت فقال لي: يا أبا سفيان . قلت: ما تشاء ؟ قال : هل تذكر قول النصراني ؟ فقلت أذكره وقد كان، فقال: ومن ؟ قلت: محمد بن عبدالله، قال: ابن عبدالمطلب ؟ قلت: ابن عبدالمطلب، ثم قصصت عليه خبر هند ، قال: فالله يعلم، وأخذ يتصبب عرقاً، ثم قال: والله يا أبا سفيان لعلّه، إن صفته لهي ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عز وجل في نصره عذراً .

قال: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله[1] وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً .

قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يُضربون ويحقَّرون، قال أبو سفيان: فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة، قال: فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة[2] .

ذكره الحافظ ابن كثير وقال: وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول والله أعلم .

---

(١) أي ظهور دعوته .   (٢) النفاسة : التفاخر .

ثم ذكر الحافظ ابن كثير رواية أخرى للطبراني من حديث أبي سفيان وفيها أنه قال لأمية: وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية فقلت كالمستهزئ به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته، قال: أما إنه حق فاتبعه، قلت: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدثهن أني هو ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبدمناف!.

ثم قال أمية: كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد رُبطت كما يربط الجَدْي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد[1].

وبعد.. فهذا خبر عجيب فيه مواقف عالية لرسول الله ﷺ، كما أنه يشتمل على دلائل واضحات من علامات النبوة.

فمن ذلك ما جاء في هذه الرواية من أنه جاء لزيارة أبي سفيان والسؤال عن حاله بعد السفر ولم يسأله عن بضاعته كما سأله غيره، حتى أثار عجب أبي سفيان منه.

وهكذا فإن رسول الله ﷺ لايجعل ماله أكبر همه لأن له هماً أكبر وأعظم من ذلك بكثير.. إنه يحمل هم تبليغ رسالة ربه جل وعلا وهداية الناس الحيارى والضالين إلى الصراط المستقيم، ثم المال إن وجد يكون مسخراً لخدمة هذا الهدف ولإعفاف النفس والأسرة والإحسان إلى المحتاجين.

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٠٥-٢٠٨، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١١٦، والسيرة النبوية لابن كثير - تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، وقد صححت منه بعض أخطاء النص ١/ ١٢٣.

وموقف آخر يتعلق بالمال أيضاً، وهو أن أبا سفيان لما عرض على رسول الله ﷺ أن لايأخذ منه مقابل التجارة بماله كما يأخذ من غيره رفض وأبى أن يأخذ بضاعته إلا بعد أن يأخذ أبو سفيان حقه في ذلك.

وهذا مثال للعفة والقناعة، وهما من مكارم الأخلاق العالية، ومكارم الأخلاق من أهم الدعائم التي تقوم عليها الدعوة الناجحة.

كما أن في عزوف النبي ﷺ عن قبول عرض أبي سفيان هذا ترفعاً عن الخضوع للكفار، لأن من بُذل له المعروف يكون أسيراً لباذله، فلا ينبغي لمسلم أن يكون لكافر عليه منة أو معروف.

وبهذا يبين لنا رسول الله ﷺ شيئاً من معالم الطريق في معاملة الكفار.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في ذكر شيء من صفات النبي ﷺ في كتب أهل الكتاب، وكانت تلك الصفات من الشهرة بحيث علم بها المتنصرون من العرب، ولقد كانت آية عظيمة يهتدى بها من تجرد قلبه من اتباع الهوى المنحرف، وفي بيان عظمة هذه الآية يقول الله تبارك وتعالى **﴿أولَمْ يكُن لهم آيةً أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل﴾** - الشعراء/ ١٩٧ - .



١٠ - الدعـوة بالتبشـير والإنـذار
(الجهر بالدعوة ومخاطبة عموم قريش)

كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يتوجه في دعوته إلى أهم الدوافع التي تدفع أصحاب العقول السليمة إلى الاستجابة لدعوة التوحيد، وذلك بإثارة الاهتمام نحو مستقبل الناس بعد الموت، حيث الحياة الخالدة في الآخرة، وذلك في النعيم المقيم لمن أجاب واهتدى، والعذاب المقيم لمن عصى وغوى.

ومع تصديق الكفار له في كل أخباره الدنيوية لما تواتر عنه من الأمانة والصدق فإن أغلبهم ردَّ دعوته، وكاده بعض عشيرته الأقربين.

ومن الأمثلة التي تبين موقفه هذا وموقف قومه منه ما أخرجه الإمام البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد إلى الجبل فنادى: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبِّحكم أو ممسِّيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تبًّا لك، فأنزل الله عز وجل **﴿تَبَّتْ يدا أبي لهب﴾** إلى آخرها[1].

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير رقم ٤٩٧١، (الفتح ٨/ ٧٣٧).

وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخص فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها بِبَلالها»[2].

فهاتان الروايتان مع روايات أخرى تبين لنا الموقف الصعب الذي كان يواجهه رسول الله ﷺ من قومه، وقد أمره الله تعالى بدعوة عشيرته الأقربين، وإن في الأمر بالبدء بدعوة الأقربين حكَماً عظيمة، منها أن بقاء الظلام المحيط بالنور من قرب يحول دون رؤية ذلك النور بوضوح فكان تبديده عاملاً مهمًّا في انتشار ذلك النور، فالبدء بدعوة الأقربين لأنهم محل حكم الناس على الداعية فإذا لم ينجح مع أقاربه كان لذلك أثر في الصد عن دعوته، هذا إضافة إلى أن الدعوة برٌّ وإحسان وأحق الناس ببر الإنسان أقاربه.

ولقد قَدَّم النبي ﷺ بمقدمة تلزمهم بالإذعان لو كانوا متجردين من الهوى والتقليد، وذلك أنه صور نفسه نذيراً لقومه ينذرهم من جيش قد اقترب منهم «أرأيتم لو حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم» فهذا يعني أنهم على استعداد لقبول إنذاره فيما

---

(١) سورة الشعراء، آية (٢١٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم ٢٠٤ ص ١٩٢.

يتعلق بدنياهم، فلما اطمأن إلى ذلك ذكر لهم ما جمعهم من أجله، وهو إنذارهم مما هو أجل خطراً وأعظم عاقبة فقال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» يعني فكما صدقتموني في وقايتكم من مكروه الدنيا فصدقوني في وقايتكم من مكروه الآخرة الذي هو أشد وأبقى.

وفي هذا دلالة على أن من أساليب الدعوة التي سلكها رسول الله ﷺ الاستشهاد بالأمر المعلوم الذي تمت القناعة به على الأمر الجديد الذي يريد الداعية أن يدعو الناس إليه.

فأهل مكة المكرمة آنذاك كانوا يصدقون رسول الله ﷺ في كل ما يقوله من أخبار الدنيا، ولذلك لقبوه بالأمين فاعتمد هذه القناعة الثابتة عندهم لدعوتهم إلى الإيمان بالآخرة.

كما أن في هذا دلالة على أنه مما يجب أن يتزود به الداعية الرصيد الأخلاقي الكبير الذي يجبر خصومه على الاعتراف بفضله في هذا المجال ليتوصل بذلك إلى نشر دعوته السامية.

ولكنّ أفراد عشيرته ﷺ هؤلاء صمتوا فلم يجيبوا ولم يستجيبوا لدعوته، بل إن عمه أبا لهب لم يكتف بذلك، وإنما ردّ عليه بهذا الرد القاسي السيئ.

ومع هذه المعاملة القاسية فإن النبي ﷺ ظل صامداً في دعوته غير عابىء بتحدي قومه ولا بصدودهم.

وإذا تأملنا دعوة النبي ﷺ نجد أنه قد بدأ دعوته هذه بتذكير قومه

الإســلام في كل هذه المجـالات، من ناحـيـة أثرها في إصــلاح الفــرد والمجتمع في هذه الحياة الدنيا، ولكن يجب أن لايكون هذا هو الأساس الذي تقوم عليه الدعوة بحيث يُغفل الدعاة مجال الدعوة بالتبشير بالجنة والتحذير من النار، أو يقصرون في ذلك، وذلك لأنه بإمكان الكفار أن يدَّعوا بأن لديهم مناهج تقـوم بإصـلاح الفـرد والمجتـمع في المجـالات المذكورة، وأن يضربوا على ذلك أمثلة واقعية من مجتمعهم المتقدم نسبياً في هذه المجـالات أو بعضـها - وهم لايدركـون عظمة الإسـلام في هذه المجـالات إلا بعـد التـعـمق في دراسـتـه، وقليـلاً مـا يتم ذلك - ولكن لايستطيعون أن يدعوا بأن مناهجهم تلك توصل مطبقيها إلى دخول الجنة والنجاة من النار، فتبقى مناهجهم بذلك مناهج دنيوية، ويبقى في شعور كل مفكر عاقل فراغ في التفكير فيما سيئول إليه بعد الموت، ولن يجد في كل الحضارات المادية والأفكار البشرية إجابة على سؤاله هذا، وإنما يجده في الدين الإسلامي وحده.

إن في اهتمام النبي ﷺ المتكرر طوال حياته الدعوية بالتبشير بالجنة والتحذير من النار دلالة على أهمية غرس الوازع الديني في النفوس حتى يصل المسلم إلى درجة عـالية من التضحية بالدنيا من أجل الآخرة، فأما حينما يكون الإعجاب بالإسلام والانجذاب إليه لكونه يحقق لمعتنقيه مناهج عـاليـة في مجـالات الحيـاة الدنيـا فقط فـإنه لاينتظر من هؤلاء أن يضحوا بحياتهم ومصالحهم الدنيوية من أجل الإسلام.

وفي قوله ﷺ : «فإني لا أملك لكم من الله شيئاً» دلالة واضحة على أنه لاينجي الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وعمله الصالح، وإذا كان النبي

ﷺ لاينقذ من النار حتى أقرب أقاربه، فإن ذلك لايكون لغيره من البشر مهما بلغوا من الولاية والصلاح.

وقوله ﷺ: «غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها» يعني إذا كنت لاأستطيع إنقاذكم من النار إلا بدخولكم في الإسلام فإن ذلك لايمنعني من أن أصلكم في الدنيا لقرابتكم مني.

وهذا الاستثناء له أثره الكبير في إبقاء حبل الوصل مع عشيرته، لأنهم - وهم كفار - لايهتمون بالآخرة، حيث لايؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، وإنما يهتمون بالحياة الدنيا، وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ أنه لن يتغير شيء في حياته عما كان عليه من صلة رحمه، فلعل بقاء هذا الخيط الذي يعرفونه ويقدرونه يكون سبباً في إيمانهم بما أنكروه من دعوته ولم يقدروه حق قدره.

وإذا كان النبي ﷺ قد أبقى على صلته مع أقاربه وهم كفار، فمن باب أولى لعموم المسلمين وخاصة للدعاة أن يبقوا على صلتهم بأقاربهم المسلمين وإن أنكروا منهم بعض السلوك أو جابهوهم بشيء من النفور والتحدي، من أجل أن تكون هذه الصلة سبباً بعد ذلك في عودتهم إلى الالتزام بالدين واحترام دعاته المخلصين.

وهذا لا يتعارض مع المنهج التربوي الذي سنه رسول الله ﷺ في معاملة بعض المذنبين، كما حدث مع الثلاثة المتخلفين يوم تبوك حيث كان الهجر شاملاً حتى مع أقاربهم.. لايتعارض مع ذلك لأن المقصود في الأمرين واحد وهو الدعوة.

فالإبقاء على صلة الرحم مع من وقعت منهم المخالفات الشرعية يقصد به دعوتهم إلى الهداية والاستقامة، وكذلك الهجر التربوي حينما يكون هو العلاج الناجح في تزكية النفوس وعلاجها من أدوائها فإن المقصود به دعوة أولئك المقصرين إلى الاستقامة على الصراط المستقيم، وكلا المنهجين الدعويين داخلان في الدعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة.



فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله ! أتعرفني ؟ قال: «نعم. أنت الذي لقيتني بمكة ؟».

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء[1].

ففي هذا الخبر موقف يذكر لعمرو بن عبسة حيث آمن بالنبي ﷺ في أوائل دعوة الإسلام وفي حال قلة المسلمين وكثرة أعدائهم، ولم يقتصر على ذلك، بل أبدى رغبته في مصاحبة النبي ﷺ والبقاء معه في ذلك الظرف العصيب، ولكن النبي ﷺ قَبِل منه إسلامه، وأبان له بأنه لايستطيع أن يتحمل مشقة الصحبة والاتباع في ذلك الوقت، لما سيتعرض له من الأذى الشديد على يد الكفار ولكون النبي ﷺ لايستطيع حمايته.

وقد جاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل النبي ﷺ عن الإسلام بعد أن علم بأنه رسول الله ﷺ، فقال: وبأي شيء أرسلك ؟ فقال النبي ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به» وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد.

وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لاتستقر ولا تنتشر إلا بزوال هذه المعالم.

---

(١) صحيح مسلم ٥٦٩ رقم ٨٣٢، كتاب صلاة المسافرين.

وفي اهتمام النبي ﷺ المبكر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالة على أن أمور الدين لايجوز تأخير بيانها للناس بحجة عدم القدرة علي تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة والجهاد. . هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه.

وجاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل رسول الله ﷺ عن أتباعه فقال «حر وعبد» وقد فسر ذلك عمرو بأن المراد أبو بكر وبلال، وهذا يحتمل أمرين :

الأول : أن الكلام على ظاهره وأنه لم يسلم في ذلك الوقت خارج بيت النبي ﷺ إلا أبو بكر وبلال، وبناء على ما سبق من أن أبا بكر هو أول من أسلم يكون بلال ثاني رجل أسلم خارج البيت النبوي.

الثاني : أن هناك مسلمين آخرين ولكن النبي ﷺ أخفى ذكرهم لكونهم يخفون إسلامهم عن قومهم، بينما كان أبو بكر ظاهر الإسلام، وبلال قد ظهر إسلامه، فذكرهما لكونهما لايتضرران بهذا الذكر، وهذا هو الظاهر لأن عمرو بن عبسة علم عن الإسلام وهو في بلاده، وظهور الإسلام خارج مكة وعلم القبائل به كان بعد الجهر بالدعوة بينما كان المسلمون الأوائل قد دخلوا في الإسلام قبل الجهر بالدعوة كما سبق في إسلام الخمسة على يد أبي بكر.

ومما يدل على تأخر وفادة عمرو بن عبسة قوله في وصف النبي ﷺ «جُرءاء عليه قومه» ، وقول النبي ﷺ «ألا ترى حالي وحال الناس ؟» فهذا يدل على أن وفادته كانت بعد حدوث الخلاف والعداء من المشركين لرسول الله ﷺ، وذلك بعد أن جهر بنقد الجاهلية التي كان عليها قومه، وهذا النقد كان بعد الجهر بالدعوة، بل إنه قد جاء في هذا الخبر التصريح بكسر الأوثان وهذا كان بعد الجهر بالدعوة.



١٢ - مواقف في الدعوة وإيثار الإسلام
(قدوم أسرة زيد بن حارثة لطلبه)

أخرج الحاكم رحمه الله بإسناده عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: كان حارثة بن شراحيل تزوج امرأة في طيء من نبهان فأوْلدها جبلة وأسماء وزيداً فتوفيت وأخلفت أولادها في حجر جدهم لأبيهم، وأراد حارثة حمهلم فأتى جدهم فقال ما عندنا فهو خير لهم فتراضوا إلى أن حمل جبلة وأسماء وخلف زيداً.

وجاءت خيل من تهامة من بني فزارة فأغارت على طيء فسبت زيداً فصيروه إلى سوق عكاظ فرآه النبي ﷺ من قبل أن يبعث فقال لخديجة رضي الله عنها: يا خديجة رأيت في السوق غلاماً من صفته كيت وكيت: يصف عقلاً وأدباً وجمالاً لو أن لي مالاً لاشتريته فأمرت ورقة بن نوفل فاشتراه من مالها فقال: يا خديجة هبي لي هذا الغلام بطيب من نفسك فقالت: يا محمد أرى غلاماً وضيئاً وأخاف أن تبيعه أو تهبه. فقال النبي ﷺ: ياموفقة ما أردت إلا لأتبناه فقالت: نعم يا محمد فرباه وتبناه فكان يقال له زيد بن محمد.

فجاء رجل من الحي فنظر إلى زيد فعرفه فقال: أنت زيد بن حارثة قال: لا أنا زيد بن محمد قال: لا بل أنت زيد بن حارثة من صفة أبيك وعمومتك وأخوالك كيت وكيت قد أتعبوا الأبدان وأنفقوا الأموال في سبيلك فقال زيد:

أحنُّ إلى قومي وإنْ كنت نائياً ... فإني قطين البيت عند المشاعر
وكفُّوا من الوجه الذي قد شجاكم ... ولا تُعملوا في الأرض فعل الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة ... خيار معد كابراً بعد كابر

فقال حارثة لما وصل إليه:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل
فو الله ما أدري وإني لسائل ... أغا لك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بَجَل[1]
تُذكِّرنيه الشمس عند طلوعها ... ويعرض لي ذكراه إذ عسعس الطَّفَل[2]
وإذ هبت الأرواح هيَّجن ذكره ... فيا طول أحزاني عليه ويا وجل
سأعمل نَصَّ العيس[3] في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
فيَأتيَ أو تأتي عليَّ منيتي ... وكل امرىء فَانٍ وإن غره الأمل

فقدم حارثة بن شراحيل إلى مكة في إخوته وأهل بيته فأتى النبي ﷺ في فناء الكعبة في نفر من أصحابه فيهم زيد بن حارثة فلما نظروا إلى زيد عرفوه وعرفهم ولم يقم إليهم إجلالاً لرسول الله ﷺ .

فقالوا له: يا زيد، فلم يجبهم فقال له النبي ﷺ : من هؤلاء يا زيد ؟ قال : يارسول الله هذا أبي وهذا عمي وهذا أخي وهؤلاء عشيرتي .

---

(١) بجل أي حسبي
(٢) أي أقبل الغروب .
(٣) العيس هي الإبل ، يعني أنه سيجتهد في البحث عن زيد .

فقال له النبي ﷺ : قم فسلم عليهم يا زيد فقام فسلم عليهم وسلموا عليه ثم قالوا له : امض معنا يا زيد .

فقال : ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ولا غيره أحداً فقالوا : يا محمد إنَّا معطوك بهذا الغلام ديات فسمِّ ما شئت فإنا حاملوه إليك .

فقال : أسألكم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني خاتم أنبيائه ورسله وأرسله معكم ، فتأبّوا وتلكئوا وتلجلجوا ، فقالوا : تقبل منا ما عرضنا عليك من الدنانير ؟ فقال لهم : ها هنا خصلة غير هذه قد جعلت الأمر إليه فإن شاء فليقم وإن شاء فليرحل .

قالوا : ما بقي شيء ، قالوا : يا زيد قد أذن لك الآن محمد فانطلق معنا ، قال : هيهات هيهات ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ولا أوثر عليه والداً ولا ولداً ، فأداروه وألاصوه واستعطفوه وأخبروه مَنْ وراءه من وَجْدهم ، فأبى وحلف أن لا يلحقهم .

قال حارثة : أما أنا فأواسيك بنفسي أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأبى الباقون .

وأخرج الحاكم أيضاً من طريق أبي عمرو الشيباني : حدثني جبلة بن حارثة أخو زيد بن حارثة قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث معي أخي زيداً فقال هو ذا هو ، إن أراد لم أمنعه فقال زيد : لا والله لا أختار عليك أحداً ، قال جبلة : إنَّ رأي أخي أفضل من رأيي .

وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو شاهد للحديث الماضي وأقره الذهبي[(١)] .

في هذا الخبر مواقف : الأول في اهتمام النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام ، حيث اغتنم فرصة قدوم عشيرة زيد بن حارثة رضي الله عنه ليدعوهم إلى الإسلام ، خاصة وأنهم في فرحة غامرة بلقاء ابنهم وفي شوق بالغ لرجوعه معهم ، فلم يطلب من زيد مالاً وإنما جعل مقابل سماحه بالعودة معهم أن يدخلوا في الإسلام .

والموقف الثاني : في تعففه ﷺ وترفعه عن الأموال التي حكّموه في عددها في مقابل تخليه عن زيد ، فلما فات ما قصده من إسلامهم جعل الخيار إلى زيد نفسه ففرحوا بذلك واعتبروه غاية التكرم والتفضل .

والموقف الثالث : في تعلق زيد بن حارثة برسول الله ﷺ وحبه الشديد له الذي فاق حب والده وعشيرته حيث رفض الذهاب معهم رغم إلحاحهم الشديد ، ويترتب على ذلك إيثار الحب في الله تعالى على جميع العلاقات الدنيوية التي أبرزها حب القرابة .

لقد كان في شعور زيد - كأي إنسان - ميل فطري إلى الأهل والعشيرة والوطن الذي درج فيه وهو في صباه ، ولقد كان في إمكانه أن يذهب مع أسرته ويبقى على إسلامه ، ولكن حبه للنبي ﷺ قد ملأ قلبه ، حتى أصبح حبه لأبيه وأسرته لا يساوي شيئاً عند المقارنة بحبه لسيده

---

(١) المستدرك ٣/ ٢١٤ .

ورسوله ﷺ ، لذلك قال : « هيهات هيهات ، ما أريد برسول الله ﷺ ، بدلاً ، ولا أؤثر عليه والداً ولا ولداً » فكان مصمماً في قراره على البقاء في مكة من اللحظة الأولى التي عرض عليه فيها أبوه العودة إلى بلده ، ولم يحصل منه أي تردد في هذا الأمر .



١٣ - نماذج من قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن
(تأثر بعض زعماء قريش / تأثر وفد النصارى)

لقد كان كثير من المشركين مقتنعين بأن ما جاء به رسول الله ﷺ حق وأنه من عند الله تعالى ، ولقد كانوا على يقين بأن القرآن كلام الله تعالى وأنه ليس من كلام البشر ، ولكن كان يمنع من أصرَّ منهم على الكفر من الدخول في الإسلام هواهم المنحرف ، ولقد اعترف بعضهم بنداء عقولهم نحو الاعتراف بصدق النبي ﷺ كما اعترفوا بأن هوى أنفسهم قد غلبهم فأصروا على ما هم فيه من الباطل .

ومما جاء في هذا المعنى ما أخرجه محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى من حديث الإمام الزهري أنه حَدَّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد أن لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، فقال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الرُّكَب وكنا كفَرَسَي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس وتركه [1] .

في هذا الخبر مثلٌ من قوة تأثير رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم على

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢١ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٦ ، البداية والنهاية ٣/ ٦٢ ، وذكره الصالحي من رواية الحافظ محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات عن الزهري عن سعيد بن المسيب وصحح إسناده ، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٥٢ .

السامعين ، فهؤلاء فطاحلة الكفر يتسللون سراً ليستمع كل واحد منهم قراءته ليلاً ، مدفوعين إلى هذه المغامرة بما أخذُوا به من جاذبية بيانه وهيئته الأخّاذة وهو يتلو كتاب الله تعالى وبما يحتوي عليه هذا الكتاب العظيم من إعجاز في بيانه ومحتواه .

وبعد أن استمع هؤلاء النفر لقراءة النبي ﷺ وقعوا في صراع نفسي بين تغليب منطق العقل وتغليب منطق الهوى والعاطفة ، ثم قرروا تغليب جانب الهوى والعاطفة في النهاية[1] .

وهذا نوع من السفول في التفكير والانحطاط في درجات الإنسانية حيث ينحدر الإنسان إلى خلائق البهائم العجماوات ، ويعطِّلُ الاستفادة من عقله الذي وهبه الله إياه في أقدس وأعظم أمر يجب أن يفكر فيه وهو مستقبله بعد الموت .

وفي هذا الخبر مثل من الاعتراف بالحق ثم الإصرار على الباطل ، وهذه نهاية الصراع بين منطق الهوى ومنطق العقل ، وإذا انحط الإنسان إلى هذا الدرك أصبح مختوماً على قلبه فلا يدرك غالباً إلا ما يتلاءم مع هواه ، ولهذا يصدر من مثل هذا كثير من السلوك الذي يزدريه أهل العقل السليم .

وفي هذا الخبر بيان سبب من أهم أسباب الضلال ، وهو الاعتصام بالمجد الدنيوي واعتبار الجاه والمنزلة في الدنيا هدفاً يُسعى إليه ، فإذا استقر ذلك في القلب أصبح عقيدة يسعى صاحبها إلى تنميتها والدفاع

---

(١) يعني في نهاية هذه القصة ، وينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم يوم فتح مكة .

عنها . وأصبح تفكيره محصوراً فيها مصروفاً عن سماع الحق والتفكير فيه ، وبهذا يكون الجاه والمجد الدنيوي من أعظم الأوثان التي تصرف عن عبادة الله تعالى .

ومن أمثلة قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن ما أخرجه الإمام البيهقي من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له .

فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لِمَ ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبلَه ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، قال : وماذا أقول فيه فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لِقَوْله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعْلَى ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال فدعني أفكِّرْ فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يُؤثَر يأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدا** ﴾ . ثم ذكر طرقاً أخرى مرسلة وقال : وكل ذلك يؤكد بعضه بعضا [1] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٩٨ ، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي - البداية والنهاية ٣/ ٥٩ . وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وأقره الحافظ الذهبي - المستدرك ٢/ ٥٠٦ .

وقد جاء في رواية مقاربة أخرجها ابن إسحاق رحمه الله أن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر الموسم فقال : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً .

فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا فيه رأياً نقول به ، فقال : بل أنتم فقولوا أسمع .

فقالوا : نقول : كاهن ، فقال : ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

فقالوا : فنقول : مجنون ، فقال : ما هو بمجنون ، ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول ساحر ، قال : فما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : ما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله طلاوة وإن أصله لَعَذْق [1] وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم لا

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : لغَدَق .

يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

فأنزل الله عز وجل في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدودا . وبنين شهودا .. ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدّر . فقُتِل كيف قدّر . ثم قُتِل كيف قدَّر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إنْ هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحةٌ للبشر . عليها تسعة عشر** ﴾ [1] .

قال ابن إسحاق : وأنزل الله عز وجل في النفر الذين كانوا معه يصنّفون له القول في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من عند الله تعالى ﴿ **الذين جعلوا القرآن عِضِين . فوربك لنسألنّهم أجمعين . عما كانوا يعملون** ﴾[2]

قال ابن إسحاق : فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها [3] .

---

(١) المدثر ١١-٣٠ ، وقوله تعالى : ﴿وحيداً﴾ يعني إن الله تعالى خلق الوليد بن المغيرة وحيداً لا مال له ولا ولد فرزقه المال والولد وفي هذا تبكيت له على كفران النعمة . وقوله (صعودا) يعني عذاباً شاقاً .

وقوله ﴿فقتل كيف قدّر﴾ يعني قاتله الله ما أسوأ تفكيره فهو تعجب إنكاري من تقديره الفاسد .

وقوله (ثم عبس) يعني قطب وجهه (وبسر) زاد وجهه تقطيباً وهو يستلهم فكره المعوج ليسعفه بما يفتري به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) الحجر : [٩٠-٩٣] .

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٨ ، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق ابن إسحاق قال : حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس . . وذكر مثله - دلائل النبوة ٢/ ٩٩-٢٠٠ .

وقوله : « وإن أصله لعذق » قال السهيلي : وقول الوليد : « إن أصله لعذق وإن فرعه لجناة » استعارة من النخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جني ، والنخلة هي العذق بفتح العين ، ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام لأنها استعارة تامة يشبه آخر الكلام أوله ، ورواية ابن هشام : إن أصله لغَدَق ، وهو الماء الكثير [1] .

وما جاء في رواية البيهقي من قوله « لمغدق » لعلها لغدق كما جاء في الرواية التي حكاها ابن هشام .

وهكذا تبين لنا من هذا الخبر عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه ، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر سادتهم ، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ المؤثر .

وفي هذا الخبر بيان لصورة من صور المكر الذي كان يقوم به فرعون هذه الأمة أبو جهل من التنفير عن الإسلام فكان كلما رأى رجلاً من أشراف قريش قد مال إلى الإسلام ابتكر من أنواع المكر ما يستطيع به التأثير عليه لإدراكه بأن موازين القوى تتغير بانضمام عدد من الأشراف إلى الإسلام ، وقد كان الوليد بن المغيرة من أكابر قريش سناً ومنزلة ، وقد أظهر إعجابه بما سمع من القرآن ووصفه بذلك الوصف البليغ الذي صدر منه وهو في حال استجابة لنداء العقل وتحرر من نداء العاطفة ، فلما دخل في تفكيره كلام أبي جهل غلب عليه نداء العاطفة ففضل البقاء

---

(1) الروض الأنف ٣/ ٧٩ .

على ميراث الآباء والأجداد وإن كان ضلالاً ، وحجب نداء العقل السليم والتفكير المتزن .

وفي هذا الخبر بيان أثر دعوة رسول الله ﷺ البالغ على الكفار ، حيث حملهم ذلك على الخروج عن مألوف العقلاء ، ولا شك أن سلوك رسول الله ﷺ الحكيم وطهارة سمعته من أي شائبة من الرذائل بعد توجيه الله سبحانه إياه ، حمل الكفار على اختلاق تُهَم لا أصل لها فعقدوا لذلك مجلساً أعلى لتزوير الحقائق ، ثم صاروا يفندونها لوضوح بطلانها ورثاثة نسيجها .

وقد استقر رأيهم على اتهام رسول الله ﷺ بالسحر مع اعترافهم بِبُعْد ما بين فحوى كلامه والسحر ، إلا أنهم بعد إعمال الفكر وجدوا نوع تشابه بين أثر دعوة رسول الله ﷺ وما يحدثه السحر من التفريق بين الرجل وابنه وزوجه وعشيرته ، فتنفسوا الصعداء مما كانوا يعانون منه من الضيق وانغلاق الفكر ، فأجمعوا على اتهامه بالسحر وهم يعلمون أن هناك فرقاً بين أثر دعوة الحق وأثر السحر الباطل ، إلا أنهم لفرط عداوتهم وإفلاس حجتهم تعلقوا من ذلك بأوهى من خيوط العنكبوت .

وهكذا أهل الباطل في كل زمن ماهرون في إلصاق التهم المزيفة بالدعاة إلى الله تعالى ، ولكن سرعان ما ينكشف باطلهم ويبطل كيدهم لأنهم مهما عملوا لا يملكون الهيمنة على عقول الناس ، فإذا قارن العقلاء بين نصاعة دعوة الحق وطهارة دعاته من الرذائل ، وسمو مقاصدهم ، وطموحهم دائماً نحو المعالي من صالح الأعمال تبين لهم

الصفو من الكدر ، وزاد تعلقهم بدعاة الحق والتزامهم بتوجيهاتهم الحكيمة .

وفي هذا الخبر مثل من نشاط دعاة الباطل في نشر باطلهم وحمايته مع أنهم لا يرجون من ورائه إلا متاع الدنيا ومجدها الزائل ، وهذا دافع لأهل الحق إلى أن يضاعفوا من جهدهم في نشر حقهم والدفاع عنه ، لأنهم يرجون من الله ما لا يرجوا أولئك الكفار .

ولئن كانت العاقبة التي يرجوها الكفار من هذه التضحية هي التمكين في الأرض فإن ذلك يحصل للمؤمنين إذا أخلصوا في دعوتهم كما وعدهم الله تعالى ، مع ما أعده الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم والنجاة من العذاب الأليم .

ومن أمثلة قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن ما كان من وفد النصارى الذين أسلموا لما سمعوا القرآن .

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا ؛ دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له ؛ وآمنوا به ، وصدقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيَّبكم الله من ركب ! بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ؛ وصدقتموه بما قال ! ما نعلم ركباً أحمق منكم - أو كما قالوا - فقالو لهم : سلام عليكم ؛ لا نجاهلكم ؛ لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً[1] .

وهكذا لما كان هؤلاء النصارى قد تجردوا من الهوى المنحرف ، وأقبلوا وهم يريدون معرفة الحق الذي تحدثت عنه كتب أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام ورأوا هذا الحق متمثلاً ببعثة رسول الله ﷺ فإنهم قد تأثروا بسماع القرآن وبكوا خشوعاً لله تعالى وآمنوا برسوله ﷺ وعرفوا يقيناً أنه النبي الذي بشر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام .

ولكن طغاة المشركين لم يعجبهم هذا الموقف ، ولما كانوا مفلسين في مجال الحجة فإنهم لم يحاولوا إقناع أولئك النصارى بالعدول عن الإسلام ليقينهم بالفشل في ذلك ، ولكنهم حاولوا إفراغ ما في نفوسهم من الحقد على رسول الله ﷺ وعلى دعوته فسخروا من ذلك الوفد وانتقصوهم ، ولما كان أولئك النصارى قد جمعوا بين تهذيب دينهم السابق وما وقر في نفوسهم من اليقين بدين الإسلام فإنهم لم ينزلوا إلى مستوى أولئك المتجبرين المستكبرين بل خاطبوهم بهدوء وسكينة وأشعروهم بأنهم على قناعة تامة بما آمنوا به .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢- ٤١٣ .

١٤ - مثل من دعوة رسول الله ﷺ المؤثرة
(إسلام ضماد الأزدي ورجل من بني عامر)

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته ، بليغاً في التأثير على من خاطبه ، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره قبل أن يتكلم ، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل من العقل السليم والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء والنية الخالصة في هداية الأمة بوحي الله تعالى .

وإن من أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة ، ما كان من موقفه مع ضماد الأزدي الذي وفد إلى مكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ حتى وقر في نفسه أنه مصاب بالجنون كما يتهمه بذلك قومه .

وقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن ضماداً الأزدي قدم مكة وكان من أزد شنوءه ، وكان يرقي من هذه الريح - يعني يعالج من الجنون - فسمع سفهاء مكة يقولون إن محمداً مجنون فقال : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .

قال فلقيه فقال : يا محمد إني أرقي من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد» .

قال فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر [(١)] .

قال فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام قال : فبايعه ، فقال رسول الله ﷺ : وعلى قومك ، قال : وعلى قومي .

قال : فبعث رسول الله ﷺ سرية [(٢)] فمروا بقومه فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد . [(٣)]

في هذا الخبر بيان أن المشركين كانوا يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون ، فهل كان وصفه بذلك مجرد تهمة ألصقها به أعداؤه من غير أن يسوغوها بأسباب يتوقعون أنها مقنعة ؟

قد تكون هذه التهمة غير مسوغة بذلك ، وإنما هي مجرد رأي خطر

---

(١) ذكر الإمام النووي أنه ضبط هذه الكلمة من وجهين : أولهما ناعوس والثاني قاموس ، وذكر أن هذا هو الأشهر عند غير مسلم ، وعليه سار أبو مسعود الدمشقي في أطراف الصحيحين والحميدي في الجمع بين الصحيحين ، وذكر أن هذا هو الموافق لكلام أهل اللغة وأن معناه وسط البحر وقعره ولجته - شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ١٥٧- .

(٢) يعني بعد الهجرة .

(٣) صحيح مسلم ص ٥٩٣ ، رقم ٨٦٨ .

لبعض زعمائهم لينفروا الناس من سماع دعوة رسول الله ﷺ فتبعهم على ذلك عامتهم .

وقد تكون مسوغة بمخالفة ما عليه جمهور الناس ، والقيام بتحدي من يملكون القوة والهيمنة ، والتضحية من أجل المبدأ بالمال والنفس . فيرى بعض الناس أن العقل يقتضي مسايرة الناس وطلبَ السلامة في النفس والمال ، وأن إهدار ذلك وتعريض النفس للهلاك ، والمال للضياع من أجل المحافظة على مبدأ يخالف ما عليه الناس نوع من الجنون .

ومن هذا الباب اتهام المشركين أبا بكر بالجنون حينما عرَّض نفسه للأذى وهو يدافع عن رسول الله ﷺ كما سيأتي .

ولذلك ترتفع نغمات المتعاقلين من المنافقين في كل زمن فيتهمون دعاة الإسلام الذين يقاومون الباطل ، ويتعرضون من أجل رفع دعوة الحق لضياع الأموال والتشرد والسجون والقتل أحياناً . . يتهمونهم بالجنون . . لاعلى أنهم قد فقدوا عقولهم بالكلية ، ولكن على أنهم فقدوا نوعاً من العقول يراها هؤلاء المنافقون وأشباههم من ضعفاء الإيمان هي العقول السليمة الجديرة بحمل هذا الاسم . . هذه العقول هي التي ترعى مصالحها الدنيوية ، وتساير جميع الأوضاع التي تعيش فيها سواء كانت الهيمنة لأهل الحق أو كانت لأهل الباطل .

فالتخلي عن المال من أجل الحفاظ على المبدأ السامي يعتبر عند هؤلاء ضرباً من الجنون .

والنظر إلى الدنيا والتفكير الدائم في تدبير الأموال وسياسة تشغيلها وصرفها هو عين العقل عند هؤلاء ، ويستوي عندهم من يبعثر أمواله في الطيش والتهور ، ومن ينفق أمواله في سبيل الله تعالى ، فكلاهما عند هؤلاء سفيه قاصر العقل ، بينما يكون الحكم في الإسلام على الأول بأنه قاصر العقل سفيه يجب الحجر عليه ، أما الثاني فإنه كامل العقل حيث قدم ماله ليكسب في الآخرة أضعافاً مضاعفة من الأجر ، ويستحق الثناء والشكر بما قدم من ماله لخدمة دينه وإخوانه المسلمين .

هذا وقد وجدت من كلام علماء التفسير ما يؤيد هذا التوجيه وذلك فيما رُوي عن الحسن البصري رحمه الله أنه فسر اتهام المشركين ذلك لرسول الله ﷺ بالضلال قال : وذلك أنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه ويهذي ، بل لأن النبي ﷺ خالف أهل العقل في نظرهم ، كما يقال : ما لفلان عقل [١] .

وقال الحسن أيضاً في هذا المعنى : لقد رأيت رجالاً لو رأيتموهم لقلتم مجانين [٢] . يخاطب بذلك أهل الدنيا في عصره من المسلمين ، ويريد بالرجال من رآهم من الصحابة رضي الله عنهم ، ويقصد بهذا الكلام أن أهل الدنيا في عصره لو رأوا الصحابة في زهدهم في الدنيا

(١) ، (٢) فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٧٢ .

وإقبالهم على الآخرة وتنافسهم في الجهاد وطلب الشهادة والإنفاق في سبيل الله تعالى لاتهموهم بالجنون .

وفي هذا الخبر بيان اتصاف رسول الله ﷺ بصفتي الصبر والحلم وهما من أهم الصفات اللازمة للنجاح في الدعوة ، فهذا الرجل وهو ضماد الأزدي قد قدم مكة وهو يعتقد أن رسول الله ﷺ مجنون ، وذلك لكثرة ما يبث قومه عنه من دعاوى كاذبة في القبائل ، وحيث إنَّ ضماداً يعالج من ابتلي بالجنون فإنه قد عرض على النبي ﷺ أن يعالجه من ذلك .

وهذا موقف يثير غضب من اتُّهم بذلك عادة ، ويتبع ذلك توبيخ المتكلم به إن لم يحصل ما هو أشد من ذلك ، ولكن رسول الله ﷺ الذي جبله الله تعالى على مكارم الأخلاق قد استقبل الأمر بحلم وهدوء مما أثار إعجاب ذلك الرجل وجعله مهيئاً لقبول ما سيدعوه إليه ، ولذلك ما إن بدأ النبي ﷺ كلامه بالمقدمة التي يستفتح بها بعض خطبه حتى أعلن ذلك الرجل أن الكلام الذي سمعه لا يشبهه ولا يدانيه كلام الشعراء ولا كلام الكهان والسحرة فأسلم في تلك الساعة .

وهذا شاهد على فصاحة النبي ﷺ وقوة بيانه ، وانبعاث كلامه من قلب مُليءَ إيماناً ويقيناً وحكمة ، حيث فاض ذلك على غُرر بيانه فأصبح آسراً لسامعيه ، وجاذباً لأصحاب القلوب المتجردة إلى اتباعه .

ولئن كان كثير من الناس اليوم لا يتأثر بهذا الكلام وأمثاله ، فهذا ليس لعيب في الكلام ، وإنما هو لتدني مستوى المتلقي في الذوق

والوجدان وفهم اللغة العربية ، أو لعدم صدور ذلك الكلام من قلب متأثر به أو لهما جميعاً .

وفي سرعة إسلام ذلك الرجل دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية التي يحمل عليها اتباع الهوى ، والضغوط الخارجية التي من أبرزها هيمنة الطغاة من الأكابر الذين يرسخون في النفوس رهبتهم وتقديس مبادئهم الضالة في قلوب الناس من غير أن يكون لهم اختيار وتفكير . . إذا خلت النفوس من ذلك فإنها غالباً تتأثر وتستجيب ، إما بسماع قول مؤثر ، أو الإعجاب بسلوك قويم .

وفي طلب النبي ﷺ البيعة من ضماد لقومه دلالة على مبلغ اهتمامه ﷺ بدعوته ، وذلك باغتنام كل فرصة ينتج عنها تقدم في هذه الدعوة ، فقد لاحظ سرعة إقبال ذلك الرجل على الإسلام وقوة قناعته به ، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه ، وذلك وعد مؤكد منه بحمل قومه على الإسلام ، ولا شك أن من بايع النبي ﷺ نيابة عن قومه سيبذل كل ما يملك من طاقة في جذب قومه إلى هذا الدين .

وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى ، حيث جعلها النبي ﷺ قرينة الالتزام الشخصي ، فقد بايع ضماد رسول الله ﷺ على الالتزام بالدين ، فلم يكتف رسول الله ﷺ بذلك بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام لأن دعوتهم متعينة عليه .

فالدعوة فرض كفاية ، إذا قام بها من يكفي سقط الوجوب عن بقية

الأمة ، وإذا لم يتم ذلك أثم كل من كان أهلاً لهذا الأمر ، وإذا تعينت على واحد بعينه كانت فرض عين كما هو الحال في هذا الخبر .

ومن المعلوم أن من دخل في الإسلام يكون في جو رَوْحَاني قوي ، ويدفعه الندم على ما فات من أيامه - وهو في ضلال - على مضاعفة الجهد في خدمة هذا الدين الذي هداه الله إليه ، فيكون لديه استعداد قوي لبذل الجهد في هذا المجال .

ويشبه هؤلاء المسلمين الجدد في هذه الحيوية والاندفاع نحو العمل المنحرفون من المسلمين الذين منَّ الله عليهم بالتوبة والهداية فإنهم لا يشعرون بانتمائهم الحقيقي للإسلام إلا بعد استنارة قلوبهم بالهدى ، ولذلك فإنهم يندفعون بقوة نحو العمل الصالح والدعوة إلى الإسلام .

وإن مما يُوصَى به مجالسة التائبين لاكتساب قوة الإيمان والحيوية الدافعة إلى العمل الصالح ، وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : جالسوا التوابين فإنهم أرقّ شيء أفئدة [1] .

وهنا تأتي براعة الموجهين في الدعوة حيث يحاولون جهدهم الإفادة من هذه الطاقات المتدفقة وتوجيهها نحو الالتزام الصحيح بالإسلام وبذل الجهد في دعوة الناس إليه ، وخاصة في مجتمع الأقران الذين كانوا قبل ذلك تجمعهم الزمالة والصداقة .

وهم في كل ذلك إنما يتأسون برسول الله ﷺ الذي كان يوجه الطاقات ويغتنم كل الفرص المتاحة للدعوة .

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل / ١٢٠ .

فهل يفهم المسلمون هذا المعنى الجليل فيسارعوا إلى بذل جهدهم في الدعوة إلي هذا الدين والدفاع عنه ؟ .

ويشبه خبر ضماد الأزدي من بعض الجوانب ما أخرجه ابن حبان رحمه الله من طريق سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « جاء رجل من بني عامر إلى النبي ﷺ كأنه يداوي ويعالج فقال : يا محمد ، إنك تقول أشياء هل لك أن أداويك ؟

قال فدعاه رسول الله ﷺ إلى الله ثم قال له : هل لك أن أريك آية ؟ وعنده نخل وشجر ، فدعا رسول الله ﷺ عذقاً منها فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه ويسجد ويرفع رأسه حتى انتهى إليه ﷺ فقام بين يديه ثم قال له رسول الله ﷺ : ارجع إلى مكانك ، فرجع إلى مكانه . فقال العامري : والله لا أكذبك بشيء تقوله أبداً . ثم قال : يا آل عامر ابن صعصعة ، والله لا أكذبه بشي يقوله » قال : والعذق : النخلة[1] .

فهذا الرجل العامري يتطبب ويعالج المرضى ، ولما سمع أهل مكة يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون تقدم إليه وعرض عليه أن يداويه من ذلك

ولكن جواب رسول الله ﷺ للعامري اختلف عن جوابه لضماد الأزدي ، فقد كان جوابه لضماد يقوم على الفصاحة والبيان وجزالة المعاني ، وهذا يعني أن النبي ﷺ قرأ من حال ضماد أنه ممن يؤثر فيهم الأدب الرفيع والمعاني السامية فبادره بذلك الجواب الذي هز كيانه

---

(١) موارد الظمآن ٥٢٠ ، وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة - مجمع الزوائد ٩/ ١٠ .

وأخضع جنانه ، وأمثال ضماد هم الأكثرون في حياة العرب آنذاك ولذلك كان جل دعوة النبي ﷺ قائماً على الإبداع في هذا المجال .

أما ذلك العامري ، فقد قرأ النبي ﷺ من حاله أنه من أهل العاطفة القوية والخضوع للأمور الحسية ، فعرض عليه آية مشاهدة تُخضع من رآها - ممن تجرد من الهوى - إلى الإذعان لها والتسليم لصاحبها بأنه ليس من البشر العاديين .

وهكذا تتنوع أساليب النبي ﷺ في الدعوة حسب فهمه لمداخل النفوس وطرق التأثير عليها ، فهو القدوة العليا في ذلك ، ومنه يجب أن تؤخذ مناهج الدعوة وأساليبها .



١٥ – مثل من قدرة النبي ﷺ على اختراق حصار الأعداء

(إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي)

لقد كان حصار الأعداء لدعوة الإسلام شديداً محكماً، حيث لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ وتشويه سمعته عندهم بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم ليسمّموا أفكارهم وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه والتأثر بدعوته .

وإن من أبرز الأمثلة على ذلك ما جرى منهم مع الطفيل بن عمرو الدوسي، وقد أخرج خبره محمد بن إسحاق رحمه الله حيث قال : وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه[1] يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه وجعلت قريش – حين منعه الله منهم – يحذّرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له : يا طفيل إنك قَدِمْتَ[2] بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما أمره كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته،

---

(١) يعني من العداوة والإيذاء .

(٢) وفي رواية أنهم قالوا : « إنك امرؤ شاعر سيد » – سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٥ .

وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه شيئاً .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذنيَّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسفاً فَرَقاً[1] من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة . قال : فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، قال : فسمعت كلاماً حسناً ، قال : فقلت في نفسي : واثُكل أمي ؛ والله إني لرجل لبيب شاعر وما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فأتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك .

قال فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليَّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه . قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله ، إني امرؤ مطاع في قومي ،

---

(١) كرسفاً : يعني قطنا ، وفرقاً : بفتح الراء يعني خوفاً .

وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية.

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثَنِيّة[1] تُطلعُني على الحاضر[2] وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم. قال: فتحول فوقع في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

قال: فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني قال: ولِمَ يا بني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، قال: أي بني، فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تَعَالَ حتى أعلِّمك ما عُلِّمت. قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي[3]، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت: لِمَ؟ بأبي أنت وأمي، قال: قلت: قد فَرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قال. قلت:

---

(١) الثنية: المكان المرتفع.
(٢) يعني أهل بلده.
(٣) يعني زوجته.

فاذهبي إلى حنا ذي الشَّرَى فتطهري منه[1].

قال: وكان ذو الشرى صنماً لدَوْس، وكان الحمى حمىً حموه له، وبه وَشَل من ماءَ يهبط من جبل.

قال: فقالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصِّبْيَة من ذي الشَّرى شيئاً؟ قال: قلت: لا أنا ضامنٌ لذلك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوتُ دَوْساً إلى الإسلام فأبطئوا عليّ، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دَوْس الزنى[2]، فادع الله عليهم؛ فقال: اللهم اهْد دَوساً، إرجع إلى قومك فَادْعُهُم وارفق بهم.

قال: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله بمن أسْلَم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دَوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

ثم لم أزَل مع رسول الله ﷺ، حتى إذا فتح الله عليه مكة، قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حُمَمَة حتى أحرِقَه.

---

(١) قال ابن هشام: ويقال حمى ذي الشرى، وقال السهيلي: وهو موضع حموه لصنمهم ذي الشرى، فإن صحت رواية ابن إسحاق فالنون قد تبدل من الميم كما قالوا: حُلان وحلام للجدي، ويجوز أن يكون من حنوت العود، ومن مَحْنِيَة الوادي وهو ما انحنى منه -الروض الأنف ٣/ ٣٧٦-.

(٢) وفي رواية أخرى «الزنى والربا» - سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٦.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه فجعل طُفيل يوقد عليه النار ويقول:

ياذا الكَفَيْن لَستُ من عُبّادكا ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا

إني حشوتُ النار في فُؤادكَا

قال ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ. فلما ارتدت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلّها.

ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنُهُ عَمْرو بن الطُّفيل، فرأى رؤيا وهو متوجّه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا فاعْبُرُوها لي، رأيت أن رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائرٌ، وأنه لقيتْني امرأة فأدخلتني في فَرْجها، وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً ثم رأيته حُبس عني، قالوا: خيراً.

قال: أمّا أنا والله فقد أوّلتها، قالوا: ماذا؟ قال: أمّا حَلْق رأسي فَوضْعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فَرُوحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض: تُحْفَرُ لي، فَأُغَيَّبُ فيها، وأما طلبُ ابني إياي ثم حَبْسه عني، فإني أراه سيَجْهَد أن يصيبه ما أصابني.

فقتل رحمه الله شهيداً باليمامة، وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبَلَّ منها، ثم قتل عام اليرموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيداً[(١)].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠١.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية وقال: ولخبره شاهد في الحديث الصحيح، ثم ذكر حديث أبي هريرة الذي أخرجه الإمام أحمد والبخاري أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم»[1].

يعني بذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال فيه «قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن دوساً عصت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال: اللهم اهد دوساً وائت بهم»[2].

وهكذا رأينا مثالاً واضحاً للحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه مع الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، وقد استخدموا للتأثير على الناس ليصدوهم عنها مختلف الوسائل، فنجدهم كما في هذا المثال يتلقون الوافدين إلى مكة المكرمة، ويقومون بمحاولة تسميم أفكارهم وملئها بالباطل ليحول ذلك دون وصولها إلى الحق.

ونجدهم يخاطبون الناس بالأساليب المؤثرة عليهم كما في قولهم في إحدى روايات هذا الخبر للطفيل بن عمرو: إنك امرؤ شاعر سيد، فقد وصفوه بصفتين يعتز بهما العرب كثيراً وكأن لسان حالهم يقول: لقد تبوأت في عقولنا مكانة كبيرة لهذه المؤهلات فلا تُنزل نفسك من هذه المكانة الرفيعة بسماع ما يقوله مَنْ ليس في مستوى عقلك وتفكيرك،

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٩٨.

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٩٣٧ (٦/ ١٠٧) كتاب الجهاد، صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٥٢٤ ص ١٩٥٧، مسند أحمد ٢/ ٢٤٣.

وحيث إن الطفيل عالم بالشعر والكهانة فقد اختاروا وصفاً آخر ينطلي عليه وعلى أمثاله وهو السحر وسوغوا ذلك بكون رسول الله ﷺ يفرق بين الأحبة على حد زعمهم .

وهكذا نجد دعاة الباطل في كل زمن يصورون دعاة الحق على أنهم إرهابيون وعواصف مدمرة، ليكسبوا الناس إلى صفهم، فما يزال البسطاء والإمَّعات الذين ألفوا التبعية والتقليد وعطلوا جانباً كبيراً من عقولهم . . ما يزالون يرددون كلامهم وينفرون الناس من دعاة الحق .

ولقد تأثر الطفيل بن عمرو بكلام زعماء الكفار في مكة لما سبق أن استقر لهم من مكانة وسمعة عالية بين العرب باعتبار أنهم جيران الحرم وحراس المشاعر المقدسة حتى بلغ به الخوف من النبي ﷺ إلى حد أنه سد أذُنيه بالقطن حتى لايسمع نداء الحق .

وإذا كان الطفيل قد سد أذنيه حقيقة فما أكثر من فتحوا آذانهم ولكنهم سدوا منافذ فكرهم وعطلوا عقولهم فأصبحوا يسمعون صوت الحق ليل نهار فما يوقظ فيهم ضمائر ولا يُحْيي فيهم مواتاً .

ولكن هل استطاع الكفار أن يحولوا بين الناس وسماع دعوة الحق ؟

إنهم لم يستطيعوا ذلك لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائلَه في التبليغ كانت أبلغ من وسائلهم، وثباتَه على مبدئه السامي كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه .

فالشيء الذي يجب أن يفكر به الدعاة وأن يجابهوا به الأعداء هو تطوير وسائلهم في التبليغ إلى الحد الذي يفوق وسائل الأعداء في صد

هذا التبليغ، لأن الحيلولة بين الأعداء والوصول إلى الناس بالتضليل أمر غير ممكن غالباً، وهكذا فعل رسول الله ﷺ حيث تمكن من رفع صوت الإسلام، بالرغم من قوة أعدائه وكثرتهم.

فالرسول ﷺ لم يقبع في بيته، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيتسربَ الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه.

وكان من هؤلاء صاحبُ هذه القصة الطفيل بن عمرو الدوسي الذي أدرك حال سماعه أن ما تلاه النبي ﷺ هو الحقُّ فأعلن إسلامه، وقد هيأ له ذلك كونه متجرداً من اتباع الهوى ومتحرراً من ضغط السادة والزعماء.

فكم من إنسان في مكة آنذاك يدرك أن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحقُّ الذي لا مرية فيه، ولكن يمنعه من اتباعه وقوعه تحت ضغط الطغاة الذين يهددونه في حياته أو في مصالحه الدنيوية.

وكان إيمان الطفيل قوياً إلى الحَد الذي تخطى به مجرد الالتزام الشخصي بتطبيق الإسلام، إلى الانطلاق به ودعوة قومه إليه فاستأذن النبي ﷺ في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام.

وكم من مسلم يظل عمره كله في مرحلة الالتزام الخاص ولا يتحول إلى الدعوة، وهذا مظهر من مظاهر ضعف الإيمان إذا كان ممن تعينت

عليهم الدعوة، ويكون الوضع منكراً ومزرياً حينما يتخلى عن الدعوة من ينتسبون إلى العلم الديني مع احتياج الساحة الإسلامية إليهم، بل إن تخصصهم في هذا المجال وبعدهم عن الدعوة فيه شيء من التناقض، وقد يُعتبرون بواقعهم هذا فتنة للناس ومدعاة للصدود عن الدعوة.

أما حينما تكون الدعوة فرض كفاية على المسلم فإنه حينما يتخلى عنها يكون قد حرم نفسه من باب كبير من أبواب الخير.

وإن ما أجرى الله تعالى عَلى يدي الطفيل من هذه الكرامة حيث أضاء له طرفُ سوطه واستجاب الله دعاءه يعتبر كرامة لهذا الولي رضي الله عنه ومعجزة للنبي ﷺ الذي دعا له بذلك، وقد قدر الله تعالى وقوع ذلك لدعم الدعوة الإسلامية وتثبيت الدعاة.

وحين مارس الطفيل دعوته فلم يستجب له غالبية قومه أصابه شيء من اليأس منهم، فجاء إلى النبي ﷺ يشكوهم ويطلب منه أن يدعو عليهم، ولما كان ذلك من التعجل في الحكم على المدعوين واستظهار نتائج الدعوة المنافي لما تتطلبه الدعوة من الصبر والأناة فإن النبي ﷺ قد أجابه بضد ما طلب حيث دعا لهم بالهداية، وهذا يعتبر من أمثلة اتصاف النبي ﷺ بالتأني والصبر إلى جانب اتصافه بالشفقة والرحمة والرغبة العظيمة في هداية الناس.

وإن ما ذكره الطفيل من توغل قومه في الزنى والربا، وأن ذلك منعهم من الدخول في الإسلام يعتبر واقعاً ملموساً في حياة الناس، حيث إن الوقوع في الشهوات المحرمة يترتب عليه قسوة القلوب وانغلاق

منافذ الفكر أحياناً بحيث لايحب المصاب بذلك سماع دعوة الحق التي ستحول بينه وبين الاستمرار فيما هو متوغل فيه من المعاصي .

ولذا فإن مما يختصر الطريق على الدعاة ويعينهم كثيراً على الوصول إلى قلوب الناس ان تُبذَل جهود مكثفة للحيلولة بين الشباب والوصول إلى مواقع الفتنة ، وذلك بإزالة معالم الجاهلية المتمثلة بِدُور البغاء والملاهي المحرمة ، وحانات الخمور ومعاقل الربا ونحو ذلك مِن مظاهر الجاهلية .

هذا وإنّ امتناع قوم الطفيل عن الإسلام لأنه يمنعهم من الربا والزنى دليل على أنه كان في حس أهل الجاهلية وشعورهم أن دخول الإنسان في الإسلام يعني التزامه حالاً بأحكامه ، وامتناعه من المنكرات المحرمة ، ولم يكن في مفهومهم أن يدخل الإنسان في الإسلام ثم يستمر في ممارسة ما كان يمارسه من الشهوات المحرمة ، وإنهم بذلك أعظم فهماً للإسلام من عصاة المسلمين الذين يجمعون بين إعلان الإسلام والإصرار على المنكرات التي نهى الله تعالى عنها .

وحينما كثر المؤمنون من قوم الطفيل ورأى أنه قادر على إزالة الرمز الأكبر للجاهلية في بلاده وهو صنم «ذي الكفَّين» استأذن النبي ﷺ في أن يزيله فأجابه النبي ﷺ بما يبين أهمية ذلك وضرورته .

وسيأتي مزيد بيان في شرح هذا الموضوع بإذن الله تعالى في أحداث فتح مكة حيث أزال رسول الله ﷺ جميع الأصنام .

١٦ - لون آخر من الصد عن سبيل الله

(خبر أعشى بني قيس)[*]

قال ابن هشام رحمه الله : حدثني خلاد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم : أن أعشى بني قيس بن ثعلبة بن عكاية بن مصعب بن علي بن بكر بن وائل خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام فقال يمدح رسول الله ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتَّ كما بات السليم مسهَّدا[1]

إلى أن قال :

وآليتُ لا آوي لها من كلالة ... ولا من حَفًى حتى تلاقي محمدا[2]

نبياً يرى ما لاترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا[3]

له صدقات ما تَغِبُّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا

أجِدَّك لم تسمع وُصَاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لاتكون كمثله ... فتُرصِد للأمر الذي كان أرصدا

(*) هذا الخبر محله بعد الهجرة ولكنه قُدم لتناسب موضوعه مع الموضوعين السابقين .

(١) السليم يعني اللديغ سمي بذلك تفاؤلاً ، والسهاد الأرق .

(٢) يعني حلف أن لا يعبأ بتعب ناقته ولا بتأثر أخفافها حتى يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) أغار يعني بلغ البلاد المنخفضة كتهامة ، وأنجد يعني بلغ البلاد المرتفعة كنجد .

فـإياك والمَيْـتَـات لاتقـربنَّهـا ... ولاتأخُذَنْ سهماً حديداً لتفصدا[1]
وذا النُّصُب المنصـوب لاتَنسُكنَّه ... ولاتعبـد الأوثان واللهَ فـاعبـدا[2]
ولاتقـربنَّ حـرة كـان سـرُّها ... عليك حـراماً فـانكحنْ أو تأبَّدا[3]
وذا الرحم القـربَى فـلا تقطعنَّه ... لعـاقبـة ولا الأسـيـر المقـيـدا
وسبح على حين العشيات والضحى ... ولاتحمـد الشيطان والله فاحـمـدا
ولاتسـخـرنْ من بائس ذي ضـراوة ... ولاتحـسبنَّ المال للمـرء مُـخلدا

قال: فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره فأخبره بأنه جاء يريد رسول الله ﷺ، فقال له: يا أبا بصير إنه يُحرِّم الزنى، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر مالي فيه من أرَب، فقال له: يا أبا بصير فإنه يحرم الخمر، فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني أنصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم، فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ[4].

وهكذا رأينا مثالاً من صد المشركين عن الإسلام، وهو مثال مغاير للأمثلة السابقة، حيث كانت تلك الأمثلة تقوم على تشويه سمعة النبي ﷺ باتهامه بالجنون والسحر والكهانة، وقد كانت هذه الاتهامات تقوم بدورها في السنوات الأولى من ظهور الدعوة الإسلامية، أما بعد أن انتشرت وعرف القاصي والداني أن رسول الله ﷺ يدعو إلى دين جديد، وأنهُ أكمل الناس عقلاً وأعظمهم أخلاقاً، فإن تلك الاتهامات لم تعد

---

(١) يعني لا تفصد العرق وتشرب الدم كما كان يفعل بعض أهل الجاهلية.
(٢) يعني لا تذبح على الحجارة للأصنام ولا تعبدها من دون الله تعالى.
(٣) سرها يعني نكاحها والتأبد التعزب واعتزال النساء.
(٤) سيرة ابن هشام ١/٤٠٦.

صالحة لصد دعوة الإسلام خصوصاً إذا كان الوافدون قد دخل الإعجاب بالإسلام قلوبهم، وأشادوا بذكره كهذا الشاعر المشهور.

لذلك لجأ الكفار إلى محاولة غزو الإسلام من داخله وذلك بعرض بعض أحكامه التي تقاوم شهوات النفوس التي تريد الانطلاق بغير حدود، فلذلك ذكروا للأعشى أن الإسلام يحرم الزنى وهم يعلمون صعوبة الإقلاع عن هذه الفاحشة لمن توغل فيها، ولما أجابهم بخواء نفسه من الرغبة في ذلك لكبر سنه ذكروا له فاحشة أخرى لايُقَلِّص من الرغبة فيها تقادم السن حيث يظل مدمنو الخمر متعلقين بها حتى يوافيهم الأجل، فكان ذلك كافياً لصد الأعشى عن الدخول في الإسلام.

لقد حاول الكفار بهذا أن يثيروا غرائز بعض المتوغلين في الشهوات ليصدوهم بذلك عن الإسلام، ولكن أنَّى لهم ذلك والحق نور أبلج، وأنوار الإسلام قد اكتسحت ظلمات الجاهلية.

فلئن استطاعوا أن يردوا بذلك أفراداً عن الإسلام من ذوي الاتجاه المنحرف والأنانية المفرطة، فلقد استطاع النبي ﷺ بتوفيق الله تعالى له، ثم بحكمته العالية، ومنطقه الرصين، ومحتوى دعوته المتين، أن يؤثر على جماعات من الناس من ذوي العقول الراجحة والأفكار النيرة.

وما هذه الشهوات التي يثيرها الأعداء إلا مظاهر للأنانية البغيضة، والغرائز الجامحة، التي تتحكم فيها العواطف المنحرفة، ولا تحكمها العقول السليمة.

وفي مقابل ما يقوم به الأعداء من وصم الإسلام بالمنع من هذه الشهوات المحرمة واستخدام ذلك في التنفير منه نجد رسول الله ﷺ مثلاً يبين عظمة الإسلام في تحريم الزنى كما روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: إنَّ فتًى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه مه، فقال رسول ﷺ: ادْنُه، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أتحبه لابنتك ؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبه لأختك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

فقد بين النبي ﷺ لذلك الفتى أن جريمة الزنى أنانية حاقدة، واعتداء مهين على أعراض الآمنين الذين لايرضونه لقريباتهم، من أمهات أو بنات أو أخوات أو عمات أو خالات، فإذا ارتكب المجرم هذه الجريمة فإنه لم يعتَدِ على المرأة وحدها وإنما اعتدى على جميع أقاربها، وإذا كان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٥٦-٢٥٧ .

الإنسان يغار على قريباته فإن الناس أيضاً يغارون على قريباتهم.

وهكذا تنوعت النظرة إلى الزنى حسب صحة القلوب ومرضها، فمرضى القلوب يرونه مفخرة يعتزون بها، كما يرونه عيباً في الإسلام الذي منعه، بينما يراه أصحاء القلوب جريمة تروع الآمنين من أصحاب العفة والصيانة، وتفسد المجتمع الصالح.

ولقد استطاع النبي ﷺ بهذه الموعظة الحكيمة أن يزيل الغشاوة عن عقل ذلك الفتى فأصبح يفكر بعقله السليم، فأخمد غريزته الجامحة التي استسلمت لنداء العواطف المنحرفة وأصبح يشعر باشمئزاز من الزنى بعدما كان أحب شيء إليه.

إن أعداء الإسلام يَعْرِضون أحكام هذا الدين التي نزلت لحماية الإنسان من تجاوزات نفسه الأمارة بالسوء، فيما ينتج عنه الإضرار بالنفس والغير.. يعرضونها مجردة عن فهم حِكَمِها العالية، ومقاصدها في تهذيب النفوس وتقويمها، وتخليصها من سلوكها المنحرف وتطهير المجتمع بأكمله من مصادر الضرر الواقع على العقول والأجسام والأموال.

وحينما تلامس هذه الدعاوى المغرضة نفوساً مشبعة باقتراف هذه المنكرات، خالية الذهن من تصور أخطارها المدمرة على مستوى الفرد والمجتمع فإن هذه الدعاوى يكون لها أثر بالغ في الصد عن الإسلام.

وهكذا نجد أعداء الإسلام في كل زمن يحاولون تنفير المجتمع من التأثر بدعوة المصلحين، بهذه السهام المسمومة وأمثالها، حيث يحاول

المصلحون رفع المجتمع الإسلامي من استعباد الشهوات لتنطلق عقول المسلمين في التفكير السليم نحو تكوين المجتمع السعيد في الدنيا، والمؤهل لنيل السعادة في الآخرة، ولكنهم يجدون من دعاة الإفساد الذين يحاولون الهبوط بالمجتمع نحو تلبية نداء الغرائز الحيوانية، وتكبيل العقول الحرة بالقيود التي تجعلها تسلم قيادها للعواطف المنحرفة.. يجدون من هؤلاء عنتاً وتعويقاً دائماً لكل مشاريع الخير والإصلاح.



١٧ - مثل من مساومة أهل الباطل وإصرار أهل الحق

لقد حرص زعماء الكفار على التأثير على النبي ﷺ ليترك دعوته أو ليتنازل عن بعضها مما يريدون منه، فمارسوا معه من أجل ذلك أنواعاً من الأذى، وجربوا معه ومع أتباعه فتنة التخويف، فلما لم ينجحوا في التأثير عليه تحولوا إلى فتنة التأليف فحاولوا مساومته بأنواع من المغريات الدنيوية في مقابل التنازل منه عما يغيظهم من دعوته.

وقد اجتمعوا يوماً فتشاوروا في أمره، واستقر رأيهم على إرسال واحد منهم لمحاورة رسول الله ﷺ وإغرائه بالمغريات المادية التي يتنافس الناس عليها عادة من أجل أن يتنازل عن تصلبه في دعوته، وأن يترك التعرض لأصنامهم وما استقر عليه أمرهم مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وقد انتدب لهذا الأمر عتبة بن ربيعة، وهو معروف عندهم بالحلم والتعقل.

أخرج الإمام البيهقي من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال أبو جهل والملأ من قريش: لقد انتشر علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره.

فقال عتبة: لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى علي إن كان كذلك، فأتاه، فلما أتاه قال له عتبة:

يا محمد أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبدالمطلب، أنت خير أم عبدالله ؟ فلم يجبه.

قال: فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كانت بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم.

فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون. وقالوا قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ومنْ بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون. قل أئِنَّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي مِنْ فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحِفْظاً ذلك تقدير العزيز العليم. فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقةِ عاد وثمود﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: (١-١٣).

فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه، فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لايكلم محمداً أبداً.

قال: ولقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته - فقص عليهم القصة - فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**كتاب فصلت آياته لقوم يعلمون**﴾ - حتى بلغ - ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب[1].

وأخرجه ابن إسحاق في السيرة من خبر محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه، وجاء في آخره: فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٣، ورواه الحاكم بنحوه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، وذكره الهيثمي من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه وقال: رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٩ - وحسن الشيخ الألباني إسناده - هامش فقه السيرة للغزالي/ ١١٣.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وهكذا قام عتبة بمحاورة رسول الله ﷺ ليؤثر عليه في التخلي عن دعوته أو ليخفف منها، فأتاه وناقشه وأراد أن يحرجه بالمفاضلة بينه وبين آبائه فلم يجبه النبي ﷺ لأنه يريد هدايته كما أن عتبة يريد إضلاله، فلو أجابه بالحكم على آبائه بالضلال لنفر منه، فكانت الحكمة تقتضي عدم الإجابة على سؤاله.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يقول لعتبة بل أنا أفضل من أبي وسائر أجدادي، ولو قال ذلك لم يَعْدُ الحقيقة لأنه سيد الخلق أجمعين، ولكنه بانشغاله بهذا الحوار الجانبي يتيح لعتبة فرصة الهجوم المضاد الذي يدفع إليه ما توارثه المشركون من تقديس الآباء والأجداد، وبذلك تضيع الفرصة الذهبية التي قصد إليها رسول الله ﷺ من محاولة هداية عتبة، خصوصاً وأنه قد جاء وحده وكلُّه رغبة في الوصول إلى تغيير الوضع القائم آنذاك.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٩ .

ولو أنه ﷺ أثنى على آبائه بما فيهم من صفات الخير من غير أن يفضلهم على نفسه لم يكن قد جاوز الحقيقة، ولكنه في ذلك يتيح الفرصة لعتبة لإلزامه بما يترتب على ذلك من اتباع دينهم، وهذا هو الأمر الذي استبعده النبي ﷺ ، فكان يريد إغلاق هذا الباب لينتقل إلى ما أراده من دعوته إلى الهداية.

وقد يقال: إن عدم الإجابة تعتبر اعترافاً بالعجز، ولكنها في الحقيقة غير ذلك لأن عدم الإجابة في مثل هذا الحوار تعني أن السؤال لا يستحق الإجابة لأنه ليس في صميم الموضوع، وهكذا فهم عتبة لمَّا أعرض عن متابعة لوازم ذلك السؤال وانتقل إلى سؤال آخر.

وفي هذا توجيه حكيم للداعية الذي يُبْتَلَى بالحوار مع الكفار وأشباههم ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم يحاربون دعوته ودعاته، وذلك بأنه يشرع له أن لايكون صريحاً معهم في إجاباته كلها، وأن لايلتزم بيان الحقيقة في الأمور الجانبية التي لاتشتمل على كتمان الحق، وهي في نفس الوقت تؤثر على حواره معهم ومستقبل دعوته، بل يُطلب منه أن يتجاوز هذه الأمور بما تقتضيه الحكمة وتقديرُ الموقف، ليخلص إلى صلب الموضوع الذي انبثق عنه الخلاف وعقد من أجله الحوار.

بل إن في هذا توجيهاً للدعاة في الحوار الذي يجري بينهم حيث يتجه بعض قصار النظر إلى إشغال ساحة الدعوة بالمفاضلة بين قادة الدعوة، فينتج عن ذلك تتبع لأخطائهم وتشويه لسمعتهم، مما يزيد من شقة الخلاف الدائر بين أتباع أولئك القادة، ويُشغِل عن بحث أمور المسلمين المهمة التي يجب أن يجتمع عليها الدعاة.

وبغضٍّ النظر عن الفارق الجوهري بين المشبه والمشبه به من حيث كونُ طرفي المفاضلة في المشبه من المسلمين، وكونُ أحد الطرفين في المشبه به من الكفار، فإن النتائج المترتبة على انتقاص بعض قادة الدعوة تؤدي إلي ما يشبه النتائج التي أرادها عتبة بن ربيعة في حواره المذكور.

ولما أمسك رسول الله ﷺ عن إجابة عتبة على الأسئلة المذكورة أدرك عتبة أنه قد أساء الأدب بإحراج النبي ﷺ في ذلك، وعتبة إنما جاء سفيراً عن قريش ليصل إلى أي حل يخفف من شدة الخلاف الدائر بينهم وبين المسلمين، وكونه يواجَهُ بالصمت من رسول الله ﷺ يعتبر هزيمة له أمام الملأ من قريش، فلهذا ضرب صفحاً عن ذلك الحوار، ولم يحاول إلزام النبي ﷺ بنتيجته مع مالاح في الأفق من مظاهر نجاحه المتخيلة.

وانتقل عتبة حالاً إلى عرض ما في جعبته من تلك العروض المغرية من المال والرئاسة وما شاء من الشهوات في مقابل أن يتخلى النبي ﷺ عن دعوته أو أن يفاوض المشركين في البقاء على دعوة لاتؤثر على دينهم الذي يقدسونه.

وهكذا عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ تلك العروض المغرية، فماذا كان جوابه عليه ؟

لقد كان جوابه بتلاوة آيات من كتاب الله تعالى كان لها الأثر الحاسم في إنهاء الحوار لصالح الإسلام.

وقد كان عتبة موصوفاً بالحلم والحكمة فكان رسول الله ﷺ يؤمل في إسلامه بعد سماع الآيات القرآنية.

ولقد تأثر عتبة من سماع كلام الله تعالى حيث وصف القرآن الذي سمعه بقوله «قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة» فأثبت أن القرآن لامثيل له، وهذا اعتراف منه بأنه ليس من كلام البشر، ثم نفى التهم الثلاث التي ألصقها قومه برسول الله ﷺ ووصفوا القرآن بها.

وكان في كمال عقله وإدراكه حينما أشار على قومه بترك رسول الله ﷺ وشأنه في الدعوة، وإثبات أن عزه يعتبر عزاً لقريش فيما إذا نجح في دعوته وساد العرب.

وهكذا حينما كان عقلاء قريش يرجعون إلى عقولهم يدركون عظمة هذا الدين وصدق رسول الله ﷺ وتميز ما جاء به من الوحي على كلام البشر، ولكنهم سرعان ما تغلبهم عواطفهم وأهواؤهم المنحرفة فينطقون بكلام لايعتقدون بقلوبهم محتواه، وإنما يدفعهم إليه الحسد والهوى المنحرف.

وفي هذا الخبر مثل من نجاح النبي ﷺ في اختيار الآيات المناسبة للمقام، كما أنه مثال لقدرته الفائقة في التأثير على السامعين بتلاوته كتاب الله تعالى حيث يتلوه بكل مشاعره وأحاسيسه وهو يستحضر عظمة الله تعالى الذي خاطبه وأمته بهذا القرآن العظيم.

وهكذا ينبغي للدعاة أن يهتموا باختيار النصوص المناسبة وأن يعرضوها بقلوبهم مع ألسنتهم مستحضرين عظمة الله تعالى وجلاله حتى يكون أبلغ في التأثير على المخاطبين.

لقد تأثر عتبة بسماع القرآن ومال إلى الإسلام ولكن أبا جهل عرف كيف يؤثر عليه بلمزه من الجانب الذي ينفره من الإسلام، فهو ممن يعتز بسمعته وجاهه، فاتهمه أبو جهل بأنه مال إلى رسول الله ﷺ من أجل أن يصيب من طعامه، وكان ذلك كافياً لإحداث أثر مضاد للأثر الأول، فأخذته الحَمِيَّة وأقسم أن لايكلم رسول لله ﷺ.

وهكذا رأينا في تصرف أبي جهل مثلاً من أمثلة الكيد والمكر التي يتقنها أعداء الإسلام ويخططون لها، حيث إنهم يقومون بدراسات دقيقة لمعرفة مداخل النفوس وإدراك مواطن الضعف فيها ليدخلوا إلى الإنسان من هذه المواطن.

ولما لم تُجْد محاولة عتبة بن ربيعة ولم تصنع شيئاً مما أراده زعماء مكة من صرف النبي ﷺ عن دعوته بتلك المغريات اتفق رأيهم على عقد اجتماع لمجموعة منهم ليقوموا جميعاً بحوار النبي ﷺ في هذا الموضوع، وقد أخرج خبر ذلك الإمام ابن إسحاق من حديث سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر ابن الحارث بن كَلَدة أخو بني عبدالدار، وأبو البَخْتَري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجّاج السَّهْميّان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم.

قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا فيه[1]، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بَدَا لهم فيما كلّمهم فيه بَدَاءٌ[2]، وكان عليهم حريصاً يحب رشدَهم ويعزّ عليه عَنَتُهم[3] حتى جلس إليهم؛ فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدْخل على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعبت الدين، وشتمتَ الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيح إلا قد جئتَه فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تَطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا[4]، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً- فربما كان ذلكَ بذلنا لك من أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه. أو نُعذِر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم ولكنّ الله بعثني

---

(١) أي تبلغوا منه العذر.
(٢) أي ظهر لهم في شأنه أمر.
(٣) يعني مشقتهم.
(٤) نجعلك سيداً.

إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنياوالآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم - أو كما قال رسول الله ﷺ

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عَرَضْناه عليك فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بلداً، ولا أقلّ ماء، ولا أشدّ عيشاً منّا، فَسلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنّا هذه الجبالَ التي ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يَبْعثُ لنا منهم قصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخَ صدْق، فنسألهم عما تقول: أحقّ هو أم باطل فإن صدّقوك وصنعتَ ما سألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بَلَّغْتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْه فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً -أو كما قال- فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كِسَفاً[1] كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنّا لانؤمن لك إلا أن تفعلَ، قال: فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، أفعلم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبداً فقد أعْذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لانتركك وما بلغتَ منّا حتى نُهْلكك أو تُهْلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً[2].

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبدالمطلب فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم

---

(١) جمع كسفه بكسر فسكون بمعنى القطعة من الشيء.

(٢) مقابلة ومواجهة بحيث نراهم عياناً.

تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله - كما تقول - ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل - أو كما قال له- فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلّما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايْمُ الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً؛ لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوْه، ولِمَا رأى من مباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون : من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر ما أطيق حمله - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لانُسْلمك لشيء أبداً، فامضِ لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو. وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلتُه إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سَجَد

رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجَع منهزماً مُنْتَقَعاً[1] لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده.

وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت عَرَضَ لي دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثلَ هامته، ولا مثل قَصَرته[2] ولا أنيابه لفحْل قطُّ، فهمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه.

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي[3] فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السَّحَرَة ونفثهم وعقدهم، وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورَجزه، وقلتم

---

(١) يعني مصفراً متغيراً وهو على زنة اسم المفعول من انتقع المبني للمجهول ويقال بالميم أيضاً.
(٢) القصرة بفتحات أصل العنق.
(٣) قال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدَة بن عبد مناف.

مـجنون، لا والله مـا هو بمـجنون، لقـد رأينا الجنون فـمـا هو بخنقـه، ولاوسوسته، ولاتخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم[1].

هذا وإنا لنجد في هذا النص مثلاً من حرص النبي ﷺ على إسلام قومه حيث علم باجتماع أشرافهم فسارع إليهم ليجدد دعوتهم إلى الدين الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة بالرغم مما نالوا منه من الأذى، وفي هذا دلالة على لزوم استصحاب الرغبة في هداية الناس وإن سبقت منهم مواقف مؤذية لصاحب الدعوة أو لأتباعه، لأن دعوة الإسلام لاتقوم على الرغبة في الانتقام من الأعداء، وإنما تقوم على الرحمة الشاملة بجميع الناس، والرغبة الملحة في هداية الضالين، وانتشالهم من الدرك السحيق الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

فالداعية الحق ينظر إلى من يقومون بأذيته وتعذيبه نظرة إشفاق ورحمة، ويتمنى من قرارة قلبه أن ينقذهم من الهلاك الذي ترددوا فيه وأن يحميهم من السلوك الذميم الذي ساروا فيه.

إن الداعية وهو يتلقى الأذى من المدعوين يشعر بأنه يكتسب عملاً صالحاً بالصبر على أذاهم، ولكن عليه أيضاً أن يشعر بأن الذين يقومون بإيذائه وصدّ دعوته يكتسبون عملاً سيئاً وسيحاسبون عليه يوم القيامة،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٣٠٠، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله - تفسير الطبري ١٥/ ١٦٦ - وذكره الحافظ ابن كثير وسكت عنه - البداية والنهاية ٣/ ٤٨ -.

وأن يعلم أن محاولة هدايتهم عمل صالح يضاف إلى العمل السابق، فإذا صبر على أذاهم ثم قام بمحاولة هدايتهم يكون قد جمع بين عملين صالحين.

ونجد في هذا النص أن المشركين بدءوا حوارهم مع النبي ﷺ بالهجوم عليه في دعوته حيث اتهموه بشتم آبائهم وعيب دينهم، وتسفيه أحلامهم، وشتم آلهتهم وتفريق جماعتهم، وأنه اقترف معهم كل قبيح.

وهذا الهجوم يقصدون من ورائه إضعاف شخصيته وإرباك موقفه حتى يقبل منهم واحداً من عروضهم التي سيعرضونها عليه.

وقد عرضوا عليه أموراً ثلاثة : أحدها يتعلق بحب المال، والآخَرَين يتعلقان بحب الجاه، فعرضوا عليه أولاً أن يجمعوا له من أموالهم حتى يكون آكثرهم مالاً إن كان من الذين يستهويهم جمع المال واقتناؤه، أو أن يسودوه عليهم فيكون سيد قبيلتهم، أو أن ينصبوه ملكاً عليهم إن كان ممن يستهويهم الشرف والجاه.

وبهذا يكونون قد حققوا أعلى درجات الشرف والجاه له إن كان ممن يحبون المسؤلية، أو الغنى الكبير بدون نصب وعناء بجمع المال إن كان ممن لايحبون تحمل المسؤلية.

وهـذه عروض مغرية حقاً لأصحاب الدنيا لأن الهدف الأعلى الذي يسعى له طلاب الدنيا يتلخص في طلب المال أو الجاه أو طلبهما معاً .

وفي هذا العرض الثاني والثالث يبدي زعماء قريش استعدادهم للتنازل عن منهجهم في الحكم والسيادة من أجل رسول الله ﷺ إن وافق على طلبهم، وذلك أن قبائل العرب عامة لاتعرف الحكم الذي يقوم على الملك كما هو الحال في دولة الفرس والروم ، وإنما كانوا يسوِّدون رجلاً منهم تجتمع له خصال الشرف التي اتفقوا عليها، وقد يسوِّدون أكثر من واحد كما هو الحال في مجتمع مكة آنذاك .

وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يجمعوا له السيادة فيكون سيداً على جميع فروع القبيلة بدلاً من أن يكون لكل فرع منها سيد، وإذا كان هذا لايقنعه ولا يرضي طموحه فلا مانع لديهم من تمليكه عليهم بحيث يحكمهم كما يحكم ملوك الفرس والروم، وذلك أقوى في التمكين وأبلغ في الزعامة من مجرد السيادة .

هذا وإن استعداد زعماء قريش على تحمل هذا الأمر الذي يخالف ما تعارف عليه العرب آنذاك يدلنا على بعد الشقة بينهم وبين رسول الله ﷺ وأن انقيادهم إليه بشكل جماعي على أنه رسول من عند الله تعالى وتغيير دينهم أمر بعيد الاحتمال .

وقد سبق عرض تلك العروض على رسول الله ﷺ من عتبة بن ربيعة، وإن كان عتبة قد أضاف عرضاً جديداً على رسول الله ﷺ وهو أن يزوجوه عشر نسوة يختارهن من قريش، وهذا العرض في الحقيقة داخل في عرض تمليك المال حتى يكون أغنى رجل في قومه لأن صاحب الغنى يستطيع أن يحصل على ما يريد من الشهوات.

هذا وإن في إعادة عرض هذه المغريات من زعماء قريش دليلاً على أنهم لم يفهموا بعدُ حقيقة دعوة رسول الله ﷺ التي تقوم أساساً على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، فإذا كان باستطاعة أولئك القوم أن يَعِدوا المسلمين بالحياة السعيدة في الآخرة القائمة على الظفر بالجنة والنجاة من النار فإنهم يستطيعون التأثير عليهم ! .

ولكن أنَّى ذلك للمسلمين أنفسهم، بل أنى ذلك للأنبياء عليهم السلام ! لأن الذي يملك ذلك الفضل الكبير هو الله تعالى وحده، وإنما مهمة الأنبياء عليهم السلام ومن اقتدى بهم من الدعاة هي أن يهدوا الناس إلى الطريق الموصل إلى هذه السعادة.

وهكذا يحاول عبثاً دعاة الباطل على مر الزمان، حيث يكررون عروضهم المغرية على الدعاة الصادقين في دعوتهم، فيخسروا بذلك وقتهم وجهدهم.

وقد يُطمعهم في الاستمرار على هذا المنهج ما يرونه من سقوط بعض الدعاة في أثناء المعركة الدائرة بينهم وبين أعداء الإسلام، حيث ينجح الأعداء في تحجيم هؤلاء الدعاة وتجميد نشاطهم، أو تحويل هذا النشاط إلى عمل مضاد لاتجاه الدعوة الإسلامية.

ومما يلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ رفض أن يكون ملكاً على أهل مكة، وقد يتعلق بذلك من يرى عدم ضرورة قيام الدولة الإسلامية، خصوصاً مع ملاحظة أن النبي ﷺ لو تولى زعامة قريش وحلفائها لكان أعظم قدرة على بث دعوته لأنه والحال هذه يستطيع أن يفرضها من خلال سلطته وهيمنته على البلاد.

والجواب على ذلك أن زعماء قريش لم يتنازلوا لرسول الله ﷺ عن زعامتهم حقاً، وإنما أرادوا منه أن يتنازل عن دعوته إلى التوحيد في مقابل زعامة وهمية يخضعونه بها لمبادئهم الجاهلية بينما هم لا يخضعون لدعوته، والحقيقة أن الذي يحكم هي المبادئ، والرجال من وراء تلك المبادئ منفذون، فإذا بقيت مبادئهم الجاهلية - وهو المطلب الذي أصروا عليه - فهي التي تحكم، وأي زعيم ينَصَّب في ظلال تلك المبادئ فإنه يكون خاضعاً لها، وهذا يعني أن يتنازل رسول الله ﷺ عن دعوة التوحيد في مقابل قبوله هذا العرض السخي في نظر أهل الدنيا، ولذلك كانت استجابة النبي ﷺ لهم أمراً مستحيلاً.

لقد كانت تصريحات زعماء المشركين تبين استحالة أن يسندوا زعامتهم لرسول الله ﷺ مع بقائه على كامل دعوته، ومن ذلك ما سبق

في خبر أبي جهل من قوله : «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكَب وكنا كفَرسَي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟» .

فهذا دليل على أن المطلب الكبير الذي يتنافسون عليه هو السيادة على مكة، ولكنهم مع هذا أبدوا استعدادهم للتنازل عنها لرسول الله ﷺ لو تخلى عن دعوته أو بعض ما يدعو إليه، أما في حال إصراره على دعوته إلى التوحيد فإن تنازلهم له عن ذلك يكون أمراً مستحيلاً .

أما قيام الدولة الإسلامية فإنه أمر ضروري لقيام الدين عند القدرة على ذلك، ولهذا أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في المدينة يوم أن هاجر إليها وأصبح قادراً على ذلك، وكونه رفض السلطة الوهمية التي عرضها عليه زعماء مكة لايعني عدم اهتمامه بإقامة دولة الإسلام، وإنما كان هذا السلوك منه تسديداً من الله تعالى له ، وفهماً ثاقباً منه لمقاصد الكفار الماكرة التي أرادوا بها أن يقضوا على دعوته .

ثم إنهم بعد هذه العروض الثلاثة عرضوا عليه أن يبذلوا المال في طلب الطب له إن كان الذي حمله على مخالفة قومه والإصرار على ذلك تأثر ضاغط بسبب هيمنة الجن عليه .

وكأنهم يقولون له إن لم تكن أهدافك من هذه المخالفة أن تصبح أغنى رجل في قومك، أو أن تكون لك السيادة المنفردة عليهم جميعاً فإنه لايتصور أن يدفعك إلى دعوتك تلك إلا الانقياد القسري لأصحاب

الهيمنة من الجن، ومن هذا المنطلق اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون كما سبق.

هذا وبالرغم من كون تلك العروض الثلاثة مغرية جداً خاصة العرض الثالث الذي سيجعل رسول الله ﷺ الملك الوحيد في بلاد العرب.

وبالرغم من كون المقابل لذلك فيما إذا رفض تلك العروض أن يكون متهماً بين قومه بالجنون فإن النبي ﷺ قد رفض بكل إباء وعزة جميع تلك العروض المغرية وأصر على لزوم دعوته التي اجتمع أولئك الزعماء من أجل القضاء عليها.

لقد كان جواب رسول الله ﷺ جواب المستسلم لأمر الله تعالى الثابت على مبدئه السامي حيث قال لهم: «ما بي ما تقولون وما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وهذا الكلام يعتبر نهاية الاستسلام لله عز وجل وغاية التوحيد، حيث أشعرهم بأنهم إن أظهروا شيئاً من التحدي والتعجيز فإنما يواجهون الله تعالى بذلك، فالحرب حقيقةً قائمة بينهم وبين الله تعالى، ولن يفلح من جعل نفسه في مواجهة مع الله جل وعلا، فالأمر لله تعالى وحده من

قبل ومن بعد، وإنما الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ومنفذ لشريعته على الوجه الأكمل، فليس طالب دنيا ولا طالب جاه، ولايملك أن يتنازل عن دعوته ولا بمعشار ما طلبوا منه ولا بما هو أقلُّ من ذلك، لأنه ليس مستقلاً بهذا الأمر حتى يفاوض عليه حسب ما يمليه عليه اجتهاده المصلحي، وإنما هو رسول مبلغ عن الله تعالى منفذ لشريعته.

وفي هذا درس بليغ لأهل العلم الديني الذين يواجَـهُـون بشيء من التحدي والعداء من الكفار والمنافقين، والذين يضع المسلمون ثقتهم بهم في فهم هذا الدين وتبليغه، ليكون شعورهم وتفكيرهم حاضراً مع الله تعالى حينما يُسألون ويجادلون، وليكون فهمهم مقصوراً على كونهم مبلغين عن رسول الله ﷺ ومشرفين على تنفيذ شريعة الله تعالى كما شرع، وأن لايداخلهم شيء من حب الظهور والتفوق الفكري غير المنضبط بشريعة الله جل وعلا.

فإذا كانوا مع الله تعالى وتصوروا أن الله معهم في معركتهم مع الأعداء، وأنه مطلع على مكنونات ضمائرهم فإن ذلك يعصمهم بإذن الله تعالى من الزلل، ويمنحهم دُفُعات من القوة والصمود في وجه الأعداء.

لقد كان رسول الله ﷺ وهو يحاور الأعداء موصولاً حبله بالله عز وجل، ولم يكن في قلبه شعور بأي قوة في الأرض، وكان يستلهم من الله تعالى الثبات والقوة بقدرِ ما كان يتلقى الوحي الإلهي الذي يحاور المخالفين على قبسات أنواره.

وإذا كان النبي ﷺ قد اختُصّ بالوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن ممثلي العلم الديني لم يَعْدموا هذا النور الذي سار على ضوئه الساطع ورثة النبي ﷺ على مر العصور، بل هو بين أيديهم قد اكتمل قبل لَحَاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كما في قوله تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[1].

فما عليهم إلا أن يلتزموا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، بعد أن يوثقوا صلتهم بالله عز وجل، وأن يَشْعُروا بحضوره معهم بعلمه في كل ندواتهم وجلساتهم، بل في كل همساتهم وخطرات قلوبهم.

هذا وإن في رفض النبي ﷺ من الكفار عروضهم المغريةَ من الملك والمال ردًا بليغا على أعداء الإسلام الذين فسروا الدعوة الإسلامية بأنها ثورة من الفقراء على الأغنياء الكبراء فلو كانت كما زعموا لكان في تحقق هذه العروض المغرية الوصولُ الكامل للمقاصد والأهداف التي دفعت إلى تلك الثورة.

ولو كانت كما زعموا لما رأينا في تلك الفئة المسلمة أغنياء في غاية الغنى والترف كعثمان بن عفان ومصعب بن عمير، ومن هم دونهم في الغنى ولكنهم يفوقونهم في الشهرة والمكانة كأبي بكر وعمر، إذ أن المنطق الصحيح - لو كان الأمر كما زعموا - أن يكون هؤلاء في صف أهل الغنى والزعامة القبلية.

---

(١) سورة المائدة: آية (٣).

ولقد بيَّنتْ أحداث الهجرة بعد ذلك الهدف السامي الذي ضحى من أجله المسلمون حيث تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

هذا ولقد بدأ الكفار مع رسول الله ﷺ بفتنة الأذى والتخويف كما سبق، فلم يثنه ذلك عن عزيمته، وظل صامداً في دعوته، فلما لم يُجْدِ معه هذا النوع من الفتنة تحولوا إلى فتنة التأليف، فعرضوا عليه هذه العروض الكبيرة.

وهكذا الكفار في كل زمن يحاولون فتنة دعاة الإسلام بهذين النوعين ليتحولوا عن دعوتهم، أو ليقْبَلوا المداهنة، وذلك بالتنازل عن بعض ما يدعون إليه حسب ما يريده الأعداء.

وإن للدعاة إلى الله تعالى لأسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث لم يخضع لفتنة الكفار، سواء في مجال التأليف أو في مجال التخويف.

وهل عُرض على داعية أن يكون ملكاً على قومه كما عرض على رسول الله ﷺ؟!.

لقد عُرض على بعض الدعاة لعاعةٌ من الدنيا فسارعوا إليها وتخلوا عن دعوتهم، أما رسول الله ﷺ فقد ظل ثابتاً على طريقه المستقيم ولم تخطر له الدنيا ببال.

ونجد في نهاية هذا الخبر أن المشركين لما يئسوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى صفهم والتأثير عليه ليترك دعوته أو ليخفف منها لجئوا إلى

أسلوب التعجيز في المطالب ليحاولوا إفحامه وإظهاره بمظهر العاجز عن تحقيق مطالبهم، وهذا في نظرهم يتعارض مع كونه رسولاً من عند الله جل وعلا، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يزيح عنهم جبال مكة التي ضيقت بلادهم، وأن يفجر لهم أنهاراً كأنهار الشام والعراق وأن يبعث لهم آباءهم ليسألوهم عن دعوة الإسلام هل هي حق أم باطل؟ وأن يبعث مع الرسول ﷺ مَلَكاً يصدقه فيما يقول، وأن يسأل ربه أن يجعل له جِناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة حتى يكون من أغنى الأغنياء.

وقد أجابهم النبي ﷺ في كل ما سألوا ببيان مهمته الكبرى وهي تبليغ رسالة الله تعالى وبيان ما ينتظرهم من سعادة في الدنيا والآخرة إن آمنوا، وإن ردوا دعوته فما عليه إلا الصبر، والأمر بيد الله تعالى يحكم بينه وبينهم.

كما بين أن تحقيق المطالب المذكورة ليس مما بُعث به وإنما بعث لإخراجهم من الظلمات إلى النور لو كانوا يعقلون.

ونجد في هذا الخبر مثلاً من لجوء الكفار إلى التعنُّت في المطالب التي لايقصدونها لذاتها، وإنما هي لتعجيز النبي ﷺ، ومحاولة صرف الناس عنه فيما إذا لم يحقق لهم هذه المطالب.

وهذه المطالب التي تشبه الخيال تحكي واقعاً فكرياً مضطرباً يعيش فيه أولئك الكفار، حيث قد أفلس رصيدهم الفكري من الحجة والبرهان، ورأوا إقبال قومهم على اعتناق الإسلام على مختلف طبقاتهم، فصاروا يتخبطون في متاهات من الفكر لايقبلها العقل السليم.

وقد نزل في الجواب على مطالب هؤلاء وأمثالها الآيات التالية من سورة الإسراء، قال تعالى **﴿وما منَعَنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مُبْصرةً فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾**[1].

وقال تعالى **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكونَ لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لِرُقِيِّك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا﴾**[2].

وهكذا كان توجيه الله تعالى نبيه ﷺ إلى الجواب بهذه الجملة الموجزة البليغة **﴿سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾** ، وقد تضمنت التعجب الإنكاري من مطالبهم المتعنتة القائمة على حب المغالبة وكسب القضية لصالحهم ولو خرجوا من منطق العقل السليم.

كما تضمنت بيان طبيعة النبي ﷺ التكوينية، فهو بشر، وليس من طبيعة البشر أن يتمكنوا ذاتياً من تحقيق هذه المطالب.

كما تضمنت بيان مهمة الرسول ﷺ في هذه الحياة، وهي أنه رسول من عند الله تعالى، يبلغ رسالته، ويقيم الحجة على الناس بذلك، وينفذ

---

(١) الإسراء: (٥٩).
(٢) الإسراء: (٩٠- ٩٣).

شريعة الله جل وعلا، فإذا فعل ذلك فقد أدى مهمته بنجاح، وليس للمخالف أن يطالبه بما هو فوق مقدرته كبشر، ولا بأن يتجاوز ما حدد الله تعالى له كرسول.

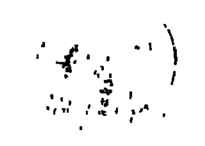
ولقد تبين كذبهم في ادعاء قبول الإسلام لو تحققت لهم هذه المطالب في نفس ذلك المجلس الذي طلبوها فيه حيث قال أحدهم وهو عبدالله ابن أمية لرسول الله ﷺ - بالرغم من كونه ابن عمته - : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك.

وهذه المقالة تعتبر مثلاً من واقع المشركين الذي بينه الله تعالى بقوله: **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يعرُجون. لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾**[1].



(١) سورة الحجر: (١٤-١٥).

الفهرس



السيرة النبوية

٢

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع ٥٦٣٢ / ٩٧
الترقيم الدولى 977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر



تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

١ - مثل من ثبات النبي ﷺ

(شكوى قريش لأبي طالب)

لقد كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله سرًّا في بداية بعثته إلى أن اجتمع حوله عدد من أصحابه فأمره الله تعالى بأن يجهر بالدعوة ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ [الحجر ٩٤] وأمره بأن يبدأ بإنذار أقاربه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء ٢١٤] فأنذر وبشر وجمع بين الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر ، الدعوة إلى عبادة الله وحده والتخلق بمكارم الأخلاق ، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام التي هي أعظم المنكر وكذلك التخلي عن مساويء الأخلاق .

فلما عاب أصنام المشركين وسفه أحلامهم بعبادتها عرفوا أنه لن يَبْقَى على ما هو عليه من دينه ويتركهم على ماهم عليه من المنكر فناصبوه العداء وحاولوا تفريق المؤمنين بدعوته بكل ما أوتوا من قوة وحيلة .

ولما رأوا صلابة إيمان أتباعه وأن أمره صار ينتشر بين جميع طبقات المجتمع بسرعة وقوة حاولوا التأثير عليه ليترك دعوته أو يغير من أسلوبها في النكير عليهم وتسفيه أحلامهم . . حاولوا ذلك بالترغيب أحياناً وبالترهيب أحياناً أخرى ولكن حال دون وصولهم إلى أغراضهم صلابته في إيمانه وعطف عمه أبي طالب عليه ودفاعه عنه وتهديده لقريش إن وصلوا إليه بالأذى .

فلما رأى كفار قريش أن محمداً ﷺ لن يهون أمام تهديداتهم ولن يلين أمام إغراءاتهم وأن عمه أبا طالب قد قام دونه وحماه ، وأن أتباعه يتمسكون بدعوته بقوة ويزيد عددهم بسرعة ذهب بعض أشرافهم إلى عمه أبي طالب لبيان أمره والشكوى منه .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه [1] وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون .

وحَدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لايرده عنه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايُعتبهم [2] من شيء انكروه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدبَ عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب - وذكر أسماءهم - فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا

---

(١) أي شق ذلك عليهم .
(٢) أي لايزيل عتبهم بالرجوع عما أنكروه .
(١) أي ظهر له فيه رأي جديد .

وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه .

قال : ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب الهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يَهلَك أحد الفريقين – أو كما قالوا – ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خذلانه .

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّث أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له فَأَبْقِ عليّ وعلى نفسك ولاتُحَمِّلني من الأمر ما لا أطيق .

قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه

فيه بَداء [1] وأنه خاذله ومُسْلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال له رسول الله ﷺ : ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته

قال : ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي، قال : فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً [2] .

وأخرجه الأئمة البخاري في التاريخ الكبير والحاكم والبيهقي ، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وأبي يعلى بنحوه ، كلهم من حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه أن النبي ﷺ حلّق ببصره إلى السماء فقال : فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة ، فقال أبو طالب : والله ما كذّبتُ ابن اخي قط فارجعوا .

---

(١) أي ظهر له فيه رأي جديد .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦١ - ٢٦٤ .

وقال الحافظ الهيثمي : ورجال أبي يعلى رجال الصحيح [1] وذكره الحافظ ابن حجر وقال : هذا إسناد صحيح [2] .

في هذا الخبر بيان لشدة المواجهة وعنف المقاومة التي كان رسول الله ﷺ يلقاها من قومه ، حيث استخدم أشراف قومه مختلف الوسائل للتأثير على عمه أبي طالب ليرفع عنه حمايته ، فذكَّروه بشرف الآباء والأجداد وهو من المقتنعين بالتمسك بما عليه الأسلاف وذكروه بقدسية الآلهة وهو ممن يعظمونها ، ثم هددوه بالحرب بينهم وبينه وهو ممن يكره ذلك ، كما حاولوا التلطف معه بالثناء عليه فذكروا شرفه ومنزلته فيهم ليؤثروا عليه فيستجيب لشكايتهم .

ولقد كان موقفاً صعباً ومحرجاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقع عمه الذي ناصره وحماه في هذا المأزق المحرج ، حيث بقي أبو طالب في حيرة من أمره فهو لا يريد أن يباديَ قومه بالعداء ولكنه أيضاً لا يريد أن يُسْلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا أن يخذله ، ولكن إخراج عمه من هذا المأزق يقتضي أن يتنازل عن دعوته وأن يوافق الكفار على تعظيم الأصنام وتفخيم ميراث الآباء وهذا أمر مستحيل ، لذلك كان موقف النبي ﷺ حازماً وحاسماً حينما استدعاه عمه وفاوضه

---

(١) التاريخ الكبير ٧/ ٥١ رقم ٢٣٠ ، المستدرك ٣/ ٥٧٧ ، دلائل النبوة للبيهقي ، ٢/ ١٨٦ - ١٨٧ ، مجمع الزوائد ٦/ ١٤ .

(٢) المطالب العالية ٤ / ١٩٢ رقم ٤٢٧٨ .

في التنازل عن دعوته الكاملة إبقاء عليه وعلى نفسه ، حيث بين لعمه أن هذا مستحيل كاستحالة إنزال الشمس والقمر ووضعهما في يديه صلى الله عليه وسلم .

وإن هذا لموقف عظيم من رسول الله ﷺ حيث وقف وهو في قلة من أنصاره يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم وغناهم ومكانتهم العالية في العرب ، وقد بين صلابته في التمسك بهذا الدين ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف ، ومهما وُضع في طريقه من عقبات ، وأنه على استعداد كامل لأن يقدِّم نفسه رخيصة في سبيل هذا الدين ، فضرب بذلك المثل العالي لأمته والقدوةَ الكاملة للدعاة إلى الله تعالى في تسخير نفسه بكل طاقاتها لخدمة دعوته ولو أدى ذلك إلى هلاكها .

فليسر على دربه المؤمنون المتقون في بذل الجهد في الدعوة وتحمل كل ما يواجههم من صعوبات ونكبات فإن لهم فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

هذا وإن تلك الدموع الغالية التي تحدرت من عيني رسول الله ﷺ تبين لنا خطورة الموقف وصعوبة الأمر عليه ، حيث كان بين أمرين كل واحد منهما شاق على نفسه ، لكن إيقاع عمه في الحرج أهون عليه كثيراً من التنازل عن دعوته ، بل لا مقارنة بين الأمرين لأن أحدهما صعب والآخر مستحيل .

وإنه من أجل الخروج من هذا المأزق وإصدار القرار السامي الذي لاخيار له فيه فإنه لابد لصاحب النفس الكريمة التي بلغت نهاية الكمال البشري في السمو الأخلاقي أن يعبر عن أساه وأسفه لصاحب المعروف الكبير عليه أن أوقعه في حرج كبير وأدخله في معركة حامية مع قومه ، في الوقت الذي كان يتوسل إليه أن لايوقعه في ذلك ، فكانت الدموع الزكية أبلغ تعبير عن ذلك الأسى والأسف .

إن دموع فحول الرجال الأشداء غالية ، وتكون أشد غلاء حينما تنحدر من عيني من بلغ الكمال في كل معاني الرجولة ، وإن غلاء تلك الدموع ليصور لنا جسامة المسئولية التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم واستهان من أجلها بكل ما تعارف عليه البشر من الأخلاق والأعمال التي تتعارض معها .

* * *

٢ - مثل من تضحية الصحابة بأنفسهم في سبيل الله

(استعداد الزبير للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عروة بن الزبير أنه قال : إن أول رجل سل سيفه في الله الزبير بن العوام ، نفخة نفخها الشيطان : أُخذ رسول الله [١] فخرج الزبير يشق الناس بسيفه والنبي ﷺ بأعلى مكة ، قال مالك يازبير ؟ قال : أُخبرت أنك أُخذْتَ قال : فصلى عليه ودعا له ولسيفه [٢] .

فهذا مثال للشجاعة والتضحية بالنفس ، فحينما سمع الزبير صوتاً يفيد بأن النبي ﷺ قد أُخذ حمل سيفه وخرج يبحث عنه لينقذه ويحميه ، وقد جاء في هذه الرواية أن ذلك الصوت نفخة من الشيطان ، وذلك ليرعب المسلمين ويوقعهم في الاضطراب والحيرة .

وقد دعا له النبي ﷺ ولسيفه على هذه التضحية النبيلة ، وما أبلغه من جزاء ، وما أنفسه من مكافأة ! .

ولقد ظل الزبير بن العوام رضي الله عنه حياته كلها مثالاً عالياً للشجاعة والمغامرات الجريئة في سبيل خدمة هذا الدين العظيم .

إسناده إلى عروة بن الزبير .

وأخرجه الحاكم بإسناده عن عروة وذكر مثله ، وسكت عنه هو والذهبي - المستدرك ٣/ ٣٦٠-٣٦١ .

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٠ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن

٣ - نموذج من الجرأة في قول الحق والثبات على الشدائد

(ابن مسعود يتحدى الكفار)

حينما يكون الإيمان بالله تعالى قوياً يقدم صاحبه على تجشم الصعاب واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين الذي آمن به وخالطت محبته شغاف قلبه ، فتبرز قوة الإيمان ، وتتفوق - رغم قلة العدد وضعف الإمكانات المادية - على كثرة العدد ووفرة القوة المادية .

فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أحد علماء الصحابة الذي انتشر الإسلام على أيديهم وخرَّجوا أجيالاً من العلماء بالدين ، نجده يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم ودولتهم ، وهو الضعيف من ناحية العشيرة ، فيجهر بالقرآن أمامهم في المسجد الحرام ، ولم يكن يستطيع الجهر به آنذاك إلا رسول الله ﷺ لقلة عدد المسلمين وشدة الضغط عليهم من الكفار .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان ذلك : وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : كان أول من جهر بالقرآن - بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال : اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يُجْهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد

رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني فإن الله سيمنعني .

قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ رافعاً بها صوته ، ﴿ **الرحمن ، علّم القرآن** ﴾ قال : ثم استقبلها يقرؤها .

قال : فتأملوا فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ - وكانت هذه كنيته - قال : ثم قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ، قالوا : لا ، حسبك أن قد أسمعتهم ما يكرهون[1] .

وهكذا نجد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في أول الإسلام هو أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة المكرمة بعد رسول الله ﷺ ، بالرغم من كونه لاعشيرة له تحميه من أذى المشركين ، ونجد في هذه

إسحاق به وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٤ .

(١) اسمه أنيس كما في الروايات الأخرى .

(٢) معطوف على الهاء في رأيته وهو مضمن معنى السماع يعني وسمعته يقول

القصة أن إخوانه المؤمنين يذكّرونه بذلك ، ويبينون له خطورة الأمر بالنسبة له ، ولكنه يصر على أن يجهر بالقران أمام زعماء قريش ، ويقول لإخوانه : دعوني فإن الله سيمنعني ، ونجد عبد الله بن مسعود بهذا الموقف يضرب مثلاً عاليا في التوكل على الله تعالى .

وإذا عظم ذكر الله سبحانه في قلب المؤمن هان عنده كل شيء ، فقد هان هؤلاء الكفار على ابن مسعود بالرغم من شراستهم وتحزبهم ضد دعوة الحق ، فتحداهم بما يكرهون ، وذلك لأن وجود الإيمان بالله عز وجل في قلبه كانت نسبته عالية جداً ، بينما كان وجود هيبة الكفار في قلبه ضئيلاً جداً ، فأقدم على مواجهتهم بذلك .

وبهذا نعلم أن الرهبة من أعداء الإسلام تتضخم في قلب المسلم بقدر تضاؤل وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه ، بينما تتضاءل رهبته منهم بقدر قوة إيمانه بالله تعالى وهيمنة هذا الإيمان على مشاعره وسلوكه .

وحيث إن ثقة ابن مسعود رضي الله عنه بالله كانت عالية ، وتوكله عليه كان عظيماً ، فإن الله تعالى منعه من الكفار فلم يقتلوه بالرغم من أنه لا عشيرة له تحميه ، وإنما اكتفوا بتفريغ غضبهم منه بضربه على وجهه ، ورجع منهم مظفراً منصوراً ، قد نال بغيته بالجهر بينهم بتلاوة كتاب الله تعالى .

وقد تكوّن لديه رضي الله عنه من هذا الموقف الشجاع قدر عال من الإيمان بالله تعالى ، إلى جانب ما تضاءل في نفسه من هيبتهم ،

فأصبح مستعداً لتحديهم مرة أخرى ، حيث قال لأصحابه ، ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا .

وهكذا نجد أن الشجاعة في قول الحق تقوي الإيمان بالله تعالى ، وتضعف من هيبة الأعداء ومكانتهم .

وبتأمل هذه القصة نجد مثلاً واضحاً للحجر الفكري الذي فرضه زعماء الكفار على المسلمين بمكة ، حيث لم يكن أحد منهم يجرؤ على الجهر بالقرآن غير رسول الله ﷺ ، وهذا دليل على إفلاس حجتهم ، وضعف معنويتهم ، حيث لايستطيعون مقاومة الحجة بمثلها ، فيلجئون إلى محاولة الحجر على الحق بالقوة باعتبار أنهم كانت لهم الهيمنة آنذاك على مكة .

وهذه طريقة فاشلة ، فإن الحق لابد أن يظهر مهما حاولوا تطويقه بما لديهم من قوة وجبروت ، وقد ظهر الحق شيئاً فشيئًا إلى أن قضى على آخر معقل من معاقل الباطل ، وصارت الدولة للإسلام والمسلمين ، ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نورَه ولو كره الكافرون** ﴾ [1] .

﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [2] .

* * *

(١) سورة التوبة آية ٣٢ .

(٢) سورة الاسراء آية ٨١ .

٤ ـ إسلام أبي ذر وتحدي الكفار

من هذه النماذج الحية في القوة والثبات على الدين ما كان من أبي ذر الغفاري رضي الله عنه لما أعلن إسلامه بمكة وذلك في أول الإسلام .

وقد أخرج خبره الإمام البخاري ومسلم من عدة طرق ، ومنها ما أخرجاه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قال لأخيه [١] : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء فاسمع من قوله ثم ائتني .

فانطلق الآخر حتى قدم مكة ، وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً [٢] ماهو بالشعر ، فقال : ما شفيتني فيما أردت .

فتزود وحمل شنة له [٣] فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولايعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل ، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه فعلم أنه غريب ، فلما رآه تبعه

كلاماً، من باب قولهم علفتها تبناً وماء بارداً يعني وسقيتها ماء بارداً (الفتح ٧/ ١٧٤) .

(٣) يعني قربة قديمة .

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٣ ، كتاب فضائل الصحابة .

فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى أصبح ثم احتمل قريبته وزاده إلى المسجد فظل ذلك اليوم ، ولايرى النبي ﷺ ، حتى أمسى فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي فقال : ما أن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه ، فذهب به معه ولايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك ، فأقامه علي معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد ؟

قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنّي فعلت ، ففعل فأخبره ، فقال : فإنه حق وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » فقال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم .

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه ، فأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد

من الغد لمثلها ، وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه[1] .

في هذا الخبر بيان للرعب الشديد الذي أثاره زعماء الكفار في مكة ، حتى أصبح القادم لا يستطيع أن يسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بحذر شديد كما فعل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، وأصبح المسلمون لايستطيعون أن يصحبوا القادمين ظاهراً ، بل لابد من الاحتيال لإخفاء هذا الاصطحاب كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكان أبو ذر مضطرا إلى الاستخفاء حتى يحصل على بغيته من الوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يمنع من ذلك ، فلما وصل إليه وآمن به كان قوياً في إعلان إسلامه ، لأنه لايخشى على نفسه ، وإنما كان يخشى أن يمنع من سماع دعوة الحق .

كما أن في هذا الخبر بيان اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بتلقي الغرباء لدعوتهم إلى الإسلام سراً ، وذلك ظاهر في متابعة علي بن أبي طالب لأبي ذر رضي الله عنهما خلال ثلاثة أيام ، فقد جعل أمر هذا الوافد الغريب من اهتمامه حتى أوصله في اليوم الثالث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٤/١٣٣ كتاب فضائل الصحابة ، وصحيح البخاري رقم ٣٨٩١ ، كتاب مناقب الأنصار .

وهذا يعني أن هذا السلوك جزء من المنهج الدعوي الذي تلقوه من رسول الله ﷺ ، وطبقوه تطبيقاً دقيقاً كما جاء في هذا الخبر .

وهكذا رأينا أبا ذر رضي الله عنه يجهر بإيمانه بهذا الدين أمام أعدى أعدائه آنذاك بعدما اقتنع أنه دين الحق .

وهذه نفحة من نفحات قوة الإيمان أبت إلا أن تبدو في صورة ظاهرة من الاعتزاز بالإسلام ، والتحدي القوي لأعدائه .

إن إعلان الإسلام بهذه الصورة من رجل ليس له عشيرة ولا حلفاء في مكة أمام أعداء يهيمنون على الوضع القائم آنذاك ويعذبون المسلمين . . إن هذا الإعلان سلوك جريء يَشِفُّ عن محرك قوي من الإيمان .

وإن إعادة التحدي في اليوم الثاني لأكثر إعجابا وإثارة لأن ترتب الأذى على التحدي الأول أمر محتمل ؛ وإن كان هو المرجح ، أما ترتبه على التحدي الثاني فإنه مؤكد ، ويترجح تضاعفه ، وهذا أمر يدل على أن أبا ذر قد قصد إذلال الكفار الذين يعتزون بقوتهم وجمعهم ويستأسدون على الضعفاء .

وإنه إذا كان المسلمون في فترات ضعفهم وقلتهم بحاجة إلى المداراة والاستخفاء فإن بروز أفراد منهم يعلنون دعوة الحق له أثره البالغ في توهين قوى الأعداء ، وتقوية إيمان المسلمين وربط قلوبهم ،

وكون النبي ﷺ لم ينكر على أبي ذر وأمثاله ممن جهروا بإسلامهم أو بالدعوة إلى الإسلام دليل على شرعية ذلك ما لم يؤثر على مصلحة الدعوة .

وقول رسول الله ﷺ لأبي ذر « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » مثل لما تقدم ذكره في خبر إسلام ضماد الأزدي من اهتمام النبي ﷺ العظيم بنشر دعوته وإشعار المسلمين بواجبهم نحو ذلك .

وقد جاء في رواية أخرى أخرجها الإمام مسلم ما هو أبلغ في الدلالة على ذلك ، وذلك في قوله ﷺ لأبي ذر « إنه قد وُجِّهتْ لي أرض ذات نخل لا أُراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم ! » .

قال أبو ذر : فأتيت أُنيسا فقال : ما صنعت ؟ قلت : صنعت أني أسلمت وصدقت ، قال : ما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت ، فأتينا أُمّنا فقالت : ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت ، فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا ، فأسلم نصفهم ، وكان يؤمهم « أيْماءُ بن رحضة الغفاري » وكان سيدهم ، وقال نصفهم . إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي »[1] .

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٣ ، كتاب فضائل الصحابة .

وهكذا أسلمت هذه القبيلة بدعوة أبي ذر رضي الله عنه حيث توجه بدعوة النبي ﷺ ووضع نصب عينيه توجيهه السامي بتبليغ قومه ، وكان له ولقومه مواقف مشرفة في الدعوة والجهاد .

هذا وقد جاء في هذا الخبر أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أكبَّ على أبي ذر رضي الله عنه لإنقاذه ، وذكَّر المشركين بما يخشاه من انتقام قبيلة غفار منهم بقطع طريق تجارتهم إلى الشام .

وهذا مسلك موفق مع هؤلاء الكفار ، وفق الله تعالى إليه العباس ليتم إنقاذ أبي ذر ، حيث خاطب قومه بالوازع الذي يفهمونه ويقدرونه ، وهو وازع المصالح التجارية التي تقوم عليها حياتهم .

وهذا درس بليغ ينبغي للمسلمين وعيه والاستفادة منه .

* * *

٥ - مواقف عالية من صبر النبي ﷺ على الأذى

لقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى الله في مكة إلى أذى شديد من زعماء الكفار .

ولقد كان قوي الشخصية شجاعاً في مواجهة هؤلاء الزعماء بالرغم مما كانوا عليه من قوة معنوية ، ومكانة عالية بين العرب ، فقد كانوا يقتلون بنظراتهم الحادة وألسنتهم السليطة كل ضعيف خوار ، وكان العرب جميعاً يحترمونهم ويقدرون رأيهم لمكانتهم من خدمة بيت الله الحرام وجواره .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجههم بما يكرهون حينما أصروا على باطلهم ، وتحداهم بما عجزوا عن مقاومته حتى أسقط سمعتهم الوهمية القائمة على الدجل واستغلال غفلة العقول .

فلم يكن منهم إلا أن ضاعفوا من كيدهم وأذاهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين به .

وقد جاءت روايات في بيان ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى ، فمن ذلك :

١ - ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال : حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا

يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرنهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر ذلك الرجل قط ، قد سفه أحلامنا وشتم اباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب الهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا .

فبينما هم في ذلك إذا طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول . قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ : ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح .

قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرْفَؤُه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولاً .

قال : فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في

الحجْر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك .

قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه . قال : فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ! ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط (١) .

وأخرجه أبو يعلى والطبراني بنحوه وفيه أن أبا جهل قال : يا محمد ما كنت جهولاً ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت منهم » .

ذكره الهيثمي وقال : وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن ، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٨٩ ، السير والمغازي/ ٢٢٩ .
وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق وذكره مثله - مسند أحمد ٢/ ٢١٨ - .
وذكره الهيثمي وقال : وقد صرح ابن إسحاق بالسماع وبقية رجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٦ - .
وأخرج الإمام البخاري نحوه مختصراً - صحيح البخاري رقم ٣٦٧٨ ، كتاب فضائل الصحابة - .
(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٦ .

٢ - أخرج الحافظ أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها : ما أشدُّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ ومايقول في آلهتهم فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فقاموا إليه وكانوا إذا سألوا عن شيء صَدَقهم فقالوا : ألست تقول كذا وكذا ؟ فقال : بلى ، فتشبثوا به بأجمعهم .

فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقيل له : أدرك صاحبك فخرج من عندنا وإن له غدائر [1] فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ قال : فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام [2] .

وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية وقال : ولقصة أبي بكر هذه شاهد من حديث علي أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه أنه خطب فقال : من أشجع الناس ؟ فقالوا : أنت .

قال : أمَا إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه ، ولكنه أبو بكر ، لقد

---

(١) أي إن شعر رأسه مفرق إلى غدائر .

(٢) مسند الحميدي ١/ ١٥٥ رقم ٣٢٤ ، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى أبي يعلى والحميدي - المطالب العالية ٤/ ١٩٢ ، رقم ٤٢٧٩ - وحسن إسناده - فتح الباري ٧/ ١٦٩ - ووثق البوصيري رجاله - هامش المطالب العالية ٤/ ١٩٣ - .

رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش ، فهذا يجره وهذا يتلقاه ، ويقولون له : أنت تجعل الآلهة إلها واحدا ، فو الله مادنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ، ويقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله .

ثم بكى عليّ ثم قال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقل عليّ : والله لساعة من أبي بكر خير منه ، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه (١) .

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله فقالوا من هذا : فقالوا : أبو بكر المجنون .

ذكره الهيثمي وقال : ورجالهما رجال الصحيح (٢) .

٣ - وأخرج الحافظ ابن سيد الناس من حديث عروة بن الزبير قال : حدثني عمرو بن عثمان بن عفان عن أبيه عثمان بن عفان قال : أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيت يوما - قال عمرو :

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٦٩ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٧ .

وأخرجه الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه وقال : صحيح على شرط مسلم ، وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٦٧ -

فرأيت عيني عثمان بن عفان ذرفتا من تذكر ذلك - قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر ، وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبي معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره ، فعُرِف ذلك في وجه النبي ﷺ ، فدنوت منه حتى وسَطته ، فكان بيني وبين أبي بكر ، وأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعا ، فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لانصالحك ما بَلَّ بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، فقال رسول الله ﷺ : أنّى ذلك ! .

ثم مضى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه فدفعته في صدره فوقع على استه ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط ، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف ، ثم قال : أما والله لاتنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلا .

قال عثمان : فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفكل [1] ، وهو يرتعد ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : بئس القوم أنتم لنبيكم ، ثم انصرف إلى بيته ، وتبعناه خلفه حتى انتهى إلى باب بيته ، ووقف على السُّدَّة ثم أقبل

---

(١) الأفكل بفتح الهمزة وسكون الفاء الرعده - القاموس المحيط - .

علينا بوجهه فقال : أبشروا فإن الله عز وجل مظهرٌ دينه ، ومُتمٌّ كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلا .

قال : ثم انصرفنا إلى بيوتنا ، فو الله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا [1] .

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح حديث عبد الله بن عمرو السابق من رواية الزبير بن بكار والدارقطني في « الأفراد » من طريق عبد الله بن عروة بن الزبير ، عن عروة قال : حدثني عمرو بن عثمان عن أبيه عثمان . . وذكر أوله ، ثم قال : « فذكر قصة يخالف سياقها حديث عبد الله بن عمرو هذا ، فهذا الاختلاف ثابت على عروة في السند ، ولكن سنده ضعيف ، فإن كان محفوظاً حمل على التعدد ، وليس ببعيد لما سأبينه » ثم قارن بين الروايتين وقال : وهذا يقوي التعدد [2] .

وهذا يعني أنه إن كان خبراً واحداً فالمعتبر هو حديث عبد الله بن عمرو لأنه أقوى إسناداً ، وإن حمل على تعدد القصة وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر فإن ضعفه محتمل للتقوية ، وهكذا أورده الحافظ ابن سيد الناس على أنه خبر مستقل .

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٠٣ .
(٢) فتح الباري ٧/ ١٦٨ .

٤ وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزيناً قد خُضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة ، قال فقال له : مالك ؟ قال فقال له : فعل بي هؤلاء وفعلوا ، قال فقال له جبريل : أتحب أن أريك آية ؟ قال نعم ، قال : فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال : ادع تلك الشجرة ، فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه ، فقال : مرها فلترجع ، فرجعت إلى مكانها ، فقال رسول الله ﷺ : حسبي [١] .

من هذه النصوص نعرف مدى ما كان المشركون يضمرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عداوة ، حيث كانوا يجتمعون على محاربته ويوصي بعضهم بعضا بالوقوف في وجهه ، ويلوم بعضهم بعضا على التقصير في مباداته بالعداء .

وحينما يكون العدو متفرقا أمره ويقاوم أفراده الدعوة الوافدة وهم فرادى فإن أمره يكون ميسورا إذ بإمكان صاحب الدعوة أن يصل إلى إقناع بعضهم بدعوته وأن يتفادى عداوة الآخرين بكلمة مودة أو برد حازم يسكت عدوه ، فأما حين يجتمع أفراد العدو على صاحب الدعوة فإن موقفه يكون حرجا أمامهم إذ أن السيادة في مثل هذه الاجتماعات

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١١٣ .

وذكره الحافظ ابن كثير وقال : هذا إسناد على شرط مسلم - البداية والنهاية ٦/ ١٢٨ - ١٢٩ .
وصححه الحافظ الذهبي - تاريخ الإسلام / السيرة ١٣٠ -

تكون للدهماء الذين تحركهم عادةً العصبيةُ القبلية والتمسك بالموروثات وإن كانت تتنافى مع العقل السليم ، ولايتمكن صاحب الدعوة - والحالة هذه من مخاطبة أصحاب العقول المفكرة .

وقد كان زعماء قريش الذين تغلب هذه الصفات على أصحاب الرأي منهم هم الذين يحتلون ساحات المسجد الحرام ولايتركون الفرصة لأصحاب العقول المفكرة التي تميل إلى التحرر من الأوهام والخرافات التي لاتنسجم مع العقول السليمة . . لايتركون لهم الفرصة ليلتقي بهم رسول الله ﷺ أو يسمعوا كلامه فقد قاموا بالحَجْر الفكري على مجتمعهم وطبقوا ذلك بصرامة فائقة حتى كان من يريد السماع من النبي ﷺ يضطر إلى التسلل في الخفاء .

ومن هنا كان موقف النبي ﷺ صعباً للغاية في معاملتهم وكان لابد له أحياناً أن يخرج عن حلمه المعهود ليسلك معهم طريق الحزم والمجابهة كما هو الحال في هذا الخبر لأن الذين يواجهونه يخاطبونه بعواطفهم الثائرة الحاقدة ولايخاطبونه بعقول متزنة تدرك مايُلقَى عليها من قول وتفكر فيه .

فلما قال لهم : أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح استكانوا وخضعوا له .

إن اجتماعهم على الباطل يلغي تفكيرهم السليم ويجعلهم ينطلقون من الحماس المتأجج من العواطف الثائرة ، وغالباً مايكون التفكير والتوجيه من فرد أو أفراد يتزعمون أفراد المجتمع ، فيبقى أغلب الأفراد تابعين لهؤلاء الزعماء من غير تفكير في صواب مادعوهم إليه من خطئه ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى التفكير المتأمل المتجرد عن فكر الجماعة الذي يهيمن عادة على الأفراد حيث يقول تعالى **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مَثْنَى وفرادَى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّةٍ إن هو إلا نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد ﴾** [1] .

فإذا خلا الإنسان بنفسه ثم تفكر في أمر النبي ﷺ فإنه سيلغي من حسابه اتهامه بالجنون وغيره مما ألصقه به الأعداء ، وكذلك إذا خلا بصاحبه وقارنا بين النبي ﷺ ومن عُرف عنهم الإصابة بهذه التهم ، لأن الفكر –والحال هذه– ينطلق من العقل المتجرد من العاطفة والتبعية للقوى المهيمنة على العقول فلابد أن يصل إلى النتيجة الصحيحة الموافقة للعقل السليم .

وحينما يخلو الإنسان إلى فكره يخبو نداء العاطفة تدريجياً ويرتفع نداء العقل فيصلُ الإنسان إلى الحكم الصحيح العادل .

---

(١) سورة سبأ آية ٤٦ .

وفي هذه الأخبار مواقف رائعة لأبي بكر رضي الله عنه ، حيث وقف دون النبي ﷺ ودافع الناس عنه وحماه بنفسه حتى انصرف عنه أعداؤه ، وفيها بيان لشدة الأذى الذي تحمله في سبيل ذلك ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشجاعته النادرة واستهانته بنفسه في سبيل الدفاع عن رسول الله ﷺ .

وفي أحد هذه الأخبار شهادة على شجاعة أبي بكر البالغة يقدمها بطل كبير من أبطال الإسلام هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي لم تنتكس له راية ولم يقف له أحد في موقف

وإنما يدرك فضل أهل الفضل من شاركهم في هذا الفضل ، حيث شهد له بالإقدام على مدافعة المشركين وإنقاذ النبي ﷺ من بين أيديهم بينما لم يجرؤ غيره على ذلك ، وإن هذا الموقف بقدر مايصور شجاعة أبي بكر وتضحيته فإنه يصور فظاعة المشركين وعنفهم في الانتقام وقوة شخصياتهم التي أوقفت المؤمنين حتى عن الدفاع عن رسول الله ﷺ .

وإن من مزايا هذه الشهادة الكريمة أنها تم إعلانها على ملأ من الناس ، وفي وقت بدأ فيه بعض الموتورين والجهال بالغضّ من شأن بعض كبار الصحابة ، فأراد علي رضي الله عنه أن يعدّل الموازين ، وأن ينبئ الناس بأن محبتهم له يجب أن لاتطغى بحيث يترتب عليها التهوين من شأن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين .

وإننا حين نبرز حق أبي بكر وفضله كما أعلنه علي رضي الله عنهما فإننا نقدر لعلي هذا الموقف الكريم المشتمل على التواضع الجمّ والوفاء الكبير لأخوة له مضوا على درب الجهاد والدعوة .

وفي الخبر الأخير بيان لموقف عثمان رضي الله عنه حيث دفع أبا جهل عن رسول الله ﷺ حتى أوقعه على الأرض . مع ما كان يتمتع به أبو جهل من مكانة عالية بين قومه ، فرضي الله عن هؤلاء الصحابة الذين صمدوا - مع قلتهم - لأهل الباطل وهم في أوج عزهم وكثرتهم .

٥ - أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وإساف ونائلة : لو قد رأينا محمدا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله .

فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك .

فقال : يا بنية أريني وضوءًا فتوضأ ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدورهم وعُقِروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه بصرا ولم يقم إليه رجل .

فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من التراب

فقال : شاهت الوجوه ، ثم حصبهم ، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً (١) .

في هذا الخبر بلغ الملأ من قريش القمة في التحجر الفكري حيث ضاعفوا من تهديدهم ومحاولتهم القضاء على دعوة الإسلام بالقوة ، وذلك بالقضاء على داعيها الأول ﷺ .

ولكننا نجد من رسول الله ﷺ في مقابل ذلك إصراراً أكيدا على تبليغ دعوته مهما تكن الحواجز والعوائق .

ونجد في هذا الخبر مثلا على شجاعة رسول الله ﷺ العظيمة ، حيث علم من ابنته فاطمة رضي الله عنها عن قعود المشركين له وتهديدهم إياه ، ومع ذلك خرج من بيته منفردا ودخل عليهم وهم مجتمعون ، وإن هذا الإقدام العظيم مع احتمال وقوع الضرر البالغ يعتبر قمة في التضحية والبذل من أجل دعوة الإسلام .

لقد كان الشيء الذي يهيمن على مشاعر النبي ﷺ هو التفكير في دعوته وبذل كل الطاقة في محاولة الوصول إلى قلوب الناس ، ولقد كان

---

(١) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٢٣ .
وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد بإسنادين ورجال احدهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٨ .
واحرجه أبو نعيم من طريق ابن عباس رضي الله عنهما دلائل النبوة لأبي نعيم / ٦٠ .
وأخرجه الحاكم بنحوه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه - المستدرك ٣/ ١٥٧ .

أمر حماية النفس وسلامتها من التعرض للضرر شيئاً ثانوياً لا يأخذ له الرسول ﷺ أي اعتبار إذا تعارض مع الإقدام على تبليغ الدعوة .

٦ وأخرج الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم - وهو عقبة بن أبي معيط كما جاء مصرحا به في رواية مسلم الثانية - فأخذه فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه .

قال : فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر ، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل سأل ثلاثا ، ثم قال « اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات » ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط .

قال : وذكر السابع ولم أحفظه - فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحق

لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر [1] .

في هذه الرواية وما في معناها أمثلة للأذى الذي لقيه رسول الله ﷺ على يد الكفار في مكة مما يُقصد به الإهانة المادية بإلحاق الأذى الجسماني ، والمعنوية بتحطيم المشاعر وإغاظة النفوس ، وهي أبلغ من الحسية .

هذا وإن ما جرى من عقبة بن أبي معيط يعتبر اعتداء مهينا على أعظم رجل عرفه التاريخ ، وهو يؤدي شعائر دينه ، مما يدل على تدني مستوى أهل الباطل في معاملة أهل الحق ، وهذا علامة على توغل عداوتهم وإفلاسهم في مجال الفكر والحجة البيانية ، حيث استخدموا أيديهم وقوتهم المادية .

وإن حقد الكفار الدفين يجعلهم يتصرفون بمقتضى عواطفهم لا بمقتضى عقولهم ، حيث إنهم لو راجعوا أنفسهم بعد ذلك لأنكروا عملهم ، بينما أهل الحق لا ينزلون أبدا إلى هذا المستوى الهابط .

أما موقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فإنه مثال لشدة الإرهاب الذي كان يواجهه المستضعفون في مكة ، الذين لم تكن لهم عشائر تحميهم .

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٧٩٤ ، كتاب الجهاد ، صحيح البخاري رقم ٢٩٣٤ كتاب الجهاد .

فالصحابة رضي الله عنهم يحبون رسول الله ﷺ أعظم مما يحبون أنفسهم ولكن ابن مسعود كان على يقين من أنه لن يصل إلى رسول الله ﷺ إلا وهو جثة هامدة أو ما يشبه ذلك ، فلن يتمكن من تخليصه من الأذى .

ومن هذا الخبر نفهم أن للنساء دوراً يقمن به لايستطيع الرجال أحياناً أن يقوموا به فقد استطاعت فاطمة رضي الله عنها أن تزيل الأذى عن أبيها ﷺ وأن تسب الملأ من قريش دون أن تتعرض للأذى لأن تقاليد العرب تمنعهم من الاعتداء على النساء .

وهكذا في كل زمن ينبغي للدعاة أن يستفيدوا من دور المرأة في الأمور التي تحسنها وقد لايدركها الرجال مستفيدين من الأعراف الاجتماعية التي تخدمهم .

وحينما دعا رسول الله ﷺ على الأعداء خافوا من دعوته ، وهكذا الكفار يخافون من عاقبة الدعاء في الدنيا فقط ، حيث إنهم لايؤمنون بالآخرة ، فهل يتنبه بعض المسلمين الذين لايرتدعون عن ظلم الناس إلا خوفاً من استجابة دعائهم وحلول العقوبة الدنيوية غافلين عن مواقف الحساب يوم القيامة ؟!

ومما يدل على أن النبي ﷺ قد تأثر تأثراً كبيراً مما حصل له ما جاء في رواية أخرى لهذا الخبر وفيها « ثم خرج - يعني رسول الله ﷺ - من

المسجد فلقيه أبو البَخْتَري بسوط يتخصر به فلما رأى النبي ﷺ أنكر وجهه فقال : مالك ؟ فقال النبي ﷺ خلِّ عني ، فقال : علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك فلقد أصابك شيء ، فلما علم النبي ﷺ أنه غير مُخَلٍّ عنه أخبره فقال : إن أبا جهل أمر فطُرِح عليّ فرث ، فقال أبو البختري : هلمَّ إلى المسجد .

فأتى النبي ﷺ وأبو البختري فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذي أمرت بمحمد فطُرح عليه الفرث ؟ قال : نعم ، قال : فرفع السوط فضرب به رأسه ، قال : فثار الرجال بعضها إلى بعض ، قال وصاح أبو جهل ، ويْحكم هي له ، إنما أراد محمد أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه .

ذكره الهيثمي وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي وهو ثقة عند ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره (١) .

وأبو البَخْتَري هو ابن هاشم بن الحارث بن أسد ، وأمه من بني هاشم ، وكان من فريق المعتدلين من الكفار الذي تميزوا بوضوح بعد نقض صحيفة المقاطعة وكان من الذين نادوا بنقضها .

٧ - ومن أنواع الأذى التي لقيها رسول الله ﷺ من الكفار ماذكره

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨ .

الصالحي قال : روى ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير وعبد الرزاق في المصنف وابن جرير وابن المنذر عن مِقْسَم مولى ابن عباس كلاهما عنه ، أن أبا معيط - وفي رواية عقبة بن أبي معيط - كان يجلس مع رسول الله ﷺ بمكة ولا يؤذيه وكان رجلا حليما ، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذَوْه وكان لأبي مُعيط خليل غائب عنه بالشام .

وفي رواية أنه أمية بن خلف فقالت قريش : صبأ أبو مُعَيْط .

وفي رواية وكان لايقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا أهل مكة كلهم فصنع طعاما ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال : ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

فقال : اطْعَمْ يا ابن أخي . فقال : ما أنا بالذي أفعل حتى تقول . فشهد بذلك وطَعِم من طعامه .

وقدم خليله من الشام ليلاً فقال لامرأته مافعل محمد مما كان عليه ؟ فقالت : أشَدّما كان أمراً . فقال : مافعل خليلي أبو معيط ؟ فقالت : صبأ . فبات بليلة سوء فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه فلم يرد عليه التحية فقال : مالك لاترد عليّ تحيتي . فقال : كيف أردّ عليك تحيتك وقد صبأت ! قال : أوَقَدْ فَعَلَتْها قريش ؟ لا والله ما صبأت ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له . فاستحييتُ أن

يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له قال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم .

ففعل ، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق [1] .

وذكره السيوطي من رواية أبي نعيم وصحح إسناده ، وقد جاء في آخره : وقال : إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضْربْ عنقك صبراً ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، وقال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً فقالوا : لك جمل أحمر لايدرك ، فلو كانت الهزيمة طرْتَ فخرج معهم ، فلما هزم المشركون وحل به جمله في جُدَد [1] منَ الأرض ، فأخذ أسيراً فضرب النبي صلى الله عليه وسلم عنقه صبراً [2] .

وذكر ابن إسحاق الخبر مختصراً ونسب هذا الفعل إلى عقبة بن أبي معيط وذكر أن صاحبه الذي أضله هو أمية بن خلف وأن الله عز وجل أنزل فيهما قوله : **﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً . ياويلتى ليتني لم أتّخِذْ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾** [الفرقان ٢٧ - ٢٩] [3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٦٨ .

(١) الجُدَد هي الطرق .

(٢) الخصائص الكبرى ١/ ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٨ ، وذكره السيوطي في تفسير هذه الآية وصحح إسناده - الدر المنثور ٥/ ٦٨ .

وهكذا كان أهل الباطل يتضامنون في باطلهم ويشددون النكير على من ألان الجانب لرسول الله ﷺ ، وذلك لتشديد الحصار عليه وعلى دعوته والإمعان في الحجر الفكري على قومهم .

٨ - وأخرج أبو نعيم من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هبّار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام وتجهزتُ معهما فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إليه [١] فلأوذينه في ربه فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هو يكفر بالذي دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فقال رسول الله ﷺ : «اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك» .

ثم انصرف عنه فرجع إليه [٢] فقال : أي بني ماقلت له ؟ قال : كفرت بإلهه الذي يعبد . قال فماذا قال لك ؟ قال ، قال : اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك ، فقال : أي بني والله ما آمن عليك دعوة محمد .

قال : فسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مأسدة فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يامعشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد وإنها مسرح الضيغم ؟ فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم حقي ، قلنا : أجل يا أبا لهب فقال : إن محمداً قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم افرشوا حوله ، فبينما نحن حوله

---

(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) يعني إلى أبيه .

وأبو لهب معنا أسفل ، وبات هو فوق المتاع فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض ثم وثب فإذا هو فوق المتاع ، فجاء الأسد فشم وجهه ثم هزمه هزمة ففضخ رأسه ، فقال : سيفي ياكلب ، لم يقدر على غير ذلك ، ووثبنا فانطلق الأسد وقد فضخ رأسه فقال له أبو لهب : قد عرفت والله ما كان لينفلت من دعوة محمد (١) .

وهكذا استجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فبعث على عتبة بن أبي لهب الأسد الذي أصبح جندياً من جنود الدفاع عن الحق فأهلكه ، ولم تُجْدِ كل الاحتياطات الأمنية التي أحاط بها أبو لهب ابنه .

ومن الغريب في الأمر أن أولئك الكفار يوقنون بأن النبي ﷺ مستجاب الدعوة ومع ذلك يستمرون في مقاومته وإيذائه ، ولايحملهم ذلك على الإيمان به والاستجابة لدعوته ، وهذه صورة من صور اتباع الهوى المنحرف ، حيث يكون الحق واضحا مثل الشمس فيحيد أصحاب الهوى المنحرف عن اتباعه .

ولقد حمى ا لله تعالى نبيه ﷺ في مواطن أخرى من أذى الكفار كما أخرج الإمام مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ١٦٢ .
واخرجه أيضاً الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٥٣٩ - وحسن إسناد الحاكم الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٤/ ٣٩ - .

جهل : هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم [1] ؟ قال : فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته - أو لأعفرن وجهه في التراب - قال : فأتى رسول الله ﷺ وهويصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة .

فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً .

قال : فأنزل الله عز وجل - لاندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه - ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . إنَّ إلى ربك الرُّجْعَى . أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى . أرأيت إن كذب وتولّى** [2] **. ألم يعلم بأن الله يَرَى . كلا لئن لم ينته لنَسْفَعاً بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فَلْيَدْعُ ناديه . سَنَدْعُ الزبانية . كلا لاتطعه واسجد واقترب** ﴾ [3] .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أبو بكر الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما نزلت ﴿ **تَبَّتْ يدا أبي لهب** ﴾ [4]

---

(١) يعني هل يلصق وجهه بالعفر وهو التراب ويعني بذلك السجود .
(٢) يعنى أبا جهل .
(٣ صحيح مسلم ، كتاب المنافقين / رقم ٢٧٩٧ ص ٢١٥٤ .
(٤) سورة المسد .

أقبلت العوراء أم جميل[1] ولها ولولة[2] وفي يدها فهر[3] وهي تقول :

مـذممـا أبـينا[4] ودينـه قـلينا[5]

وأمـره عـصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ، ثم قرأ قرآناً اعتصم به - كما قال وقرأ ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا** ﴾[6] .

فـأقـبلت حـتى وقـفت على أبي بكـر ، ولم تر رسـول الله ﷺ ، فقـالت : يا أبا بكر إني أُخبِرتُ أن صـاحبك هجاني ، فقـال : لاورب هذا البيت ما هجاك ، قـال : فـولّت وهي تقـول : قد علمَتْ قريش أني بنت سيدها[7] .

ومن أمثلة ذلك ما سبق من خبر أبي جهل حينما هدد بفضخ رأس النبي ﷺ بالحجر فمنعه الله تعالى منه[8] .

---

(١) هي امرأة أبي لهب المذكورة في السورة .
(٢) أي عويل .
(٣) أي حجر .
(٤) تريد محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان الكفار يسمونه على سبيل السخرية .
(٥) أي ابغضنا
(٦) سورة الإسراء / ٤٥ .
(٧) مسند الحميدي ١/ ١٥٣ / ١٥٤ ، رقم ٣٢٣.
وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق الحميدي ، وذكر مثله ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي المستدرك ٢/ ٣٦١ .
(٨) انظر ج١ ص ١٦٠ .

ولكن الله تعالى يمكّن الكفار أحياناً - كما في الخبر السابق [1]- من إيصال الأذى لرسوله ﷺ ، وذلك لرفع ذكره في العالمين ، وليكون قدوة لأتباعه المؤمنين في الرضا بقضاء الله تعالى ، والصبر الجميل على الأذى .

وقد يمكّن الله تعالى أهل الباطل من أهل الحق برهة من الزمن فيقومون بالتنكيل بأهل الحق ومحاولة إسكات أصواتهم ، ولكن سرعان ما ينهار بناؤهم أمام تماسك أهل الحق وصدق تمثيلهم لدينهم ، كما قال الله ﴿ **لن يَضُرُّوكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبار ثم لاينصرون** ﴾ [2] .

* * *

---

(١) انظر رقم ٧ .

(٢) ال عمران / ١١١ .

٦ - مواقف من صبر الصحابة على الأذى

لقد كانت مواجهة زعماء قريش لدعوة الإسلام عنيفة متواصلة . ، لقد ساءهم كثيراً أن دخل في الإسلام عدد من أشرافهم وأبنائهم ، فحاولوا فتنتهم بالتأليف أولاً حيث أغروهم بالأموال والجاه إذا هم تركوا دينهم ، فلم ينجحوا معهم في ذلك فلجئوا إلى محاولة حرمانهم من الأموال والمتاع فلم يثنهم ذلك عن عزمهم على التمسك بدينهم الحنيف .

عند ذلك تحول الكفار إلى فتنة التخويف حيث قاموا بإيذاء المسلمين وتعذيبهم ، وقد يبدءون بفتنة الترهيب قبل المرور بفتنة الترغيب لإدراكهم بأن المسلمين ليسوا طلاب دنيا وأن أي محاولة في ترغيبهم ستبوء بالفشل ، أو انطلاقاً من شدة حنقهم على الإسلام ودعاته .

وقد مر بهذه الفتنة أكثر المسلمين سواء في ذلك الأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد .

ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن سعد من رواية محمد بن عمر الواقدي بإسناده إلى إبراهيم بن محمد بن أبي طلحة قال : قال طلحة بن عبيد الله : حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول : سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم ؟ قال طلحة : قلت : نعم أنا . فقال : هل ظهر أحمد بعد ؟ قلت ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ومخرجه من

الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه .

قال طلحة : فوقع في قلبي ما قال ، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة ، فقلت : هل كان من حدث ؟ قالوا نعم محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ ، وقد اتبعه ابن أبي قحافة ، قال : فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت : أتَبعت هذا الرجل ؟ قال : نعم فانطلق إليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق ، فأخبره طلحة بما قال الراهب ، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فَسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك ، فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدهما في حبل واحد ، ولم يمنعهما بنو تيم ، وكان نوفل بن خويلد يُدْعَى أسد قريش فلذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينين .

ورواه الحاكم والبيهقي من طريق الواقدي بهذا الإسناد .

وذكره ابن كثير والذهبي من هذا الطريق ، وسكت هؤلاء الأئمة عنه (١) .

وهذه الرواية من طريق ا لواقدي وقد حكم علماء الحديث عليه بالترك ولكن ا لعلماء اعتمدوا رواياته في السيرة والمغازي ، ويكفي إقرار

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢١٤ ، المستدرك ٣/ ٣٦٩ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٦ ، البداية والنهاية ٣/ ٢٨ ، تاريخ الإسلام/ السيرة/ ١٣٩ .

هؤلاء الأئمة : ابن سعد والحاكم والبيهقي وابن كثير والذهبي لهذه الرواية .

ومن ذلك ماجرى للزبير بن العوام رضي الله عنه من تعذيب عمه له كما أخرج الحاكم عن أبي الأسود عن عروة قال : أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار ويقول : ارجع إلى الكفر فيقول الزبير : لا أكفر أبداً .

وسكت عنه الحاكم والذهبي [1] .

وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أنه مرسل [2] .

وكذلك ما جرى لعثمان بن عفان من تعذيب عمه له كما أخرج ابن سعد بإسناده عن محمد بن إبراهيم بن حارث التيمي عن أبيه قال : لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين ، فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه [3] .

وهكذا جرى التعذيب والإذلال لهؤلاء الكبراء المعروفين في قبيلة

---

(١) المستدرك ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ١٥١ .

(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٥٥ .

قريش من أصحاب النسب الرفيع ، ولم يردوا على قومهم الذين آذوهم لأنهم كانوا في المرحلة الأولى التي أمرهم فيها رسول الله ﷺ بالصبر على الأذى وعدم رد الاعتداء بمثله .

ومن أمثلة الثبات على الدين رغم التعرض للمحن ما جرى لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه مع أمه ، وذلك فيما أخرجه أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال : إن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت فيَّ هذه الآية ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا** ﴾ [1] كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمت قالت : ياسعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لَتَدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي فيقال يا قاتل أمه ، قلت : يا أُمَّه لاتفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة لاتأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية [2] .

---

(١) سورة لقمان آية ١٥ .

(٢) الدر المنثور ٥ / ١٦٥ .

وأخرجه الإمام مسلم بنحوه ضمن حديث طويل [1] .

وقد ظهر بهذا إيمان سعد القوي حيث ثبت على دينه ولم يخضع لهذا الابتلاء الذي جعله في خيار بين طاعة الله وطاعة أمه ، ففضل طاعة الله جل وعلا .

أما المستضعفون منهم كالموالي فإنهم تعرضوا لِأذًى شديد متواصل ، واتفق زعماء المشركين على الاستمرار في إيذائهم حتى يظفروا بمن يرجع منهم عن دينه فيكون ذلك نصراً لهم على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم ، واتّبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، مَن استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يَصْلُبُ لهم ، ويعصمه الله منهم .

وكان بلال ، مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، لبعض بني جمح ، مُولَّدا من مولديهم ، وهو بلال بن رباح ، وكان اسم أُمّه حمامة ، وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح يخرجه إذا حَمِيت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة

---

(١) صحيح مسلم ، لفضائل الصحابة ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨ .

ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أَحَد أَحَد [1] .

وأخرج الإمام أحمد والحاكم خبر تعذيب بلال وغيره من المستضعفين ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي . وكذلك صححه الذهبي في تاريخ الإسلام [2] .

وقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن أبا بكر مرَّ به وهو يعذب فاشتراه من أمية بن خلف الجمحي ثم أعتقه لوجه الله تعالى ، وذكر أنه أعتق ستة آخرين من المعذبين وهم : عامر بن فهيرة ، وأم عبيس ، وزنِّيرة ، والنهدية وابنتها وجارية بني مؤمِّل [3] .

وأخرج الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه : أن أبا بكر أعتق ممن كان يُعذَّب في الله سبعة ، فذكر منهم « الزنِّيرة » قال : فذهب بصرها وكانت ممن يعذب في الله على الإسلام ، فتأبى إلا الإسلام ، فقال المشركون : ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كلا والله ماهو كذلك ، فرد الله عليها بصرها [4] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .
(٢) مسند أحمد ١/ ٤٠٤ ، المستدرك ٣/ ٢٨٤ ، تاريخ الإسلام/ السيرة/ ٢١٧ .
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٩ - ٣٢٦ .
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٨٢ .

وفي هذا الخبر دلالة على قوة إيمان الصحابة ووضوح عقيدة التوحيد عندهم وأن ذلك كان حتى على مستوى العامة منهم .

وإن ما أكرم الله تعالى به تلك المرأة المؤمنة من رد بصرها إليها يعتبر إرغاماً للكافرين حيث كانوا يعتقدون أن أصنامهم تضر وتنفع من دون الله تعالى .

وهكذا كان أبوبكر ينفق ماله لإنقاذ المسلمين المستضعفين من أيدي الكافرين الطغاة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة .

وقد أثنى الله تعالى على هذا العمل الصالح بآيات من سورة **﴿الليل﴾** وذلك كما أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق قال حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك ، فقال أبو بكر : يا أبت إني إنما أريد ما أريد : لمّا نزلت هذه الآيات فيه **﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾** إلى قوله عز وجل **﴿ وما لأحد عنده من نعمة تُجزَى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾** [(١)] .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه [(٢)] .

---

(١) سورة الليل آية ٢ - ٢١ .
(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٥ .

وذكره السيوطي ونسبه إلى ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير وذكر نحوه وقال فيه : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ الآيات [١] .

وفي هذه المحاورة بين أبي بكر وأبيه ندرك لوناً من ألوان الفرق بين نظرة أهل الجاهلية ونظرة المسلمين بالنسبة لوجوه إنفاق المال وبذل المعروف ، فوالد أبي بكر ينظر إلى مستقبل الحياة الدنيا فيشير على ولده بأن يضع المعروف فيمن يستطيعون نفعه في مستقبل حياته ، وهذا مبلغ علمه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ، وبالتالي فإنه لايتصور معروفاً يُبذل في الدنيا لِيَجني باذله نفعه في الآخرة ، ولهذا فإن بذل المعروف في ضعاف الناس الذين لايرجو نفعهم في الدنيا يُعتبر في نظره ونظر أهل الجاهلية من ضعف الرأي وضآلة التفكير ، بينما يجيبه أبو بكر بقوله : « يا أبت إنما أريد ما أريد » فإذا كان أهل الجاهلية يريدون قبض ثمن معروفهم في الدنيا فإنه لايريد ذلك ، وإنما يريده في الحياة الآخرة طلباً لرضوان الله تعالى والدرجات العُلَى في الجنة .

وحينما يُحشر الخلائق يوم القيامة وتوزن الأعمال ويكون الحساب يذكر العاملون للدنيا فقط أنهم قد خسروا كل شيء ، ويوقنون بأن الذين عملوا للآخرة كانوا أكمل عقلاً وأسد رأياً منهم .

---

(١) الدر المنثور ٦/٣٥٨ .

وإنه ليشبه عمل هؤلاء الذين يعملون لدنيا هم مايقوم به بعض المسئولين من المسلمين الذين يقدمون المعروف لكبار الناس ممن يرجون نفعهم في الحياة الدنيا ولايريدون ببذل المعروف وجه الله تعالى والدار الآخرة . بينما يقبضون معروفهم عن ضعفاء الناس الذين لايرجون منهم نفعاً دنيوياً ، وإن كان هؤلاء يختلفون عن أهل الجاهلية بكونهم مسلمين ولهم أعمال صالحة أخرى .

إن الذي ينظر في بذل المعروف إلى الكسب الأخروي لايفرق في ذلك بين كبراء الناس وضعفائهم ، ولابين أصحاب المسئولية ومن هم خِلْوٌ منها لأنه لاينتظر منهم وهو يبذل لهم المعروف أن يبادلوه بمثله وإنما ينتظر الأجر والرفعة في الآخرة ، وذلك هو الفلاح الأكبر .

ومما ينبغي التنبيه إليه أن والد أبي بكر قد أسلم يوم فتح مكة رضي الله عنهما .

وممن تعرض للأذى عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم . قال ابن إسحاق رحمه الله : وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول - فيما بلغني - صبراً آل ياسر موعدكم الجنة ، فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام [1] .

---

(١) سيره ابن هشام ١/ ٣٢٧ .

وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي [١] .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات [٢] .

وقد بقيت اثار التعذيب على ظهر عمار بعد ذلك كما روى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال : أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجرداً في سراويل ، قال : ونظرت إلى ظهره فإذا فيه حبط فقلت : ماهذا ؟ قال : هذا ما كانت قريش تعذبني في رمضاء مكة [٣] .

وممن تعرضوا للأذى خباب بن الأرَتّ رضي الله عنه ، ومن ألوان هذا العذاب ما أخرجه أبو نعيم عن الشعبي قال : سأل عمر خباباً عما لقي من المشركين ، فقال خباب : يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري ، فقال عمر : ما رأيت كاليوم ، قال : أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري [٤] .

وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي ليلى الكندي قال : جاء خباب إلى عمر فقال : ادْنُ فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار ، فجعل خباب يريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون .

---

(١) المستدرك ٣/ ٣٨٨ .
(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٢٩٣ .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٦٠ .
(٤) الحلية ١/ ١٤٣ - ١٤٤ .

قال البوصيري في الزوائد : اسناده صحيح [1] .

وإنما ذكر عمر عماراً لاشتراكه مع خباب في التعذيب ، والرواية الأولى تبين أن خباباً أظهر آثار التعذيب بعدما سأله أمير المؤمنين عمر عن ذلك رضي الله عنهم أجمعين .

وأخرج الإمام البخاري بسنده عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فَيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه ، والله لَيتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضْرَمَوت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون [2].

ومن هذه النماذج العالية نعرف كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يضحون بأنفسهم في سبيل هذا الدين ويتحملون أنواع الأذى في سبيل إظهار دعوتهم ، حتى ضربوا بذلك أروع الأمثلة لمن جاء بعدهم في الصبر والتضحية ، وتقديم مصلحة الدعوة الإسلامية على المصالح الذاتية .

---

(١) سنن ابن ماجه / المقدمة رقم ١٥٣ .
(٢) صحيح البخاري رقم ٦٩٤٣ (الفتح ١٢ / ٣١٥) .

وفي قوله ﷺ : « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » تحديد للهدف العالي الذي يجب أن يسعى له كل مسلم ، فإن النبي ﷺ لم يَعِدْهم بقصور الدنيا وبساتينها ونعيمها مع ما كان يعلمه بوحي من الله تعالى من غلبة هذا الدين وانتصار المسلمين على أمم الأرض في المستقبل ، لأن هذا ليس هو الهدف السامي الذي شرع الله الإسلام من أجله إنما الهدف السامي هو الذي أثنى الله به جل وعلا على صحابة رسول الله ﷺ بقوله : ﴿ **يبتغون فضلاً من الله ورضواناً** ﴾[1] وهو ما وُعد به آل ياسر في هذا الحديث لأن المراد بالفضل في الآية الجنة .

إنه لو كان الوعد بمتاع الحياة الدنيا الزائل لما هانت على هؤلاء أنفسهم لأن هذا الهدف يستدعي استبقاءهم لأنفسهم حتى يظفروا به ، ولما وُجد الشهداء في سبيل الله تعالى إلا قليلاً ولما حصل النصر والتمكين في الأرض للمسلمين .

إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا ، فإذا عرفوا هذا الهدف وطبقوه انتصروا على أعدائهم لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى الموت في سبيل الله تعالى ، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء ، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه ويتقي بغيره ، بينما المنطق الطبيعي بالنسبة للمسلمين

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩ .

الذين يعون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم على الوصول إلى الهدف .

ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لايمكن أن يغلبوا بشكل نهائي وإنما قد يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية ، كما هو الحال في صحابة رسول الله ﷺ .

هذا وقد تنوعت وسائل الأذى من الكفار للمسلمين وكانوا يعاملون كل مسلم حسب مكانته الاجتماعية وعمله ، وفي ذلك يقول ابن إسحاق رحمه الله : وكان أبو جهل الفاسق يغري بهم - يعني بالمسلمين - في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لَنُسفِّهن حلمك ، ولنُفَيِّلَن رأيك [١] ، ولنَضَعَنّ شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لنُكَسِّدَنّ تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به [٢] .

وهكذا يقف الكفار في مواجهة المسلمين فيقومون بتشويه سمعتهم وإسقاط مكانتهم في المجتمع بكل الطرق التي يرونها مؤثرة ، وهم لعدم

---

(١) يعني لنخطئن رأيك .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٨ .

إيمانهم بالله واليوم الآخر لا يتورعون عن مأثم ولايخشون عقوبة على أعمالهم السيئة ، فلذلك يبيحون لأنفسهم الكذب والتزوير ، ويضللون الرأي العام بأقوال وأخبار مختلقة ، بقصدون منها إضعاف معنوية المسلمين .

ومن كان ماله من المسلمين يقوم على التجارة ونحوها مما يقوم على التعامل مع الآخرين فإنهم يحاصرونه ويشوهون سمعته التجارية ويضعون العراقيل في وجهه حتى يفلس في تجارته .

هكذا شأن الكفار والمنافقين في حربهم مع المؤمنين في كل زمن ، وقد لايملك المسلمون من وسائل المقاومة إلا الصبر والزهد في الدنيا وانتظار الفرج ، فإذا تحققت فيهم هذه الصفات كما توفرت لدى الصحابة رضي الله عنهم فإنهم جديرون بنصر الله تعالى والتمكين في الأرض .

هذا ومما استعمله الكفار ضد المسلمين من الأذى جحود حقوقهم المالية حتي يكفروا بالإسلام ، ومن ذلك ما جاء في رواية أخرجها الإمام البخاري رحمه الله من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ ، فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟ قلت : نعم ، قال : إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك ،

فنزلت هـذه الآيـة : ﴿ افـرأيت الذي كفـر بآياتنا وقال لأوتّينّ مـالاً وولداً ﴾[1] .

وقول خباب « لا حتى تموت ثم تبعث » ليس على ظاهره بل المراد منه تبكيت ذلك الكافر ، يقول الحافظ ابن حجر في ذلك : مفهومه أنه يكفر حينئذ - يعني بعد البعث - لكنه لم يُرد ذلك لأن الكفر حينئذ لايتصور ، فكأنه قال : لا أكفر أبداً ، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لايؤمن به[2] ، ويحتمل أنه أراد تهديده بذلك .

هذا ومما يلاحظ من الأخبار السابقة أن رسول الله ﷺ كان يمنع المسلمين آنذاك من الرد على عدوان الأعداء ويأمرهم بالصبر على الأذى لأن وضعهم لم يكن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم بالقوة ، ولاشك أن وراء أمرهم بالصبر حِكَماً عظيمة .

ولقد حاولت أن ألتمس شيئاً من هذه الحكم ، ولكني وجدت أن ماسطره الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى أبلغ وأشمل مما كتبته بكثير فرأيت اقتباس ما كتبه في هذا الموضوع لاهميته ، يقول رحمه الله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري التفسير ، سورة مريم / ٣ رقم ٤٧٣٢ وتكملة الآيات : ﴿ أطّلع الغيب أم اتّخذ عند الرحمن عهداً كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مداً . ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾ مريم / ٧٧ - ٨٠ .

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٣٠ .

أما حكمة هذا فلسنا في حِلٍّ من الجزم بها ، لأننا حينئذ نتألّى على الله ما لم يبين لنا من حكمة ، ونفرض على أوامره أسباباً وعللا ، قد لاتكون هي الأسباب والعلل الحقيقية ، أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها ، ويعلم سبحانه أن فيها الخير والمصلحة . . وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف ، أو أي حكم في شريعة الله لم يبين الله سببه محددا جازما حاسما فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف ، أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف ، مما يدركه عقله ويحسن فيه ، فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال . ولايجزم - مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله - بأن ما رآه هُوَ حكمةٌ ، هو الحكمةُ التي أرادها الله . . نصا . . وليس وراءها شيء ، وليس من دونها شيء ! فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله . ومقتضى مابين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة .

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة . . نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب . . على أنه مجرد احتمال . . وندع ماوراءه لله . لانفرض على أمره أسباباً وعللا ، لايعلمها إلا هو . . ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح ! .

إنها أسباب . . اجتهادية . . تخطيء وتصيب . وتنقص وتزيد . ولانبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله . وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان :

« أ » ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولاتعود ذاته ولا من يلوذون به ، محور الحياة في نظره ، ودافع الحركة في حياته . . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج . ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته . . وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ، ولايتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي ، لإنشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي أو القبلي .

«ب» وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ

في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتي قد يدفعهاالقتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة ، كثارات العرب المعروفة ، التي أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس - أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك أبدا . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر أبداً ! .

«جـ» وربما كان ذلك أيضاً ، اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه هم ويفتنونه و **يؤدبونه** ! ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت . . ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم ، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمدا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى . . في كل بيت وكل محلة ؟ .

«د» وربما كان ذلك أيضاً ، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم

بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته . . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟! .

«هـ» وربما كان ذلك ، أيضاً ، لأن النخوة العربية ، في بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم ، الذي يحتمل الأذى ، ولايتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدَّغنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مَكة ، ورأى في ذلك عاراً على العرب ! وعرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي ! .

« و » وربما كان ذلك أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة . حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة . أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد ، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى

الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة . ولم يقم في الأرض للإسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعي . . وهو دين جاء ليكون منهج حياة ، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة .

« ز » في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة ، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى . لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً – وقتها – ومحققا . . هذا الأمر الأساسي هو **وجود الدعوة** . . وجودها في شخص الداعية – ﷺ – وشخصه في حماية سيوف بني هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع ! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم ، إذا هي امتدت يدها إلى محمد – ﷺ – فكان شخص الداعية من ثم محمياً حماية كافية . . وكان الداعية يبلغ دعوته – إذن – في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلي ، ولا يكتمها ، ولا يخفيها ، ولايجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها ، في ندوات قريش في الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا ، وفي اجتماعات عامة . . ولايجرؤ أحد على سد فمه ! ولايجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله ! ولايجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ، يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها . وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف . وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت . وحين طلبوا إليه أن يُدْهن فيدهنوا . أي

أن يجاملهم فيجاملوه ، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته ، لم يدهن . . وعلى الجملة كان للدعوة **وجودها** الكامل ، في شخص رسول الله - ﷺ - محروساً بسيوف بني هاشم - وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة . . ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها ، مساندة للدعوة ومساعدة في مثل هذه البيئة [1] .

وربما كان من الحِكَم في ذلك أن يظهر للأعداء عظمة هذا الدين ، وأنه هو الدين الحق لما يتمثل به أتباعه من الصبر الطويل على الأذى ، والمقدرة الفائقة على ضبط النفس ، حيث يتساءل الأعداء عن السر الكامن وراء الصبر والثبات ، فلايجدون إجابة على تساؤلاتهم إلا بالتفكير في هذا الدين العظيم الذي كان وراء هذا الصمود العجيب والصبر الجميل .

هذا وقد اضطر بعض المعذبين من الصحابة للاستجابة لفتنة الكفار ظاهراً وموافقتهم على قول ما يطلبونه منهم للتخلص من تعذيبهم ، كما قال ابن إسحاق رحمه الله : وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أكان المشركون

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٤٥٢ ، سورة النساء / ٧٧ .

يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة [1] .

وهكذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يتعرضون في ذلك العهد لأنواع من التعذيب هي فوق احتمال البشر ، مما حمل بعضهم مع قوة إيمانهم على موافقة المشركين ظاهراً فيما ألزموهم بقوله مما يتنافى مع الإسلام .

وقد أقر النبي ﷺ أولئك المعذبين على اتقاء عذاب المشركين بإظهار ما يريدون منهم ، ومن أدلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم[2] في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان ، قال النبي ﷺ فإن عادوا فعد .

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ من كفر بالله بعد إيمانه إلا من

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٨ .

(٢) في تفسير الطبري « باراهم » وأثبت ما في تفسير ابن كثير المنقول من الطبري لأنه هو الموافق لسياق الخبر - تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣٧ .

أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [1] ، [2] .

وهذا يعتبر رخصة للمسلمين الذين يتعرضون للبلاء الشديد على يد الكفار ، فمن ثبت وراغم الكفار كما فعل بلال فهو أفضل ، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار فإنه لا إثم عليه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ، ولله الحمد والفضل .

وفي قوله ﷺ « كيف تجد قلبك ؟ » دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار .

إن هؤلاء المعذبين قد استطاع الكفار أن يثخنوا في أجسادهم وأن يُلجئوا بعضهم إلى قول ما لا يعتقدون ، ولكنهم لم يستطيعوا أبدا أن يهيمنوا على عقولهم وأفكارهم .

إن الفكر حصن حصين وهبه الله تعالى للإنسان ، فلا يستطيع البشر مهما أوتوا من قوة أن يطلعوا على أسراره وخفاياه ، ولا أن يهيمنوا عليه فيغيروا من معتقده .

إن الطغاة الجبابرة يستطيعون أن يفعلوا في أجساد المؤمنين المعذبين

---

(١) سورة النحل آية ١٠٦ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ١٨٢ .

ماشاءوا وأن ينتزعوا من بعضهم ما يريدون من اعترافات ، ولكنهم لايستطيعون أن يتحكموا في أفكارهم ، وهذا من أبرز علامات الفشل والعجز ، لأن تغيير الأفكار هو المقصود الأول من وراء ذلك التعذيب .

* * *

٧ - أثر دعوة الرسول ﷺ في تحطيم الطغيان

الطغيان في اللغة التعدي وتجاوز الحد [١] .

والمقصود به هنا سلب شيء من خصائص الألوهية من الخالق جل وعلا ومنحه للمخلوق ، فهذا من التعدي على الله سبحانه ومن التجاوز بالمخلوق فوق حده .

وقد ظهر الطغيان في عهد الجاهلية على ضربين :

الأول : منح الأصنام حق العبادة من دون الله تعالى .

والثاني : منح زعماء المشركين حق التشريع من دون الله تعالى .

فأما الأول فإنه قد انتشر في جزيرة العرب انتشاراً واسعاً ، وكان العرب في ماضي حياتهم على دين إسماعيل عليه السلام ، وهو التوحيد إلى أن دخلت عبادة الأصنام في حياتهم .

وكان أول من أدخل عبادة الأصنام على العرب عمرو بن لُحَيّ الخزاعي ، كما جاء في حديث أخرجه الحاكم ، وفيه قال رسول الله ﷺ بعد أن ذكر النار : « ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قصبه في النار ، وأشبه من رأيت به معبد بن أكثم الخزاعي ، فقال معبد : يارسول الله أتخشى عليّ من شبهه فإنه والدي ؟ قال : لا ، أنت مؤمن وهو كافر ، وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام » .

---

(١) مفردات الراغب / ٣٠٤ .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي [1] .

وانتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب حتى دخلت إلى بيوتهم ، وفي بيان ذلك يقول ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسَّح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله [2] .

وقد أخذت عبادة الأصنام أشكالاً متعددة منها السجود لها والطواف حولها والنحر عندها ، والتمسح بها .

ومن مظاهر إشراكهم الأصنام مع الله تعالى قول بعضهم في تلبية الحج « لبيك لاشريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » [3] .

هذا وقد انتشرت عبادة الأصنام في أكثر الأمم الجاهلية كما سيتبين لنا في عرض مواقف الفتوحات الإسلامية .

أما الضرب الثاني من الطغيان فهو منح زعماء المشركين حق التشريع من دون الله تعالى فهذا واضح في جميع الأمم ومنها قبائل العرب حيث كان الزعماء هم الذين يشرعون للناس ما ينظمون به حياتهم من

---

(١) المستدرك ٤/ ٦٠٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٩١ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٨٦ .

غير رجوع إلى وحي سماوي ، وكان بروز دور الزعماء في حياة الأمم ذات الحكومات أكبر مما هو عليه عند العرب الذين كانت تغلب عليهم الحياة القبلية .

وحينما تكون القلوب ممتلئة بتعظيم الأصنام والخوف منها وبتعظيم البشر والرهبة منهم فإن تصورات الإنسان تكون منحرفة عن الخط المستقيم ، لأن فكره سيكون مشغولاً بهذا الإطار ، من تقديم مظاهر التعظيم والولاء والخوف والرجاء رغبة فيما عندهم من الخير واتقاء لما عندهم من الشر الذي يكون من نسج الخيال وهيمنة الأوهام بالنسبة للأصنام ، ومن المغالاة في تقدير الأسباب التي يمكّن الله تعالى منها طغاة البشر واعتبارهم مستقلين بها عن إرادة الله تعالى وقدرته .

وبالتالي يكون السلوك منحرفاً نحو عبادتهم من دون الله تعالى وذلك ظاهر في الأصنام ، ومغلف بالنسبة للطغاة لعدم تقديم مظاهر العبادة الظاهرة لهم ولكن بتقديم رضاهم على رضا الله تعالى ، وما يحبونه على ما يحبه ، واجتناب سخطهم وغضبهم وإن غضب الله جل وعلا عليهم .

وإن مهمة الداعية الحقيقية هي الجد في محاولة تفريغ قلوب هؤلاء المستعبدين وتطهيرها من رجس عبادة الأوثان من الأصنام ومن طغاة البشر ، وذلك ببيان حقارة الأصنام وعدم تمتعها بخصائص الإنسان العاقل فضلاً عن خصائص الألوهية ، وببيان جرائم الطغاة ومظاهر

الضعف والتناقض في أحكامهم وقراراتهم لتحطيم كبريائهم وتطهير العقول من اعتقاد عظمتهم وقداستهم .

ولقد قام رسول الله ﷺ في دعوته بهذه المهمة خير قيام ، حيث حطم الطغيان البشري القائم في عهده ، وأحل محله العبودية الكاملة لله عز وجل .

وقد أخذ جهاده لتحطيم الطغيان مسلكين :

المسلك الأول : ما قام به من تحقير الأصنام وتسفيه عبادتها وإظهارها بمظهر العاجز الذي لايبصر ولا يسمع ، ولايضر ولاينفع ، وقد نزلت في هذا المعنى آيات كثيرة منها قول الله تعالى : ﴿ **أيشركون ما لايخلق شيئاً وهم يُخْلَقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسَهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أَلَهُم أرجل يمشون بها أم لَهُمْ أَيْدٍ يبطشون بها أم لَهُم أعين يبصرون بها أم لَهُم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنْظِرون . إن وَلِيِّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون** ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩١ - ١٩٨ .

وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقُون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرِب مَثَلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرْكٌ في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يَعِدِ الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾[5] .

---

(١) سورة الفرقان آية ٣ .
(٢) سورة يونس اية ١٨ .
(٣) سورة فاطر آية ١٣ - ١٤
(٤) سورة الحج اية ٧٣ .
(٥) سورة فاطر آية ٤٠ .

وقوله تعالى : ﴿ **قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير** ﴾ (١) .

ففي هذه الآيات بيان عجز الأصنام وعدم أهليتها لأن تكون آلهة تعبد من دون الله تعالى ، حيث فقدت الحواس والأعضاء اللازمة لكل حي كي يتحرك ويعمل ، فضلاً عما هو فوق ذلك مما هو من خصائص الإله القادر كالإيجاد من العدم والملك المطلق لكل ما في السموات والأرض .

وليس المقصود بنقد عبادة الأصنام وتحطيم طغيان الكفار بها أن يقوم المسلمون بسب تلك الأصنام ، فإن السب لاينتج تحطيماً وقر في النفوس من تعظيمها وإنما يدفع عابديها إلى شيء من رد الفعل فيسبوا الله جل وعلا عن ذلك ، ولذلك نهى الله سبحانه المسلمين عن هذا السلوك بقوله : ﴿ **ولاتسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عَدْواً بغير علم** ﴾ (٢) .

فالسب والشتم نُزُول في مجال الجدل ولايقوم به إلا من فقد الحجة والبيان في الدفاع عن قضيته ، وقد كان رسول الله ﷺ قد أعطاه الله

---

(١) سورة سبأ آية ٢٢ .

(٢) سورة الأنعام / ١٠٨ .

تعالى أعلى البيان البشري وأبلغ الحجة ، مع ماهو مؤيد به من الوحي الإلهي العظيم .

أما الآيات السابقة التي اشتملت على نقد عبادة الأصنام فليست من باب السب والشتم ، وإنما هي من النقد المشتمل على بيان الحقائق ، ومن هذه الحقائق أن الأصنام عاجزة عن خلق الأشياء من العدم ، وأنها لاتستطيع نصر عبادها ولانصر أنفسها ، وأنها لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعًا ، فضلاً عن أن تمنح ذلك عابديها ، وأنها لاتستطيع إماتة الناس ولا إحياءهم ، وأنها لاتملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

فهذه الحقائق الناصعة لايستطيع الكفار أن يجيبوا عنها إلا بالإقرار والاعتراف بصدق ما جاء في القرآن من وصف أصنامهم ، بينما لايستطيعون أن يصفوا الله جل وعلا بتلك النقائص لأنهم يقرّون بتوحيد الربوبية ، وإنما جحدوا توحيد الألوهية .

والمسلك الثاني : القيام بتحطيم طغاة الكفار الذين كانوا يتزعمون قومهم ويشرعون لهم القوانين التي يسيرون عليها في هذه الحياة ، حيث إن الطغيان في ذلك الزمن يتمثل في شرك العبادة ، وذلك بعبادة الأصنام من دون الله تعالى ، وفي شرك الطاعة ، وذلك بطاعة السادة والزعماء الذين يشرعون للناس من دون الله تعالى .

ولقد نزل في توجيه النبي ﷺ إلى تحطيم الطغيان البشري آيات كثيرة ، منها :-

قوله تعالى ﴿ ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون أو من كان ميّتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّن للكافرين ماكانوا يعملون ﴾(١) .

وقوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون ﴾ (٢) .

وقوله تعالي ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولايَسْمَع الصُمُّ الدعاءَ إذا ما يُنذَرُون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى ﴿ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهةً ماوردوها وكلٌ فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لايَسْمعون ﴾ (٤) .

وقوله تعالى ﴿ قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢١ / ١٢٢ .
(٢) سورة يونس آية ٤٢ - ٤٣ .
(٣) سورة الأنبياء اية ٤٥ .
(٤) سورة الأنبياء اية ٩٨ - ١٠٠ .
(٥) سورة الزمر آية ٦٤ .

وقوله تعالى ﴿ ويل لكل أفّاك أثيم . يسمع آيات الله تُتْلى عليه ثم يُصرُّ مستكبراً كأنْ لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ولايغني عنهم ماكسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

ولقد كان النبي ﷺ يجهر بتلاوة هذه الآيات وأمثالها ولايداري المشركين بالإسرار بها ، وكان من الأهداف الكبيرة والحِكَم البالغة من نزول هذه الآيات الشديدة على المشركين أن يتحطم الطغيان الذي عشش في أفكار زعماء الكفار وسادتهم ، وأن يتلاشى شيئاً فشيئاً ما وقر في نفوس الأتباع من تعظيمهم والرهبة منهم .

ولقد سبقت أخبار تبين جرأة النبي ﷺ على زعماء الكفار وستأتي أخبار أخرى في هذا المجال .

ولقد اجتمع على سيادة مكة آنذاك عدد من أشراف قريش منهم أبو جهل عمرو بن هشام وأمية وأبي ابنا خلف والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل ، وكانوا جميعاً يعادون الإسلام ويحكمون أهل مكة بالقوانين التي تعارفوا عليها ، وكان من الصعب على أفراد الناس أن يخالفوهم في شيء من ذلك ، بل إنّ

---

(١) سورة الجاثية أية ٧ - ١٠ .

قوانينهم تلك اكتسبت القداسة الدينية لكونها مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، فلما قام النبي ﷺ بمخالفتهم في ذلك والإنكار عليهم وتسفيه آرائهم وعيب ما ورثوه عن أسلافهم أنكروا ذلك منه وناصبوه العداء ، وساءهم أن بعض أشرافهم قاموا بحمايته وأبرزهم عمه أبو طالب .

وكان لزعماء مكة المذكورين شأن كبير في نفوس أكثر أهل مكة ، بل في نفوس قبائل العرب ، وقد بلغ تعظيم أتباعهم لهم في مكة حد العبادة حيث خضعوا لهم في القوانين التي كانوا يؤمنون بها ويحمونها وينفذونها ، فكان من أعظم مَهامّ النبي ﷺ في دعوته أن يزيل من النفوس ما وقر فيها من تعظيم هؤلاء الطغاة ، وأن يمحو من القلوب أي حب أو تقدير لهم ، لأن تمكن محبتهم وتعظيمهم في القلوب يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وتعظيمه ، وبالتالي يتشكل سلوك الناس في الحياة وتصوراتهم على ما يرسخ في القلب من المعتقدات .

لقد كان من أول ما يتخلى عنه المؤمنون بالإسلام آنذاك أن ينفضوا من قلوبهم أي غبار علق بها من الولاء للأصنام أو للطغاة الذين يحاولون أن يتحكموا في مصائر الناس وأن يحددوا لهم المعتقدات التي يؤمنون بها والسلوك الذي يسيرون عليه في الحياة .

ولقد كان الرجل يمسي كافراً وقلبه عامر بحب أولئك الأوثان من

الحجارة وطغاة البشر ، ثم يصبح مؤمناً وقد محا من قلبه أي وجود لتلك الأوثان .

ولقد كان من مظاهر ولاء الكفار لطغاتهم أنهم كانوا يُكثرون من الثناء عليهم وذكر محاسنهم ويغضُّون الطرف عن مساوئهم ، بل كانوا يسّوغون مساوئهم ويحوّلونها إلى محاسن ومحامد .

لقد كان أولئك الطغاة يقودون قومهم إلى الضلال في الدنيا والنار في الآخرة رغم وضوح الحق لهم واعتراف بعضهم بذلك ، ومع ذلك يتبعهم عامة الناس إلى هذه الحياة المظلمة والمصير المهلك ، وقد ألغوا عقولهم وحصروا تفكيرهم في محاولة كسب رضا أولئك الطغاة والحصول على شيء مما يجري على أيديهم من متاع الدنيا الزائل ، أو كسب الجاه الوهمي الذي يحاول الطغاة رفعهم إليه .

ولقد كان يحصل من أولئك الطغاة غالباً تمجيد لأولئك الأتباع الذين يسيرون في ركابهم ، وثناء عليهم بذكر فضائلهم ، وما ذاك إلا لأن الطغاة لايقوم وجودهم إلا على أتباعهم من عموم الناس ، فإذا فقدوا هذه القاعدة سقطوا ، فوجود كل من الطائفتين مرتبط بوجود الطائفة الأخرى .

وكما أن العامة محتاجون إلى الطغاة في بعض أمور معاشهم وتَبوُّء المكانة الاجتماعية التي يطمحون إليها فإن الطغاة محتاجون إليهم لأنهم

الركيزة التي يقوم عليها مجدهم ، بل إن حاجة هؤلاء إلى العامة أعظم وأهم ، لأن وجود مجدهم يقوم على أولئك العامة بينما يستطيع العامة لو عقلوا وتفكروا أن يتخلوا عنهم وأن يبحثوا عن ما يحقق مصالحهم في الدنيا والآخرة .

وهكذا فعل المؤمنون في مكة حيث حرروا أنفسهم من أوهام الجاهلية ومن ربقة تبعية أولئك الطغاة ، فأصبحوا ينظرون إليهم بازدراء واحتقار ، ويعتبرونهم من معالم الوثنية التي جاء الإسلام للقضاء عليها وتحرير عقول الناس منها .

إن ما قام به رسول الله ﷺ من تحرير عقول الناس من تبعية طغاة البشر قد أتاح لهم فرصة عظيمة من التفكير والإبداع في هذه الحياة ، فليس أمام المؤمنين من يطلبون رضاه ويجتنبون سخطه إلا الله تعالى ، ثم هم بعد ذلك يتحركون غير مقيدين بالخضوع لبشر مثلهم ، وإن كان الإسلام قد أوجب عليهم طاعة ولاتهم فإن ذلك من طاعة الله جل وعلا ، ما دام الجميع خاضعين لذلك المبدأ العظيم وهو طلب رضوان الله تعالى واجتناب سخطه .

* * *

مواقف في هجرتي الحبشة الأولى والثانية

لقد اشتد أذى المشركين على المسلمين في مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة من ذلك ، ولقد واجه المسلمون ذلك الأذى بالصبر الجميل ، ولكن المشركين أصبحوا يضاعفون من ذلك الأذى كلما تقدم بهم الزمن ورأوا أن كفة المسلمين تعلو شيئاً فشيئاً بدخول بعض أشراف أهل مكة في الإسلام .

فلما رأى النبي ﷺ ذلك وجه أصحابه إلى الهجرة ليسلموا من الأذى وليعبدوا الله تعالى في حرية ، وليقوموا بنشر الإسلام في بلاد أخرى ، وقد اختار لهم الحبشة لما اشتهر عن حاكمها من العدل والرحمة .

وقد أخرج أهل السير خبر الهجرتين ، ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال : حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : لما ضاقت مكة وأوذي أصحاب رسول ﷺ وهو لايستطيع دفع ذلك عنهم وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه ، لايصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لايُظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »[1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٦٧ .

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق هذا الخبر ولم يذكر إسناده وذكر فيه أسماء العشرة الذين خرجوا في الهجرة الأولى ، وقد اصطحب بعضهم نساءهم [1] .

وأخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن الحارث بن الفضيل ورجل من بني ظفر قالا : فخرجوا متسللين سراً وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي ، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار ، حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حيث نُبِّئَ رسول الله ﷺ ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا [2] .

وفي هذا الخبر زيادة على ماذكر ابن إسحاق بيان تاريخ هذه الهجرة ، ومطاردة قريش لهم وعدم ظفرهم بهم .

وذكر الحافظ ابن حجر أن مخرجهم كان في شهر رجب من السنة الخامسة ، ونسبه إلى أهل السير [3] .

ثم ذكر ابن إسحاق رحمه الله خبر الهجرة الثانية مطولاً من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٠ .
(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٤ .
(٣) فتح الباري ٧/ ١٨٨ .

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشيَّ ، أمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لانُؤْذى ولانسمع شيئاً نكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدَين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدم[1] ، فجعلوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه ، ثم سَلاَه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بِطْريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، وقالا لكل منهم : إنه ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردوهم

---

(١) يعني الجلود .

إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولايكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي .

قالت : فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسْلِمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال : لاها الله ، إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولايُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني » .

هذا خبر مهم فيه كشف مخططات الأعداء التي يدبرونها للقضاء على المسلمين ومواقف عالية في عدالة الحكام ، ومواقف إسلامية عالية من الصحابة رضي الله عنهم في التمثيل الصادق للإسلام ، ثم نتائج باهرة في صمود أهل الحق واعتزازهم بدينهم ، ونتائج فاضحة لأهل الباطل في كيدهم لأهل الحق .

ونبدأ بالإشارة إلى المخطط الأثيم الذي رسمه زعماء الكفر في مكة آنذاك لإرغام المسلمين على العودة والبقاء تحت سياط الذل والتبعية الممقوتة .

وإنه لعجيب أن يلاحق الكفار المسلمين خارج بلادهم ، وكأنهم رأوا أن حرية العبادة التي سعدوا بها في أرض الحبشة لايجوز أن يهنئوا بها وهم قد خرجوا عن الإطار العام الذي رسمه الطغاة في مكة لأبناء قبائلهم ومن حالفهم أو صار مملوكاً لهم ، وهذا مثال لنوع من التفكير المحدود ، وضيق الأفق الذي يعيش فيه الطغاة في كل زمن ، حيث يقفز إلى أذهانهم تصورات طائشة مبنية على الشعور بأن خروج طائفة من متبوعيهم عن الإطار المرسوم يعتبر إهانة لهم ، وعدم اعتراف بسلطتهم ، وبالتالي يتطور هذا الشعور إلى التفكير بإمكان قيام هؤلاء بعمل مضاد ، وإن كانوا لا دولة لهم ولاسلطان ، فيحملهم ذلك على المزيد من الملاحقة والمتابعة .

ولذلك رأينا زعماء الكفر حاولوا إعادة المهاجرين إلى مكة المكرمة ليعيشوا تحت سلطانهم ، فقام الطغاة بتشكيل الوفد المذكور الذي يضم عمرو بن العاص رضي الله عنه ، الذي يعتبر أعظم دهاة العرب كما شهد له عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما وجهه لحرب داهية الروم «أرطبون» فقال : رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمَّ تنفرج .

وأعدوا مجموعة من الهدايا للملك الحبشة ووزرائه ، واختاروا الجلود المدبوغة ، لأنها أنفس شيء يأتي إلى الحبشة من بلاد العرب ، ولقد أحسنوا إعداد الخطة ، حيث أجادوا اختيار الوفد ، ووجهوا عضوي الوفد إلى الاتصال أولاً بالوزراء وتقديم الهدايا لهم ، وشرح القضية أمامهم ليكسبوهم إلى صفهم فيما إذا بحث الوفد القضية مع النجاشي .

كما أن من بنود الخطة أن يحاول الوفد ا لتأثير على النجاشي ليُصدر حكمه دون أن يسمع كلام المسلمين ، وذلك لعلمهم بأن المسلمين يملكون من الحجة والقوة المعنوية ما لايملكه غيرهم وإن كان خصمهم آنذاك عمرو بن العاص ، لكنه بعد أن أسلم زاده الإسلام عظمة وتفوقاً ، وأصبح رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده يُعدونه لعظائم الأمور .

لقد اتفق وفد قريش ووزراء النجاشي على الخطة ا لأثيمة التي

تقضي بتسليم المسلمين بدون استجواب ، وبدون أن ينالوا حريتهم في التعبير عن أنفسهم ومايريدون ، وهي خطة جاهلية درج عليها الطغاة من قديم الزمن ، ولم ينكرها وزراء النجاشي لأن ملوكهم السابقين كانوا على درجة من الطغيان ، فقد كان مألوفاً عندهم أن يؤخذ فرد أو أفراد فيحكم عليهم غيابياً ، وينفذ الحكم من غير حضورهم ولاتمكّنهم من الدفاع عن أنفسهم .

وهكذا حينما يتمكن الطغيان من النفوس يرى أصحاب السلطة أن الأمر بيدهم ، فإن شاؤوا أعطوا الحريات ، وإن شاؤوا منعوها ، وحينما يخشون من الاعتراض عليهم فإنهم قد يعرضون قضايا المتهمين في المحاكم ، ويقومون بأدوار تمثيلية متقنة ، توهم العالم أنهم يعطون حرية الكلمة والدفاع عن النفس ، ثم هم ينفذون ما يمليه عليهم طغيانهم ، إذ أن الطغاة من البعيد جداً أن يتنازلوا عن مظاهر الطغيان إلا بقوة قاهرة تنقلهم من الجو المتعفن الذي يعيشون فيه إلى جو آخر يضطرون فيه إلى التنازل عن بعض ما في نفوسهم من الجبروت والترفع ، أو يزولون ويزول معهم طغيانهم .

وهكذا كان وقوف النجاشي وحده وإصراره على منح المسلمين حرية الكلمة هو الذي أنقذ الله تعالى به أولئك الصحابة رضي الله عنهم ، ولقد زال الطغاة أو زال طغيانهم بدخولهم في الإسلام وبقيت

مظاهر العدالة التي سطرها التاريخ للنجاشي شاهدة على ما للعدالة من بقاء وخلود .

وأخيراً خضع وزراء النجاشي لرأيه الذي يمثل العدالة والوفاء .

«قالت أم سلمة رضي الله عنها : - ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علَّمَنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ماهو كائن » .

وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم ، وكل أمر يتم عن طريق الشورى فهو أدعى إلى نجاحه ، لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة .

وإن من مظاهر السمو التربوي في هؤلاء الصحابة أنهم لم يختلفوا ، بل أجمعوا على رأي واحد ، هو أن يعرضوا الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ كائناً في ذلك ماهو كائن ، وإن هذا الاجتماع يعتبر ثاني خطوة من خطوات النجاح بعد الشورى .

هذا وإن الذي أجمعوا عليه يعتبر دليلاً على قوة توحيدهم واستسلامهم لله تعالى ، حيث عزموا على عرض الإسلام بعزة وإن كان في ذلك هلاكهم ، ولم يجعلوا لآرائهم واجتهاداتهم مدخلاً في ذلك الأمر لوضوحه ، حيث كان الأمر إما أن يَعرضوا الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى ، أو أن يسلكوا سبيل المداهنة فيعرضوا منه ما يوافق

هوى ملك الحبشة ووزرائه ، وفي هذا سلامتهم في ظاهر الأمر ، لكنهم لقوة توحيدهم لم ينظروا إلى موضوع سلامتهم في الدنيا ، وإنما نظروا إلى سلامتهم في الآخرة ، فعزموا على عرض الإسلام كاملاً وعدم المداهنة .

وجاء في رواية أخرجها الحاكم والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا للنجاشي : إنهم - يعني المسلمين - لايسجدون لك ، قال : فلما انتهينا إليه زَبَرَنَا مَنْ عنده : اسجدوا للملك ، فقال جعفر : لانسجد إلا لله ، فقال النجاشي : وماذاك ؟ قال : إن الله بعث فينا رسوله وهو الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فأمرنا أن نعبد الله ولانشرك به شيئاً . . . الحديث[1] .

وهذا موقف عظيم من مواقف الاعتزاز بالإسلام والمحافظة على سلامة التوحيد ، مع رهبة الموقف الذي كانوا فيه ، حيث إن الأمر يتطلب في حياة الناس المعتادة أن يسلك جعفر وأصحابه طريق المداراة ، ولو أدى ذلك إلى المداهنة ، ولكن المؤمنين حقاً لايفعلون ذلك بل يمثلون الحق الذي أمرهم به دينهم مهما حصل عليهم من أذى ، وكذلك فعل المؤمنون

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٠٩ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي مجمع الزوائد ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - ٦/ ٣٠-٣١ - .

في الحبشة رضي الله عنهم ، وقد سخر الله تعالى قلب النجاشي فكان نعم النصير والحامي لهم، وكان لهذا الموقف الشجاع وأمثاله من جعفر رضي الله عنه الأثر الكبير في قناعة النجاشي بالإسلام .

إنه لابد من الدعوة إلى الإسلام بكل مافيه من قوة وتميز وإن أنكره الناس في أول الأمر ، فإن قوة إصرار دعاته على تطبيقه والاستعلان به مع مخالفة التيار العام لهم يدفع المخالفين والحيارى ومن خلت أذهانهم من أي دين إلى التفكير الجاد في دوافع هذا الإصرار القوي ، وفي النهاية يهديهم التأمل الدقيق والتفكير السليم إلى عظمة هذا الدين الذي يدفع معتنقيه إلى المجابهة والمغامرة بالأنفس والأموال .

قالت أم سلمة رضي الله عنها في سياق روايتها : « فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم : ماهذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؛ ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ،

ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدَّقناه وآمنَّا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وأفتتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك » .

وهكذا سألهم النجاشي عن دينهم الجديد الذي خالفوا فيه دين قومهم وجميع الأديان ، فكان جواب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مشتملاً على أمرين مهمَّين : أولهما نقد الدين الذي تحولوا عنه وهو الوثنية ، والثاني الإشادة بالدين الذي هداهم الله تعالى إليه وهوالإسلام وهكذا يكون الحوار الناجح . . البدء بالتخلية قبل التحلية .

فقد بدأ بتفريغ الأذهان من تصور أي صلاح وخير في دين الوثنية ، وركز في ذلك على عبادة الأصنام ، وهي انحدار فكري سحيق .

وذكر أكل الميتة ، وهو أمر تتقزز منه النفوس الطيبة .

وذكر إتيان الفواحش ، وهو أمر تنفر منه الطباع السليمة .

وذكر قطع الرحم وإساءة الجوار ، وهي أخلاق تتنافى مع خلق الوفاء الذي تنشده الأمم في شعوبها .

وذكر عدوان القوي على الضعيف ، وهذا هبوط عن مرتبة الإنسانية إلى الحيوانية ، حيث إن من سمة الحيوانات المفترسة العدوان على الحيوانات الضعيفة وافتراسها .

ثم أشاد بدين الإسلام الذي هداهم الله إليه ، فأثنى أولاً على رسول الله ﷺ الذي عن طريقه كانت هذه الهداية ، حيث ذكر أنه منهم يعرفون نسبه ونشأته فليس غريباً عنهم ، ووصفه بالصدق والأمانة والعفاف ، وهذه من أصول مكارم الأخلاق التي تقاد بها الأمم والشعوب إلى الخير والرشاد .

ثم ذكر موجزاً لدعوته استفتحه بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك .

وإنه لفرق هائل بين من يدعوك لعبادة مدبر الكون وخالق الأرض والسماوات الذي يملك إماتة الناس وإحياءهم ورزقهم . . ومن يدعوك إلى من هو دونه ولايمكن أن يوضع معه في مفاضلة ، حيث يدعوك إلى عبادة أصنام من الشجر والحجر لاتسمع ولاتبصر ولاتضر ولاتنفع .

ثم ذكر ما دعا إليه من مكارم الأخلاق التي تقوم عليها الحياة الكريمة ، وتنتظم بها أمور الأمة من صدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار .

ثم أشار إلى ما دعا إليه من الكف عن مساويء الأخلاق التي تعوق قيام المجتمع الصالح وتفرق بين أفراد الأمة وتغذي حياة الفوضى والاضطراب ، فذكر الكف عن المحارم والدماء ، واجتناب الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات البريئات بالفاحشة .

ثم ذكر إيمانهم بهذا الدين الحنيف ، وتطبيقهم ما جاء فيه من تكاليف ، وما قام به قومهم من العدوان عليهم ليعيدوهم إلى الوثنية ، وأن هذا هو الذي دفعهم إلى الهجرة ، وأشاد بجوار النجاشي ، وبين أن الذي حملهم على اختيار بلاده رجاؤهم التمتع بعدله المشهور .

وهكذا جاء بيان جعفر الذي قوض به أركان الجاهلية وكشف زيفها ، ثم شرح مقاصد الإسلام العالية التي يؤمن بسموها كل ذي عقل سليم مجرد من اتباع الهوى المنحرف .

وكان هذا البيان الرائع مقدمة لتلاوة آيات من كتاب الله تعالى كان لها الأثر النهائي في حسم الموقف لصالح دعاة الحق ، وهذا ما بينته أم سلمة في روايتها حيث قالت : « فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، قالت : فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) » .

ولم يرد في الخبر تحديد نهاية الآيات التي قرأها ولكن يظهر من سياق القصة أنه قد أكمل ايات قصة مريم في خبر ولادتها بعيسى عليهما السلام وما جرى منه من خطاب قومه أنذاك ، حيث كان إيراد القصة هو سبب بكاء النجاشي وأساقفته (١) .

---

(١) وهي قوله تعالى ﴿ كهيعص . ذِكرُ رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال ربِّ إني وَهَنَ العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإني خفت الموالي من وراءي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليّاً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضيا . يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سَمِيّاً . قال رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عِتِيّاً . قال كذلك قال ربك هو عليّ هَيِّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويّاً . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بُكرةً وعشيّاً . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنّاً وزكاة وكان تقيا . وبَرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سَوِيّاً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لِأَهَبَ لك غلاما زكيا . قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بَغِيّاً . قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيّاً . فحملته فانتبذتْ به مكانا قَصِيّاً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نِسْياً منسيّاً . فناداها مِنْ تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّاً . وهزّي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطبا جَنِيّاً . فكلي واشربي وقَرّي عينا فإما تَرَيِنَّ من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِيّاً . يا أخت هارون ما كان أبوك امْرأَ سَوْءٍ وما كانت أمك بَغِيّاً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا . وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ سورة مريم ١ - ٣٣ .

ولقد كـان جعفر رضي الله عنه حكيمـاً حينما أعـرض عن قـراءة الآيات التي تلي هذه الآيات حيث إنها تشتمل على الرد على النصارى في ادعـائهم أن عـيسى ابن الله جل وعـلا عن ذلك ، لأنه كـان في مقـام الدعوة ولـم يكن في مقـام الجدل وبيان الحق في هذه القضـية ، هذا على فرض أن السورة قد نزلت كلها في ذلك الوقت .

ولكن ما تحاشاه جعفر قد كادهم به عمرو كما سيأتي .

« قـالت : فـبكى والله النجـاشي حتى اخـضلت لحـيتـه ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجـاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة [1] ، انطلقا فو الله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون » .

وهكذا كـان اختيار جعفر بن أبي طالب موفقاً حيث اختار الآيات التي تتحدث عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام أمام قوم يعظمونهما كثيراً ، وكان من آثار حسن الاختيار ، إلى جانب حسن العرض وصدق النية أن تأثر ذلك الملك ووزراؤه فبكوا جميعاً .

وهذا الموقف من النجاشي يدلنا على مدى وضوح دعوة النبي ﷺ أمام أهل الكتـاب ، فلقـد عرف أنه النبي الذي ذكـر في كـتبـهم المقـدسـة ، وأنه ينزل عليـه جبريل عليـه السـلام الذي كـان ينزل على مـوسى عليـه

---

(١) أي من مصدر واحد ، والمشكاة المكان الذي توضع فيه المصابيح .

السـلام ، مع أنه لـم ير النبي ﷺ ولـم يعش معـه ، فكيـف بأهل الكتـاب الذين عاشوا معه في المدينة واطلعوا على معجزاته وصاحبوا التنزيل ؟!.

وإنه لموقف رائع أن يبلغ التـأثير على تلك الطبـقة الراقـية إلى حد البكاء ، مما يدل على تفوق ظاهر عند المسلمين أنذاك في مجال الدعوة .

وهكذا يجب على الدعاة أن يغتنموا الفرص المناسبة ، وأن يختاروا الموضوعات الملائمة مع ملاحظة صدق النية وحسن العرض .

« قالت - أم سلمة - فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم » .

« قـالت : فـقـال له عـبـد الله بن أبي ربيعـة - وكـان أتقى الرجلين فـينا - : لاتفـعل فـإن لهم أرحـامـاً وإن كـانوا قـد خـالفـونا ، قـال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

« قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه » .

وهكذا تفتقت عبقرية عمرو بن العاص عن مكيدة قاتلة للمسلمين لولا أن هيأ الله لهم وجود ذلك الملك العادل ، إذ إن اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام مناقض تماماً لما عليه النصارى في دينهم المحرف ، حيث يعتقد المسلمون أنه عبد الله ورسوله ، ويعتقد النصارى أنه ابن الله تعالى .

وحينما علم المسلمون بذلك اشتد عليهم الأمر وعظم كربهم حينما أرسل إليهم الملك ليسألهم عن اعتقادهم في عيسى عليه السلام .

« قالت – أم سلمة – فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله تعالى وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ماهو كائن » .

وهكذا اجتمع الصحابة وتشاوروا في الأمر ، وتساءلوا عما يقولونه للنجاشي إذا سألهم عن ذلك ، وقد أجمعوا على أن يقولوا له ما قال الله تعالى وماجاءهم به رسوله ﷺ كائناً في ذلك ما يكون .

وهذه هي المرة الثانية التي يجتمعون فيها ويتشاورون ثم يجمعون على رأي واحد . . فلله درهم ما أعلى تربيتهم ، وما أقوى إيمانهم ، وما أعز نفوسهم ! .

لقد صبروا قبل ذلك في مكة على قهر الطغاة وإذلالهم وتعذيبهم ، فهل هاجروا منها إلى الحبشة ليغيروا شريعة الله لمجرد مساءلة ستكون بينهم وبين النجاشي ؟! .

وليُفتَرض أنه سيقتلهم ، أو في أحسن الأحوال سيسفّرهم من بلاده ، فإنهم قد استعدوا لتحمل كل ما ينتج عن قول كلمة الحق كائناً في ذلك ما يكون .

وهكذا يكون الإيمان القوي . . . وهكذا تكون الاستقامة .

« قالت - أم سلمة - : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه [١] وكلمته [٢] ألقاها إلى مريم العذراء البتول [٣] » .

« قالت : فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود » .

« قالت : فتناخرت [٤] بطارقته حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم : الآمنون - من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دَبْراً [٥] من ذهب وأني آذيت رجلا منكم .

ثم قال : ردوا عليهما هداياهما - يعني مندوبي قريش - فلا حاجة لي بها ، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه .

---

(١) يعني جعله روحا لمن أرسل إليهم .
(٢) يعني أنه خلق بقوله الله تعالى « كن » .
(٣) العذراء التي لم تتزوج ، والبتول المنقطعة لعبادة الله تعالى .
(٤) يعني أخرجوا اصواتا من مناخرهم ا ستنكاراً لما سمعوا .
(٥) قال ابن هشام : « ويقال : دِبْراً من ذهب ، ويقال : فأنتم سيوم ، والدبر بلسان الحبشة : الجبل » .

« قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار ، مع خير جار » .

وهكذا نطق هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بالحق ولم يخافوا في الله لومة لائم ، ولم يساوموا في أمور دينهم ، ولم يداهنوا مع أنهم في موقف الضعف ، وقد نزل بهم هذا الأمر العظيم الذي أهمهم وأقلقهم .

وبهذا تبين لنا من هذا الخبر كيف كان المسلمون الأوائل يتعرضون للأذى والكيد من اعدائهم ، وكيف كان سلوكهم في مواجهة الكيد ، إنهم لم يكونوا يستسلمون لأعدائهم ويداهنونهم ، وفي الوقت نفسه لم يكونوا يقاومون بالقوة والعنف وحالهم لاتسمح لهم بذلك ، بل كانوا يقاومون بالصبر على الأذى مع عرض ما يدعون إليه بالبيان الرائع الذي يمتلك القلوب ، ويجبر كل متجرد من الهوى الجامح على أن يميل إليهم ويعطف عليهم .

ولقد كانوا في كل محاوراتهم مستسلمين لله تعالى مفوضين إليه أمرهم فيما يكون من نتائج ، حيث لم تكن هذه النتائج تشغل بالهم ، وإنما الذي كان يشغل بالهم هو أن يوفقوا في عرض الإسلام كاملاً نزيهاً كما جاء من عند الله تعالى ، وهم يؤمنون أنهم ومن يحاورونهم في قبضة الله تعالى ، وأنه قادر على أن يسخر لهم خَلْقَه ليتم بهم نصر الحق وتأييد دعاته .

وهكذا سخر الله تعالى لهذه الفئة المؤمنة قلب النجاشي ، فنطق بالاعتراف بموافقة ماجاء في القرآن في شأن عيسى عليه السلام كما جاء في الإنجيل الصحيح ، وهذا أمر يصعب الاعتراف به لأن من لهم الهيمنة من النصارى لايعتقدون بذلك ، وقد جر عليه هذا الاعتراف متاعب من قومه ، وهو يعلم قبل النطق بذلك صعوبة هذا الأمر ، ولكن الله تعالى أنطقه بذلك نصرا لهذه الفئة المؤمنة ، وإعزازاً للإسلام ، وخذلانا للشرك وأهله ، فقد عاد وفد قريش بأسوأ حال وهما يجران أذيال الخيبة ، ويحملان معهما الهدايا التي رفض النجاشي قبولها ، وعاد المؤمنون المهاجرون بالعز والمنعة والأمن والطمأنينة .

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن عمرو بن العاص قد أسلم بعد ذلك ، وأصبح من زعماء المسلمين الذين فتح الله بهم البلاد وهدى بهم العباد رضي الله عنه وأرضاه .

هذا وإن هذا الموقف يعتبر مثالاً تطبيقيا لقول رسول الله ﷺ « من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » أخرجه الإمام الترمذي وسكت عنه وحسنه السيوطي وصححه الألباني [1] .

---

(1) سنن الترمذي ، آخر كتاب الزهد « تحفة الأحوذي ٧/ ٩٧» .
الجامع الصغير ٦/ ٥١ رقم ٨٣٩٤ .
صحيح الجامع الصغير رقم ٥٩٧٣ « ٥/ ٢٥٨» .

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضى الله عز وجل ، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية.سخط أولئك النصارى ، وهم الذين لهم الهيمنة عليهم ، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخر لهم قلب ملك الحبشة حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي ﷺ مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف الذي قام عليه مُلكُهم ، وما يغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين عليه .

فأي قوة هذه التي حملت ملك الحبشة على مخالفة المذهب السائد في بلده والذي يترتب على التمسك به بقاؤه في الملك ، مع إظهار موافقة قوم لا شأن لهم في بلده ولاقوة . . أي قوة هذه إن لم تكن تسخير الله تعالى إياه لنصرة قضية هؤلاء المسلمين ؟ .

وهذا دليل على أنه كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم ، ولكنهم يكتمون ذلك لكون الغلبة والسيادة في الأرض لأصحاب الدين المحرف ، ومن الذين كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة ، وكان يُخفي إيمانه هذا مداراة لقومه إبقاء على نفسه وملكه ، فلما وقع في هذا الابتلاء أظهر إيمانه ، حيث أصبح بين أمرين : الأمر الأول أن يداري قومه وينكر على هؤلاء الصحابة اعتقادهم في عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام ، وهذا يلزم عليه جحد الحق ، وكيف يجحد الحق وهو أعلى رجل في الدولة ؟ كما يلزم عليه أن يبعد المسلمين من بلاده لكونهم طعنوا

في معتقد النصارى السائد ، ولو لم يفعل ذلك فإن رجال دولته لن يقروا بقاء المسلمين وقد قالوا ما قالوا .

والأمر الثاني : أن يظهر اعتقاده الصحيح الموافق لاعتقاد المسلمين إرضاء لربه وإراحة لضميره وانتصاراً لحزب الله المؤمنين مهما ترتب على ذلك من نتائج .

وهذا الأمر هو الذي سلكه من غير تردد ، وتحدى به علماء دينه ، ورجال دولته ، فكان بهذا الموقف الكبير من عظماء التاريخ .

ولقد حدث ما كان متوقعاً من قيام الثورة ضد ذلك الملك الصالح عقب تلك المفاوضات المذكورة .

« قالت - أم سلمة - : فو الله إنا لعلى ذلك إذ نزل به - يعني النجاشي - رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، قالت : فو الله ما علمتنا حَزِنًا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزنّاه عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لايعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

قالت : وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل .

قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مَنْ رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالوا : فأنت ، وكان من أحدث القوم سِنًّا .

قالت : فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه ، والتمكين له في بلاده .

قالت : فو الله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع علينا الزبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ، ومكن له في بلاده ، قالت : فو الله ما علمتُنا فرِحْنا فرحة قط بمثلها .

قالت : ورجع النجاشي ، وقد أهلك الله عدوه ، ومكن له في بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة [1] ، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة [2] .

---

(١) أي اجتمعوا عليه واستقر له الملك .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٦ ، السير والمغازي لابن إسحاق/ ٢١٣ .
وأخرجه الإمام أحمد - مسند أحمد ٥/ ٢٩٠ ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٣٠٩ - وقال الحافظ ابن كثير : هذا إسناد جيد قوي - السيرة النبوية لابن كثير - ٢/ ١١ - .
وحسن الحافظ ابن حجر إسناد الإمام أحمد - فتح الباري ٧/ ١٨٩ -
وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع - مجمع الزوائد ٦/ ٢٧ -

وقول أم سلمة رضي الله عنها : « حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة » تريد من قدم منهم إلى مكة وكانت معهم ، أما بقيتهم فقد قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة عام خيبر وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

ويبين ذلك ما جاء في رواية البيهقي لهذا الخبر حيث جاء في آخره : « ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعا إلى مكة وأقام من أقام » [1] .

وهكذا قام الزبير بن العوام رضي الله عنه برحلة الاستطلاع النهرية، وهذا مثل من أمثلة شجاعته المبكرة وقد أثبت التاريخ بعد ذلك أنه رجل المغامرات والأهوال .

ولقد كان هناك احتمال كبير لأن يصاب في أثناء المعركة أو بعدها خصوصاً لكونه من العرب وللاحتمال الظاهر من أن المعركة قامت بين النجاشي والمتمردين من قومه بسبب مخالفته معتقداتهم في عيسى عليه السلام وتصريحه بأن ما قاله جعفر في ذلك هو الدين الحق ، ولكن الزبير كان يملك نفسا وثابة نحو المخاطر قد بُنِيَتْ على إيمان قوي بقضاء الله تعالى وقدره فأقدم على تلك الرحلة وطمأن المسلمين على مصير تلك المعركة .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٠٤ .

أما أولئك المسلمون الصالحون فإنهم قد قاموا بما يستطيعون من نصرة النجاشي ، حيث استعملوا السلاح الذي كان بإمكانهم أن يستعملوه ، وهو الدعاء ، وأكرمْ به من سلاح يمضي في سُدول الليل فيعطي مفعوله في تخذيل الأعداء وهزيمتهم ، لأن جميع المخلوقين في قبضة الله جل وعلا وتحت مشيئته فإن شاء نصر المسلمين ومن يناصرهم وإن كانوا قلة ، وإن من أسباب تَنَزُّل نصره تعالى ارتفاع دعاء المؤمنين الصادقين .

وهل يشك متأمل في بلوغ أولئك الصحابة أعلى درجات الصدق واليقين ؟

ولذلك فإن مما يوافق سنن الله تعالى أن ينزل نصره على النجاشي استجابة لدعاء هؤلاء المؤمنين الصادقين .

هذا وقد روى أبو نعيم الأصبهاني هذه الأخبار وغيرها ، وقال بعدها : وكل هذه الروايات عمَّن لايدفع عن صدق وفهم .

ومن الإضافات التي اشتملت عليها هذه الروايات ماجاء في رواية عروة بن الزبير أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا عن رسول الله ﷺ : إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا وأفسد فينا تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ، ونحن لك ناصحون ، وأنت لنا عَيْبة صدق ،

تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف وتأمن تجارنا عندك ، فبعَثنا قومُنا إليك لننذرك فساد ملكك (١) .

وفي هذه الإضافة دليل على أن وفد قريش لم يقتصر على مجرد المطالبة بإعادة المسلمين المهاجرين لمصلحة تخص بلادم وقومهم ، وإنما اتهموهم بإفساد بلادهم وحذروا ملك الحبشة منهم حتى لا ينتقل إفسادهم إلى ملكه وبلاده .

وهكذا نجد دعاة الباطل وحماته في كل زمن يصورون دعاة الحق المصلحين على أنهم من المفسدين في الأرض ، وذلك لفساد تصور أهل الباطل وانقلاب مفاهيمهم حول مقومات الإفساد والإصلاح وصفاتهما المحددة لهما .

فالإصلاح في نظر هؤلاء يقوم على اعتبار تحقيق أهواء الزعماء المهيمنين على البلاد سواء كانوا مستقلين في نظراتهم للأمور وحكمهم أو كانوا خاضعين لمن هو أقوى منهم ، فما وافق رأي هؤلاء الزعماء الأحياء منهم والأموات فإنه هو الإصلاح في الأرض ، وما خالفه فهو الإفساد في نظرهم ، ولذلك كان كلام وفد قريش مركزا على بيان مخالَفة المسلمين لما عليه الملأ من قومهم وماورثوه من أسلافهم بغضِّ النظر عن كونه حقا في ذاته أو باطلا .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٨٠ - ٨٤ .

وهذا يعتبر نوعا من الانغلاق الفكري وتحجيم الطاقات البشرية عن الانطلاق والبحث عن المستويات العليا من المبادئ والمثل .

ولقد كان ملك الحبشة على المستوى العالي من النظر والتأمل حيث قارن بين دعوة المسلمين ودعوة المشركين فرأى بوْناً شاسعا بين الدعوتين ، يتمثل في ارتفاع إلى أعلى درجات السمو في دعوة الإسلام ، وهبوط إلى أسفل دركات الانحطاط في دعوة الشرك فكان بكل قوته وطاقاته في صف الإسلام والمسلمين .

وإن النجاشي ليعتبر مثالا عاليا في التحري والتدقيق والبحث عن حقائق الأمور حيث لم يستفزه وفد الكفار ولم تستخفه دعواهم على المسلمين بأنهم سيفسدون عليه ملكه .

ولقد كان أقل تصرف سيفعله الذين لايتصفون بالعدالة أن يأخذوا الاحتياط لملكهم ودولتهم بإبعاد أولئك المتهمين ، خاصة وأن دولة الحبشة لاتستفيد أي شيء من إقامتهم فيها ، ولكن لفرط احساس ذلك الملك بفظاعة الظلم ودقة تحريه للعدالة لم يُقدم على هذا التصرف القاصر الظالم ، بل أرعى سمعه للطرفين حتى استوعب القضية وبان له وجه الحق فصرح بنصر الحق وأهله بالرغم من إدراكه نتائج ذلك المحرجة له أمام زعماء دولته .

فلله دره ! ما أعظمه من عالم دقيق العلم بخفايا الأمور ونتائجها وحاكم عادل لاتستهويه قوى البشر المبنية على الجبروت والطغيان ! .

ولا ننسى في ختام هذا المقال أن نثبت شرفه الكبير باعتناق الإسلام ، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى فرحمه الله رحمة واسعة .

أما قوله « فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي » فيبينه ما أخرجه ابن إسحاق عن الزهري رحمهما الله قال : فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال : هل تدري ما قوله : « ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه ؟ » قال قلت : لا ، قال : فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلا النجاشي ، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلا ، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة ، فقالت الحبشة بينها : لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهرا، فغدوا على أبي النجاشي فقتلوه ، وملّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا .

ونشأ النجاشي مع عمه وكان لبيبا حازما من الرجال ، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها : والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإنا لنتخوف أن يملّكه علينا ، وإن ملّكه علينا لَيَقْتُلَنَّا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه ، فمشوا إلى عمه

فقالوا : إما أن نقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفنا على أنفسنا ، قال : ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم .

قالت : فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم ، فقذفه في سفينة فانطلق به ، حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

قالت : ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمق[1] ، ليس في ولده خير ، فمرج على الحبشة أمرهم ، فلما ضاق عليهم ماهم فيه قال بعضهم لبعض : تعلَّموا ، والله إن مَلككم الذي لايقيم أمركم غيره لَلَّذي بعتم غَدْرَةً ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن .

قالت : فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذي باعوه منه ، حتى أدركوه فأخذوه منه ، ثم جاؤوا به ، فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك ، فملَّكوه .

فجاءهم التاجر الذي كان باعوه منه فقال : إما أن تعطوني مالي ، وإما أن أكلمه في ذلك ؟ قالوا : لانعطيك شيئاً قال : إذاً والله أكلمه ، قالوا : فدونك وإياه .

قالت : فجاءه فجلس بين يديه فقال : أيها الملك ابتعت غلاماً من

(١) الضمير يعود على النجاشي ، والمحمق بكسر الميم هو الذي يلد الحمقى .

قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إليّ غلامي وأخذوا دراهمي ، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي .

قالت : فقال لهم النجاشي : لتعطنَّه دراهمه أو ليضعنَّ غلامه يده في يده فليذهبنَّ به حيث شاء ، قالوا : بل نعطيه دراهمه .

قالت : فلذلك يقول : ما أخذ الله مني رشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه .

قالت : وكان ذلك أول ما خُبِر من صلابته في دينه وعدله في حكمه (1) .

هذا وقد جاء في خبر آخر ما يدل على أن رجال دولة الحبشة ظلوا غاضبين على النجاشي لقوله عن عيسى عليه السلام بأنه عبد الله ، وفي ذلك يقول ابن إسحاق : وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال : اجتمعت الحبشة ، فقالوا للنجاشي : إنك قد فارقتَ ديننا وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه ، فهيأ لهم سُفُنًا ، وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ثم عَمَدَ إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

---

(1) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥١ - ٣٥٤ .
وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحوه - مسند أحمد ١/ ٢٠١ - ٢٠٣ ، ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢ -

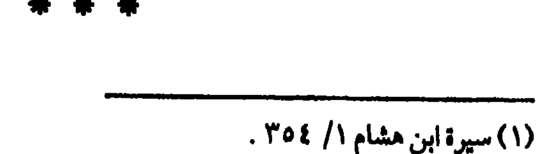
محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله في قبائه ، عند المنكب الأيمن .

وخرج إلى الحبشة ، وصفُّوا له ، فقال : يامعشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فما بالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبدٌ ، قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابنُ الله ، فقال النجاشي ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم [كذلك] ، لم يزد على هذا شيئاً ، وإنما يعني ما كتب ، فرضوا وانصرفوا عنه .

فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فلما مات النجاشي صَلَّى عليه ، واستغفر له [1] .

وقد أثبت هذا الخبر اهتماماً كبيراً من النجاشي بالمسلمين ، وأنه وضع خطة لنجاتهم ورحيلهم فيما إذا كانت الدولة لقومه وزال عنه الملك لعلمه بأن قومه لن يُبقُوا على المسلمين وقد قالوا ما قالوا عن عيسى عليه السلام ، وهذا شاهد على رسوخ إيمانه وقوة يقينه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *



(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٤ .

٩ - مثل من تأثر الصحابة بالقرآن وقوة تأثيرهم به

لقد سبق لنا بيان عظمة تأثر رسول الله ﷺ بالقرآن ، وقوة تأثيره به على سامعيه ، ولقد كان لصحابته رضي الله عنهم نصيب كبير من هذا المعنى ، حيث تأثروا برسول الله ﷺ ، فكانوا يخشعون لسماع كتاب الله تعالى ، وإذا تلوه كانوا حاضري القلوب متأثرين بما فيه من بديع الأسلوب وجلال المعاني .

وإن من أبرز الأمثلة على اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن خبر إجارة ابن الدَّغِنَّة [1] لأبي بكر رضي الله عنه وقد جاء فيه : فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وآمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصلِّ وليقرأ ما شاء ولايؤذنا بذلك ولايستعلن به ، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره ولايستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وبرز ، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيَتَقَصَّفُ عليه

(١) ابن الدغنة بفتح الدال وتشديدها وكسر الغين هو سيد القارة وهي قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش - فتح الباري ٧/ ٢٣٣ .

نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لايملك دمعه حين يقرأ القرآن .

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا له : إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة ، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فَأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفِرت في رجل عقدت له ، قال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى (1) .

وهكذا رأينا مظهراً من مظاهر رسوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى تمثل في البكاء من خشيته عند تلاوة كتابه ، والبكاء مبعثه قوة التأثر إما بحزن شديد أو فرح غامر ، والمؤمن الحق يظل بين الفرح

---

(1) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧ - ٣٩٠٥ .

ورواه ابن إسحاق قال : حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٠ -

بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم ، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط .

وإذا كان ذا قلب كبير كأبي بكر فإنه يشفق على من حوله من البشر التائهين ويتألم إذا لم يتمكن من هدايتهم ، ويتركز شعوره القوي كلما تلا كتاب الله تعالى فأصبح خياله مرة يحلق بين جنبات الأفق الأعلى ، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب ، وفوق ذلك كله هيمنة الملك الجبار جل شأنه ، ومرة يتأمل في مسيرة معركة الحق مع الباطل على أيدي من اصطفاهم الله تعالى لرسالته ، وما يعقب ذلك من مصارع الأمم الباغية ، ثم يلقي نظرة على الحائرين التائهين من حوله وهم يكررون ملحمة الطغاة السابقين وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يتجردوا من الهوى الجامح ويثوبوا إلى رشدهم . . كل ذلك وغيره من المعاني السامية الفياضة يعبر عنه بكاء أبي بكر وهو يتلو كتاب الله تعالى .

ونجد في رد أبي بكر جوار ابن الدغنة مثل المؤمن الحق الذي لايقبل المساومة في التنازل عن دعوته ، فليس واجب المسلم ينتهي عند قيامه بعبادة ربه الخاصة ، بل لابد من دعوة الناس إلى اعتناق هذا الدين والالتزام به ، فأبو بكر كان بإمكانه أن يصلي وأن يتلو القرآن داخل بيته ، ولكن كيف يصل إليه من تشتاق قلوبهم لرؤيته وسماع تلاوته إن فعل ذلك ؟ .

وها هو يرى أن من تجردت قلوبهم من الهوى المنحرف يستمعون لقراءته فيظلون خاشعين لمنظره الأخَّاذ ومظهره الآسر وهو يخلط تلاوته بالبكاء من خشية الله تعالى ، وهم يعلمون أن وراء هذا البكاء تأثراً ضاغطاً بمعاني سامية لاتتوفر لدى أكابرهم الذين يهيمنون عليهم ويصورون لهم رسول الله ﷺ والمؤمنين به بصورة الخطر الداهم والبلاء الهابط ، فيقارنون سريعاً بين قوم تَشِفُّ قلوبهم وجوارحهم بمبادئهم التي يؤمنون بها فتتجسَّم بصورة دموع فياضة وأخلاق سامية يعلوها التواضع والإيثار ويكسوها الحلم والسماحة . . وبين سادتهم الذين يتعاملون معهم بالكبرياء والأثرة ويُلبِّسُون الحقائق التي أضحت كالشمس بلباس التزييف والتمويه الذي لا يخفى على ذي عقل مدرك وفكر نيِّر ، فلا يزال كل يوم ينحاز من معسكر الكفر رجال ممن نور الله بصائرهم وطهر قلوبهم ، سواء ممن لهم وزنهم الكبير بين قومهم أو ممن كانوا يستضعفونهم ، فتعلو بذلك كفة أهل الإيمان وتنخفض كفة أهل الباطل .

إنه لايُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها فلابد لكل مسلم أن يشعر وهو يقرأ القرآن الكريم أنه يتلو كلام الله تعالى وأن يستحضر عظمته في قلبه ، وأن يتدبر معانيه مع الشعور بأنه الكتاب الوحيد الذي بقي يمثل الوحي الإلهي ، واستصحاب الرغبة الأكيدة في طلب الاستهداء به وهداية الناس بنوره إلى الصراط المستقيم .

ولاشك أن كل ماذكر في شأن أبي بكر رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أعظم من ذلك بكثير ، والصحابة رضي الله عنهم كل ما لهم من فضائل إنما هم في ذلك تلاميذ صاحب الرسالة العظمى ﷺ ، وقد مر علينا أمثلة من تأثر الكفار بسماع تلاوته وكلامه .

* * *

١٠ – أبو بكر أول خطباء الدعوة من الصحابة

لقد خرج المسلمون من المرحلة السرية التي دامت ثلاث سنوات وذلك بالجهر بالدعوة كما تقدم حيث جمع رسول الله ﷺ عشيرته الأقربين فدعاهم إلى الله تعالى ثم جمع قريشاً فدعاهم وحذرهم من عذاب الله تعالى .

ثم استمر رسول الله ﷺ في إعلان دعوته وكان كل فرد من المسلمين يبذل جهده في ذلك بشكل فردي .

وكانت أول محاولة للدعوة الجماعية بعد رسول الله ﷺ قام بها أبو بكر رضي الله عنه .

وقد جاء خبر ذلك فيما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي عن أبيه عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال : « يا أبا بكر إنا قليل » فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته .

وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضرُبوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووُطيء أبو بكر وضرب

ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا [1] على بطن أبي بكر حتى ما يُعرَف وجهه من أنفه .

وجاء بنو تيم يتعادون فأجْلَت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولايشكُّون في موته ، ثم رجعَتْ بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة .

فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحَّت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله ما لي علم بصاحبك . فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً [2] فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح

---

(١) نزا : وثب .

(٢) دنفا : ثقيل المرض . قريبا من الموت .

وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، قال : أين هو ؟ قالت في دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله علي ألا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ .

قال فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله وأكب عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّة شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأمي يارسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي بَرَّة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار . قال فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت [1] .

لقد كان لأبي بكر رضي الله عنه شرف التقدم في دعوة الكفار الجماعية إلى الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، حيث قام فيهم خطيباً يدعوهم إلى الله تعالى .

ولقد كان أشجع الصحابة حقا كما شهد له علي بن أبي طالب

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٩ ، وذكره الحافظ ابن حجر في الاصابة في ترجمة أم الخير رقم ١٢٥٤ (٤/ ٤٢٩) مختصراً من رواية الإمام الطبراني ، ولم يضعفه ، فإقرار هؤلاء الأئمة له دليل على قبوله .

رضي الله عنه في خبر سابق [1] ، ولا أدل على شجاعته من بروزه في هذا الموقف العظيم الذي يحدث لأول مرة في تاريخ دعوة الإسلام .

لقد ضاق أبو بكر بموقف قومه من الإسلام ، وساءه أن يودِّعوا كل يوم عدداً منهم إلى النار ، كما ساءه وضع المسلمين الخانق حيث لا يستطيعون أن يعبدوا الله تعالى ولا أن ينشروا دعوتهم بحرِّية تامة ، فألحَّ على رسول الله ﷺ بالظهور الجماعي وإعلان الدعوة العامة وسط مجامع الكفار .

ولكن ما أن قام يدعوهم إلى خيرهم وسعادتهم حتى قامت قيامتهم فانهالوا ضربا على المسلمين بشكل جماعي ، وكان لأبي بكر من ذلك الضرب النصيب الأكبر حيث أغمي عليه وأصيب في جسده إصابات بالغة .

وهكذا برز حقد الكفار على المسلمين بشكل عدواني حيث تضخم هذا الحقد في تلك الساعة فحجب نداء العقل السليم ، وأصبحت العواطف الثائرة هي ملكة الأجسام فوجهتها نحو البطش والانتقام .

وهبطت الإنسانية في أولئك القوم دركات نحو البهيمية وتحولت وسائل التخاطب والتفاهم والتعبير عن الرأي إلى الأيدي والأرجل

---

(١) انظر ص ٢٦ من هذا الجزء .

والنعال بدلاً من الألسنة ، تماماً كما تصنع البهائم بقرونها ومخالبها وقواطع أسنانها .

ذلك لأن الحكم في مثل تلك المواطن يكون للغوغائية ، ويضيع صوت العقل في خِضَمِّ الهرج والمرج ، لأنه يكون مهدداً من قِبَل أصحاب القرار الذين يستجيشون عواطف الناس ولا يخاطبون عقولهم

لقد كان في موقف المشركين هذا كبت واضح لحرية الكلام والتعبير عن الرأي ، وكان منطق العقل السليم يقتضي أن يردوا على الكلام بكلام مثله ، وإذا أبرز المسلمون خطيبهم أن يُبرز الكفار خطباءهم ، وما أكثرهم ! ولكنهم قد انخدعوا بما لديهم من وفرة في العدد والقوة ، إلى جانب ضعف المسلمين في الجانبين ، فحملهم كبرهم ، وقادهم صلفهم وغرورهم إلى الرد بمنطق الحماقة المبني على استخدام القوة ما دامت متوفرة ، وما دامت هي الأسرع في كبت الحرية وإسكات صوت الحق .

إن الطغيان يحمل أصحابه عادة على احتقار رأي الآخرين وإن كانوا من كبار العقلاء .

ويتوهمون لنظرتهم القاصرة أن بإمكانهم إسكات دعاة الحق باستخدام أنواع القوة ضدهم ، ويغترون بالنتائج القريبة التي يشاهدونها من أثر بسط نفوذهم وفرض هيمنتهم على من يعارضون أفكارهم

ومخططاتهم ، ويغفلون عن تذكر سنن الله تعالى الماضية التي من أبرزها أن دعوة الحق إنما تترسخ في النفوس ويتسع انتشارها من أثر صمود أهل الحق وثباتهم في وجه الطغيان .

ولا أدل على ذلك من أن المسلمين كسبوا بعد هذه الحادثة عملاقَي الإسلام العظيمين : حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حيث أصبح المسلمون بعد إسلامهما في وضع لايسمح للكفار بتكرار ذلك المشهد المثير المؤلم .

لقد كان صمود المسلمين في ذلك اليوم عظيماً ، وثباتهم على الحق رغم ذلك المشهد الفظيع مذهلاً ومؤثراً على كل ذي عقل سليم وتفكير قويم ، حيث لم يظفر المشركون بعد تلك المعركة ولابواحد من تلك الفئة المؤمنة ، لا على مستوى التخلي عن الدين والانحياز إلى معسكر الكفار ، فذلك شيء قد يئس منه المشركون ولكن على الأقل في فتور الحماس ، والانزواء بالدعوة في نطاق لايشكل خطراً على ديانة المشركين وتقاليدهم الموروثة .

بل الذي حدث كان بضد ذلك حيث تضاعف عدد المسلمين وكسبوا اتباعاً أقوياء . وحازوا على إعجاب عقلاء الكفار بصمودهم وثباتهم وتضحيتهم بأنفسهم وأموالهم في سبيل نصرة دينهم ، فكان هؤلاء العقلاء مناصرين لهم مدافعين عنهم بعد ذلك .

لقد حُمِل أبو بكر إلى بيته مُشَوَّهَ الوجه فاقد الوعي من أثر ذلك الضرب المبرح ، حتى كان قومه يتوقعون هلاكه ، ومع ما أصابه من تلك الآلام الشديدة فإنه لما أفاق كان أول كلام نطق به أن سأل عن رسول الله ﷺ .

لقد كان موقفاً سامياً بلغ فيه أبو بكر أعظم ما يمكن أن يصل إليه المسلم من الحب في الله تعالى .

لقد كان يشعر بأن حياته وكل ما يملك لاتساوي شيئاً أمام سلامة رسول الله ﷺ .

ولقد وقف قومه مدهوشين ذهلين من هذا الموقف المحير . . رجل بين الحياة والموت ينسى نفسه ، ويذهل عن كل ألم يُمِضُّ جسده ليتذكر شيئاً واحداً هو السؤال عن حال رسول الله ﷺ ، ثم يرفض تناول الطعام والشراب مع إلحاح أمه عليه حتى يروي غليله ويطفئ لهيب شغاف قلبه بالاطمئنان على سلامة رسول الله ﷺ واكتحال عينه برؤيته .

إن الآلام الجسدية وإن كانت مبرحة مضنية فإنها لاتساوي شيئاً أمام حرقة القلب بفقد أعز شيء يملك حبه ويهيمن على مشاعره .

ولئن عجزت الأقلام وكلّت القرائح عن تصوير الدرجات العلى من الحب فإن موقف أبي بكر هذا يُجَسِّم القمة في هذه الدرجات .

وإنني لأجدني في هذا الموقف عاجزاً عن تصوير كل ما يجول في خاطري ومشاعري من جلال هذا المشهد المثير .

ولما لم يجد أبو بكر الجواب الشافي لدى أمه وجهها إلى امرأة مؤمنة كانت تكتم إسلامها ، وهي أم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوجة سعيد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين ، وهي صاحبة الموقف المثير والدور الكبير في إسلام أخيها عمر كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ولما سألتها أم أبي بكر عن رسول الله ﷺ أنكرت معرفتها به وبابنها أبي بكر ، لأنها لاتزال في مرحلة السرية التي يعيشها بعض المسلمين بتوجيه من رسول الله ﷺ ، ولكنها مع ذلك تقدِّر خطورة سؤال أبي بكر وهي التي تعرف المكانة العظمى لرسول الله ﷺ في قلب أبي بكر خاصة ، وفي قلوب المؤمنين عامة ، ولهذا عرضت على أمه مرافقتها إلى ابنها لتطَمْئنه على سلامة رسول الله ﷺ بالأسلوب الذي لايتنافى مع الدور السري الذي تعيشه هي وأمثالها آنذاك .

ولم تتمالك نفسها وهي تشاهد منظر أبي بكر الفاجع حيث رفعت صوتها بالبكاء عليه ، ودعت على الكفار الذين نالوا منه وآذوه .

وحينما أعطاها أبو بكر الإشارة برفع الحرج عنها في إفشاء السر وهو الرجل الثاني في الإسلام أخبرته عن حال رسول الله ﷺ وعن مكان إقامته ، فآلى على نفسه أن لايذوق طعاما ولا شراباً حتى يصل إلى

رسول الله ﷺ ويطمئن عليه بنفسه ، فلم يكن إخبار فاطمة بنت الخطاب عن حاله بالذي يكفي لإطفاء لهيب الشوق وسكون الفؤاد ، حتى تكتحل العينان برؤية من ملأ جوانح القلب وأضفى عليه السعادة والفلاح .

وكان استقبال أبي بكر حافلا بمظاهر الحب والتقدير حيث أكَبَّ عليه رسول الله ﷺ وقبَّله وأكب عليه المسلمون .

ولقد كان الموقف شديداً على المسلمين حيث لم يكن عند أبي بكر رغم سوء حالته الصحية إلا أفراد قبيلته من غير المسلمين فاضطر إلى الاستعانة بأمه وأخته في الإسلام لإيصاله إلى دار الأرقم .

لقد كان عدد المسلمين لايتجاوز ثمانية أو تسعة وثلاثين بعد أن هاجر إلى الحبشة من هاجر ، ولقد كانوا مجتمعين في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد تلك الحادثة المروعة ، ولعل من أهداف اجتماعهم أن يحصل ضعفاؤهم على نوع من الحماية حتى لايُستأصلوا من قبائلهم .

ولكن ذلك الوضع الخانق لم يطل حيث هيأ الله تعالى لنصر الدعوة بطلين من عمالقة الإسلام هما حمزة وعمر رضي الله عنهما كما تقدم .

ولم ينس أبو بكر وهو في تلك الحال أن يطلب من رسول الله ﷺ الدعاء لأمه بالهداية ، وقد كانت فرصة مواتية حيث واجهت الرسول ﷺ بنفسها ، وقد لاتستجيب لمثل ذلك الموقف في غير ذلك الظرف ، إضافة

إلى ما اعتراها من رحمة شديدة بولدها ، فالوضع مناسب لدعوتها لرغبتها الأكيدة في إيصال السعادة لولدها المنكوب ، وهو يدرك أنها تقدر فَرَحَه الغامر بإسلامها لو أسلمت ، فكان من الحكمة البالغة أن يغتنم هذا الظرف الملائم لانقيادها نحوالإسلام ، وكأن لسان حاله يقول إن كنت يا أماه تتشوقين إلى إبلالي من المرض وتمتعي بالصحة والسعادة فإن ذلك إنما يكون بدخولك في الإسلام .

لقد كان رضي الله عنه بارعاً حقاً في معرفة مداخل النفوس وطرق التأثير عليها ، واغتنام الفرص المناسبة للدعوة ، فكان بذلك وغيره أبرع الدعاة في الإسلام بعد رسول الله ﷺ .

ولقد نال حظاً كبيراً من السعادة حينما أنقذ الله تعالى أمه من النار بدعاء رسول الله ﷺ لها حيث أسلمت من ساعتها ، فرضي الله عنه وعن أمه « أم الخير » .

* * *

١١ - مثل من التنافس في العمل الصالح
(عثمان بن مظعون يرد جوار المشركين)

لقد كان المسلمون في مبدأ الإسلام وهم في مكة يتعرضون لأذى شديد من صناديد الكفر وزعماء الضلال ، وكان ضعفاء المسلمين والذين ليس لهم عشائر قوية تحميهم يتحملون أكثر هذا الأذى ، أما المسلمون من أشراف قريش وأصحاب الوجاهة فيهم فإنهم يجدون من أفراد عشيرتهم من الكفار من يجيرهم ويحميهم من الأذى .

وكان من هؤلاء عثمان بن مظعون رضي الله عنه حيث دخل في جوار الوليد بن المغيرة أحد زعماء قريش ، وذلك بعد عودتهم من الحبشة حينما سمعوا أن قومهم قد أسلموا ولم يكن ذلك الخبر صحيحاً ، فلما وصلوا إلى مكة وجدوا الكفار أشد ماكانوا عداء للمسلمين ، فدخل بعضهم مكة بجوار من أكابر المشركين ، وقد دخل عثمان بن مظعون الجمحي في جوار الوليد بن المغيرة كما ذكر ابن إسحاق [١] .

ولكنه فكر فيما يصيب إخوانه من ضعفاء المسلمين على يد الكفار من الأذى ، وما يترتب على صبرهم العظيم من الأجر الجزيل والإيمان القوي ، فرأى أن بقاءه في جوار الوليد بن المغيرة نقص كبير ، ويفوت عليه منافع دينية جمة ، فذهب إلى الوليد ابن المغيرة ورد عليه جواره ، وفضل أن يبقى في جوار الله تعالى وحده كإخوانه من المستضعفين .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٥ .

وفي سياق هذه القصة يقول محمد بن إسحاق رحمه الله فيما يرويه عن شيوخه : لما رأى عثمان بن مظعون مافيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة قال : والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لايصيبني لنقص كبير في نفسي .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : لم يا ابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ، قال : لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن استجير بغيره .

قال : فانطلقْ إلى المسجد فَارْدُدْ عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية ، قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جواري ، قال : صدق قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكني قد أحببت أن لا أستجير إلا بالله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

قال عثمان : صدقت ، قال لبيد :

وكل نعيم لامحالة زائل .

قال عثمان : كذبت . نعيم الجنة لايزول ، قال لبيد بن ربيعة : يامعشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدْ في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شَرَى أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها .

والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغَنيَّة ، لقد كنت في ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فقال له الوليد : هلمَّ يا أبن أخي إن شئت فَعُد إلى جوارك ، فقال : لا [1] .

وفي هذه القصة يتبين لنا باب من أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى تمثَّل بمحاولة إظهار عزة الإسلام ، وذلك بالاعتزاز بالله تعالى وحده وإن تمكَّن المسلم من الاحتماء بأقاربه وعشيرته ، وذلك فيما إذا لم تتطلب مصلحة الدعوة غير ذلك ، فإذا اقتضت مصلحة الدعوة قبول حماية

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٦ ، واخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن موسى بن عقبة وذكر نحوه - دلائل النبوة ٢/ ٢٩١-٢٩٣ - .

المشركين فإن هذا هو الأفضل كما كان النبي ﷺ في حماية عمه أبي طالب .

وفيها إشارة إلى ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من التنافس في سبل الخير والعمل الصالح ، وهذا يدل على الإيمان القوي بالله تعالى والرغبة الصادقة فيما عنده من الثواب .

كما أن في هذه القصة فضيلة إنكار المنكر وإن كان المسلم في حال ضعف وقلة ناصر ، لأن في ذلك إظهاراً للحق الذي قد ينطمس في غمرة الباطل ، فقد أنكر عثمان بن مظعون رضي الله عنه قول لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل ، حيث كذبه في ذلك وبين أن نعيم الجنة لايزول ، وتحمل في سبيل ذلك الأذى من المشركين حيث أصيبت عينه في سبيل الله تعالى .

ويبلغ عثمان رضي الله عنه قمة الإيمان حينما لم يندم على ترك جوار الوليد بن المغيرة الذي حصل له هذا الأذى بسبب تخليه عنه حيث يبين للوليد بن المغيرة حينما لامه على تخليه عن جواره بأنه يتمنى أن تصاب عينه الأخرى في سبيل الله تعالى .

وهذا هو الفرق بين من يُقدم على التضحية عن قناعة ويقين راسخ وبين من يتحمس للإقدام على أمر من أمور الجهاد ثم يتراجع حينما

يتعرض للأذى في سبيل الله تعالى فإن هذا يعرض إيمانه للضعف ويضر بالدعوة الإسلامية .

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يَفُتْه أن يقرر عظمة الله تعالى في نفوس المسلمين حيث قال : وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

لقد كان رضي الله عنه في حمى ذلك الرجل الكبير من قريش والرسول ﷺ قد أذن للصحابة بالاحتماء بالمشركين لضعفهم وقلتهم ولكنه أبى أن يرى إخوانه يعذبون في الله وهو يتمتع بذلك الحمى ، إنه كمن لبس الدرع في القتال فلما رأى الشهداء من حوله تاقت نفسه للشهادة فرمى الدرع وواجه الأعداء حاسراً طلباً لمواطن الشهادة .

. . . .

* * *

١٢٠ – مثل من العزة والشهامة

(إسلام حمزة بن عبد المطلب)

لقد كان الله تعالى يهيىء لرسوله ﷺ من يدافع عنه . إما من عشريته الأدنين الذين يقومون بحمايته والذب عنه ، أو من غيرهم من الكفار الذين لديهم مسكة من عقل وبقية من ضمير ، فيواجهون سفاهة السفهاء بما يخفف من حدة الموقف ، أو من المؤمنين به الذين يرون الدفاع عنه واجباً دينياً .

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال : حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، وكانت تسمعه مولاة لعبد الله بن جدعان .

ثم انصرف أبو جهل عنه ، فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قَنَصٍ له ، وكان صاحب قنص يرميه يخرج له ، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يَصلْ إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة .

فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له :

يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ .

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول ؟ فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعتَ .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سبا قبيحاً ، وتَمَّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع ، وأنّ حمزةَ سيمنعه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [(١)] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٢ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٣ -

وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق وذكر نحوه كما أخرجه من حديث محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه - المعجم الكبير ٣/ ١٥٢ - ١٥٣ رقم ٢٩٢٥ و ٢٩٢٦ -

وذكر الطريقين الحافظ الهيثمي وقال عن الأول : رواه الطبراني مرسلا ورجاله ثقات ، وقال عن الثاني : رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧ -

وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه وسكت عنه هو والذهبي . المستدرك ٣/ ١٩٢ -

وهكذا كانت هذه الواقعة سبباً في إسلام حمزة رضي الله عنه حيث ثار أوّلاً حمية لابن أخيه ﷺ ، ثم أعلن إسلامه لِمَا أراد الله له من الخير ولِمَا يريد أن يُجري على يديه من الانتصار لرسول الله ﷺ والمؤمنين ورفع راية الإسلام .

ومن هذه القصة تتبين لنا شجاعة حمزة رضي الله عنه التي أصبحت مضرب المثل ، فلقد واجه زعيماً كبيراً من زعماء مكة له مكانته العالية بين قومه ، وهو من الذين يُرهبون الضعفاء بألسنتهم السليطة ونظراتهم الحادة ، حيث قصد إليه وهو في مجمع من قومه فشجه شجة منكرة وأهانه أمام الملأ من قومه وتحداه أن يرد عليه إن استطاع ، ولم يحسب حساباً لقومه أن يجتمعوا عليه ويوقعوا به الضرر .

وهكذا تبدو شجاعة الشجعان حيث يندفعون في نصر قضاياهم من غير نظر إلى عواقب ذلك ، فيلغون من حسابهم كل الاحتمالات الواردة ويهيمن على مشاعرهم الانتصار للقضية التي يدافعون عنها ، فيقومون بالأعمال المدهشة ، التي تذهل الحاضرين وتشغلهم بتحليل دوافعها عن مواجهتها والتصدي لها .

وعاد أبو جهل يعتذر لأبي عمارة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، ويهدئ من ثورة بني مخزوم الذين ثاروا له ، وأرادوا أن ينالوا من حمزة ، انبهاراً منه بهذه الشجاعة النادرة ، التي ألجمت أبا جهل

وقومه ، فجعلتهم يكفون عن حمزة حتى وهو يعلن إسلامه على غير عادتهم في معاملة المسلمين في أول إسلامهم .

وهكذا فتح الله قلب حمزة رضي الله عنه للهداية ، وكان مفتاح هدايته الانتصار للنبي ﷺ ، فاعتز المسلمون بإسلامه ، وتراجع زعماء قريش عن بعض ما كانوا ينالون من رسول الله ﷺ لعلمهم بأن عمه سيحميه .

إن حمزة لم يكن أسلم يومذاك ، ولكن دفع به تحدي أبي جهل الذي أهان ابن أخيه إلى أن يعلن تبعيته له على دينه ، حيث إن هذا الأمر هو أعظم شيء يغيظ به أبا جهل ليشفي غليل صدره منه ، فكأنما قال لأبي جهل : إذا كان دين ابن أخي هو الذي حملك على إهانته فإنني أتحداك باتباعه على دينه ، فإعلان إسلامه كان تعصبا لابن أخيه ولم يكن عن اعتقاد قلبي ، ثم هداه الله تعالى إلى الإسلام فذهب إلى النبي ﷺ وأسلم .

* * *

١٣ - إسلام طليب بن عمير وجهوده في الدعوة

أخـرج أبو عـبـد الله الحاكم من طـريق أبي سلـمة بن عبـد الرحـمن قال : أسلم طليب بن عـمير في دار الأرقم ثم خرج فدخل [١] على أمه وهي أروى بنت عـبـد المطلب فـقـال : تبعت مـحـمداً وأسلمت لله رب العـالمين جل ذكـره فقـالت أمـه : إن أحق من وازرت ومن عـاضـدت ابن خـالك والله لـو كنا نقدر على مـا يقدر عليه الرجال لتبعناه ولذببنا عنه قـال : فقـلـت : يـا أماه وما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه فقد أسلم أخوك حـمزة ، فقـالت : أنظر ما يصنع أخواتي ثم أكون إحـداهن قال : قلت اسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصـدقته وشـهـدت أن لا إله إلا الله قالت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكانت بعدُ تعضد النبي ﷺ بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره .

قال الحاكم : صحيح غريب على شرط البخاري ولم يخرجاه [٢] .

وأخرجه ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، وذكر مثله [٣] .

ثم ذكـر عن طريق الواقـدي بإسناده عن برة بنت أبي تجراة قـالت : عـرض أبو جـهلَ وعِدَّة من كـفـار قريش للنبي ﷺ فآذوه فـعـمـد طليب بن

---

(١) جاء في المستدرك : ثم دخل فخرج » وهو خطأ من النساخ والتصويب من طبقات ابن سعد .
(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٩ .
(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢ .

عمير إلى أبي جهل فضربه ضربة شجه فأخذوه وأوثقوه ، فقام دونه أبو لهب حتى خلاه . فقيل لأروى ألا ترين ابنك طليباً قد صير نفسه غرضاً دون محمد ؟ فقالت : خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله وقد جاء بالحق من عند الله فقالوا : ولقد تبعتِ محمداً ؟ قالت : نعم .

فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره فأقبل حتى دخل عليها فقال : عجباً لك ولاتِّباعك محمداً وترك دين عبد المطلب ، فقالت : قد كان ذلك فقم دون ابن أخيك واعضده وامنعه فإن يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه أو تكون على دينك ، فإن يُصَب كنت قد أعذرت في ابن أخيك . فقال أبو لهب : ولنا طاقة بالعرب قاطبة ؟ جاء بدين محدث . قال : ثم انصرف أبو لهب .

قال محمد بن سعد : وسمعت غير محمد بن عمر يذكر أن أروى قالت يومئذٍ :

إن طُلَيباً نصر ابن خاله آساه في ذي دمّة وماله [1]

وهكذا أسلم طليب بن عمير رضي الله عنه والنبي ﷺ ما زال في دار الأرقم في ظرف كان شديد الصعوبة ، ولم يكتف بالدخول في الإسلام بنفسه بل دعا أمه أروى بنت عبد المطلب إلى الإسلام وألح عليها

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢ - ٤٣ ، وذكر الحافظ ابن حجر الخبرين نقلا عن ابن سعد الإصابة ٤/ ٢٢٢ رقم ٣٣ .

في ذلك لما تمنعت قليلاً حتى أسلمت وكانت تدافع عن رسول الله ﷺ وتحض على نصرته .

وهكذا كسب الإسلام هذا الجندي الباسل الذي كانت نهايته الشهادة في معركة أجنادين ، وكسب أمه التي كانت من جنود الإسلام في مجالها النسائي رضي الله عنهما .

وفي الخبر الثاني بيان موقف من مواقف طليب وأمه رضي الله عنهما في الدفاع عن رسول الله ﷺ ، حيث أقدم طليب على الهجوم على أبي جهل لما آذى رسول الله ﷺ ، والهجوم على هذا الرجل يعتبر مغامرة جريئة حيث كان منيعاً في قومه شديد العداوة للإسلام وأهله فالذي يقدم على الهجوم عليه سيتوقع أذى بالغاً من قومه وقد فعلوا ذلك لولا أن خاله أبا لهب خلصه من أيديهم .

وموقف أمه أروى كان جليلاً حيث أيدت ابنها على ما قام به من نصرة رسول الله ﷺ ولم تعبأ بعذل قومها لها ولابنها بل أظهرت إسلامها ونصرتها لرسول الله ﷺ .

* * *

١٤ - مثل أعلى للتحول بعد الهداية

(إسلام عمر بن الخطاب)

حينما تتجمع خصال أمة من الناس في رجل واحد يصنع العجائب بقدرة الله تعالى ، إذا آمن واستقام ، لأنه بإيمانه بالله تعالى يكون فكره مشدوداً إلى الأعلى ، إلى صانع الكون ومدبره فتسمو مداركه وتصفو تصوراته ، وباستقامته تزكو نفسه ، وينمو إيمانه ، ويتطهر قلبه وجوارحه من الزلل والانحراف .

ولكنه حينما يظل على الكفر فإنه يبقى تائهاً مقصوراً فكره على محقرات الأمور التي لاتعدوها تصورات الناس المجردة من الإيمان ، وتظل مواهبه حبيسة مكبوتة لأن حجاب الكفر يعرقلها بالأغلال ، ويحيطها بالظلمات الحالكة ، فلا تنطلق إلا في حدود ضيقة تحكمها عادةً الأعراف القومية بما فيها من كبت وانحراف .

وحينما يؤمن ولايطبق حدودالاستقامة تعود إلى الفكر حجب الجاهلية بشكل آخر يتسم بالشعور الدائم بالذنب الذي يعطل الفكر ويقيده فلا يدعه ينطلق إلى الجو الأعلى الرحيب .

فكما أن الكفر بمختلف مذاهبه أغلال مقيدة للعقل السليم والفكر النافذ فإن المعاصي كذلك وإن اختلفت مناحي الغَل والتقييد .

وهكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جاهليته حينما لم يكن شيئًا مذكورا إلا في حدود أعراف قبيلته الجاهلية . . ثم كان ما كان بعد إسلامه من عظمته الخارقه ، التي أصبحت مضرب المثل عبر الأجيال .

ولقد عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عما أحدثه إسلام عمر في الأمة بقوله : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [1] .

وقال أيضاً « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » [2] .

لقد كان عمر رضي الله عنه شديد القسوة على المسلمين قبل أن يسلم ، فلما هداه الله للإسلام حوّل قوته العظيمة للدفاع عن الإسلام والمسلمين فكان عظيم التحدي للكفار حتى اعتز به المسلمون ، وفرق الله به بين الحق والباطل ، ولذلك لقبه رسول الله ﷺ با لفاروق .

وكان من قصة إسلامه فيما رواه ابن إسحاق رحمه الله :

« أن أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها كانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها

---

(١) اخرجه ابن أبي شيبة والطبراني « فتح الباري ٧/ ٤٨» .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة باب ٦ « الفتح ٧/ ٤١» .

سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجل من قومه من بني عدي بن كعب - قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن »[1] .

وإخفاء الإسلام في حال الفتنة وضعف المسلمين له مزاياه المتعددة ، من السلامة من الأذى الذي قد يجر إلى الافتتان ، والقيام بخدمة الدعوة في أمور لايستطيع القيام بها من استعلن بإسلامه ، ولكن الاستخفاء بالإسلام ليس هو الأصل وإنما هو مشروع عند الضرورة وعند احتياج الدعوة ، فالأصل هو إعلان الإسلام والقيام بالدعوة إليه لتعلو كلمة الحق وتقوم الحجة على الغافلين .

قال : « فخرج - يعني عمر - متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذُكِروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين مابين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن أقام ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة » .

وهل كان خروج عمر لقتل النبي ﷺ بدافع شخصي بحكم ما كان

---

(١) يعني هي وزوجها سعيد بن زيد كما سيأتي .

يهيمن على نفسه من عوامل قوية مؤثرة حيث كان شديد التمسك بتراث الآباء والأجداد ، عظيم الغيرة على مجد قريش المكتسب آنذاك من التقاليد والعادات الجاهلية مع ما جبل عليه من قوة الشكيمة والإصرار العنيف على إنكار ما لايقتنع به ، أم كان ذلك بتحريض من زعماء الكفار ؟

الظاهر أنه كان بتحريض من زعماء الكفار مع ملاحظة الدوافع المذكورة ، ومما يدل على ذلك ما جاء في رواية أخرى من أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة ، قال عمر : فقلت له : يا أبا الحكم آلضّمان صحيح ؟ قال : نعم ، قال : فتقلدت سيفي أريده . . . ثم ذكر خبر تعريجه على بيت أخته وإسلامه بعد ذلك .

ذكره الحافظ ابن حجر من رواية أبي نعيم [1] .

وكون أبي جهل يجعل لمن يقتل رسول الله ﷺ مائة من الإبل دليل على تأصل عدواة الكفار للإسلام ودعاته ، فهذا العوض كبير آنذاك ، وخصوصاً إذا كان قد بذل من فرد واحد .

قال ابن إسحاق في سياق روايته : « فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر : فقال : أريد هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله » .

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٨١ .

وهنا يكشف عمر عن قصده بجلاء مع بيان المسوغات التي دفعته إلى محاولة ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة .

فاجتماع قريش في نظره هدف رفيع في حد ذاته بِغَضٍّ النظر عما اجتمعوا عليه هل هو حق أم باطل ؟ ومن فرق جماعتهم فهو ملوم وإن كان يدعو إلى الحق ويحارب الباطل .

وانتقاد ما أجمع عليه كبراء قريش يعتبر تسفيها لعقولهم لأن ما أجمعوا عليه غير قابل للنقد ولا لمجرد التفكير في وزنه بميزان العقل السليم .

وعيب دينهم وسب آلهتهم يعتبر جريمة في حق فاعله يستحق عليها القتل لأن في ذلك خروجاً عن المألوف من تقديس وتعظيم ما عليه الآباء والأجداد وإن كان هذا التراث لايثبت أمام العقل السليم والتفكير المتأمل .

وهذا يعتبر نموذجاً من الاعتقاد السائد في عقول الكفار آنذاك حيث أصبح يغطي على مشاعرهم ولايتيح لهم مجالاً للتفكير والتأمل .

« فقال له نعيم : والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك ياعمر أتُرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً » .

وهنا يأتي دور الاستخفاء بالدين لدى بعض المسلمين في الظروف

الصعبة التي يمر بها المجتمع المسلم ، فكانت مهمة نعيم رضي الله عنه - والحالة هذه - أن يحاول بكل إمكانه ثَنْيَ عمر رضي الله عنه عن عزمه الذي صمم عليه ، ونجح في مهمته أيما نجاح حيث بدأ أولاً بتذكيره بمغبة إقدامه على قتل رسول الله ﷺ ، والذي يعيش في الجاهلية أيّا كانت هذه الجاهلية وأيّا كان سموه العقلي لا يرضى بأن يفقد حياته مهما كان الهدف الذي ينطلق لخدمته ، وإنما ينطلق من يقدم على المهلكة من هؤلاء لأن المُثُل الخيالية تغطي على فكره ، وضغط الماضي والحاضر يغشى على عقله فيحجب عنه العواقب الوخيمة التي تترتب على إقدامه على الأمر الذي يريده .

وقد استطاع نعيم بهذا أن يمتص قدراً من الغضب الذي كان يساور عمر ولكن بقي أن يشغله بمهمة يفرغ فيها كل ما تبقى من غضبه حيث قال له : « أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال ختنك [١] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، واختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله اسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » .

وهنا قد يتساءل المتأمل : كيف ساغ لنعيم أن يبوح بسر بيت مسلم كان يخفي إسلامه ، وقد يعرضهم بذلك للهلاك ؟ ! .

ويمكن أن يكون الجواب بأن المهمة الكبرى آنذاك كانت هي حماية

---

(١) يعني زوج أخته .

النبي ﷺ ، فتعرُّض فرد أو بيت مسلم للأذى فداء للنبي ﷺ ليس كثيراً ، إضافة إلى أنه لم يكن من المعهود في ذلك المجتمع الإقدام على قتل المسلمين ، لا لأن عدواة الكفار لهم لم تصل إلى هذا الحد ، وإنما لأن قتل فرد أو أفراد من المسلمين لن يؤثر في تعويق سير الدعوة الإسلامية ، بل كان اهتمامهم مُنصَبّاً على تعذيب المسلمين ليرتدوا عن إسلامهم ، فيكسب الكفار نجاحاً في الصد عن الإسلام ، وقد يموت بعضهم تحت التعذيب كما فعلوا مع سمية رضي الله عنها .

أما التوجه بالقتل عمداً فقد كان منصرفاً إلى النبي ﷺ ، حيث عزموا على ذلك عدة مرات لأن قتله يعني ذهاب الإسلام .

« قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها » .

وهكذا تكون التربية الإسلامية بكتاب الله تعالى فهو زاد الصحابة رضي الله عنهم يتلونه ويتدارسونه ويحفظونه ويعملون بأحكامه ويتأثرون بمواعظه ، يتعلم اللاحق من السابق ، وهكذا كانوا في عزلة فكرية عما يدور في المجتمع الجاهلي فلا يتأثرون إلا بما وقر في قلوبهم من كتاب الله تعالى .

وهذا مثل من المنهج التعليمي الذي كان رسول الله ﷺ يربي عليه

المسلمين آنذاك ، حيث كان يوجه المسلمين القدامى الذين يحفظون ما نزل من القرآن أو بعضه إلى المسلمين الجدد ليعلموهم القرآن الكريم .

« فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم ، أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ماهذه الهيْنمة التي سمعت ؟ قالا له : ماسمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمه بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجَّها فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » .

وهكذا يفرِّغ عمر غضبه كله في البطش بابن عمه وأخته ، ويتمُّ لنُعَيم ما أراد من صرف عمر وهو في حال الغضب الشديد عن رسول الله ﷺ ، وذلك ليتمَّ ما أراده الله تعالى من هداية عمر وإعزازه لدين الله تعالى .

وهكذا رأينا ابن عمه وأخته يعلنان إسلامهما أمامه بعزة وقوة ويُظهران التحدي له ، بعد أن بطل مفعول السرِّية التي كانا يحيطان إسلامهما بها ، فإن مصلحة الدعوة الإسلامية تقتضي أن لايُظهر المسلم إسلامه بضعف ، وإنما يظهر الاعتزاز به واحتقار ماحوله من الجاهلية ، حتى لايختلط ببعض تعاليم الجاهلية .

« فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : اعطيني الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً أنظر ماهذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً » .

لقد كان لموقف زوج أخته وابن عمه سعيد بن زيد الذي كان فيما بعد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وموقف أخته فاطمة أثر ظاهر في تغيُّر نظرته إلى الإسلام ، ولعله لم يعهد منهما من قبل تصلبا وإصراراً على الرأي وقوة في المجابهة كما شاهدها ذلك اليوم بل لعله لم يواجَهْ بالتحدي قبل ذلك من قرابته وهو الرجل القوي المهيب .

لابد أنه قد انقدح في نفسه أمام هذا المشهد أن سِراً عظيماً يكمن وراء هذا الدين الجديد وكتابه الذي سمعهما يتلوانه ، فطلب من أخته أن تطلعه على الصحيفة ، وخشيت أخته على كتاب الله تعالى أن يهينه أو ينتزع الصحيفة منهما فيفقدا أقدس شيء يعتزان به ، فقالت : « إنا نخشاك عليها قال : لاتخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها» .

وإن هذا التنازل الذي أظهر عمرَ متواضعاً وهو الرجل المتجبر قبل ذلك لأولُ علامات انجذابه للإسلام وإعجابه به .

« فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لايمسها إلا الطاهر » .

وهنا تظهر بوضوح آثار التربية الإسلامية العالية التي تمت على يد رسول الله ﷺ لتلامذته من الصحابة رضي الله عنهم حيث خاطبت فاطمة أخاها بهذه الكلمات القوية فحكمت عليه بأنه نجس وعللت هذا الحكم بأنه لايزال على دين قومه الذي هو الشرك ، فلم تجامله في دينها ولم تفرِّط في قدسية كتاب الله تعالى من أجل أن تقي نفسها وزوجها .

ومع أنها قامت بتمثيل ما يجب عليها تجاه تعظيم كلام الله تعالى فإنها قامت أيضاً بواجبها نحو الدعوة وهي التي طمعت في إسلام أخيها فخاطبته بنداء الأخوة أخوة النسب لعل ذلك يجذبه إلى الإسلام ويخفف من وقع الحكم الذي أصدرته عليه .

« قال : فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها – طه – فقرأها فلما قرأ منها صدراً – يعني أولها –[1] قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » .

---

(١) جاء في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عند أبي يعلى رحمه الله : إلى قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) الآية – المطالب العالية ٤/ ١٩٣– ١٩٤ رقم ٤٢٨١ .
وهذه هي الآيات التي قرأها : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرةً لِمَن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلَى ، الرحمن على العرش استوى . له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السِّرَّ وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني انست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدّس طُوًى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحَى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لِتُجزَى كل نفس بما تسعى . فلا يصدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردَى ﴾ .

لقد تحمل عمر وقع ذلك الحكم الذي سمعه من أخته مع شدته لما أراد الله تعالى له من الهداية فقام فاغتسل .

ولقد أخذته روعة كلام الله تعالى وسرى الإيمان في كيانه حتى تبدل إنساناً آخر ، بعدما تهيأ نفسيا قبل ذلك وأقبل على تلقي كلام الله تعالى وقد تحرر من أوهام الجاهلية التي طالما غشت على قلبه وحجبته عن التفكير في مجرد سماع الوحي الإلهي ، فاثنى على كلام الله تعالى بهذا الثناء البالغ الذي يدل على تأثره به وهيمنته على مشاعره .

وهنا يأتي دور معلم الأسرة خباب بن الأرتّ رضي الله عنه الذي حجبه عن المجابهة كونه من المستضعفين في مكة : « قال : فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : ياعمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فاللهَ اللهَ ياعمر »[1] .

---

(١) وقد أخرج هذا الإمام الترمذي في سننه ، كتاب المناقب باب مناقب عمر ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، قال الحافظ ابن حجر : وصححه ابن حبان أيضاً وفي إسناده خارجة بن عبد الله صدوق فيه مقال لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضا ومن حديث أنس (تحفة الأحوذي ١٠/ ١٦٨) . وأخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام » ، فجعل الله دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب فبنى به الإسلام وهدم به الأوثان - ذكره الهيثمي وقال : رجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق - مجمع الزوائد - ٩ / ٦١ - .
هذا وقد أخرج الحاكم من ثلاث طرق عن عبدالله بن عمر وعن عبد الله بن عباس وعن عائشة رضي الله عنهم أن الدعوة كانت لعمر خاصة ، وحكم على هذه الطرق بالصحة ووافقه الذهبي - المستدرك ٣/ ٨٣- .

وكانت هذه دفعة أخرى لعمر رضي الله عنه ليُقْدم إلى الإسلام ، فما أكرم وما أعظم أن يكون إسلامه استجابة لدعوة رسول الله ﷺ لا لنفعه الخاص فقط وإنما ليكون إسلامه نصراً للإسلام وتأييداً لدعوته .

ولذلك لم يتردد عمر لحظة واحدة بل قال : « فدلّني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فَأْذَنْ له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه » .

ومن هذا المشهد تظهر شجاعة حمزة رضي الله عنه ورباطة جأشه وكان قد أسلم قبل ذلك بثلاثة أيام فقط .

فقال له رسول الله ﷺ : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه

= ولعل الدعوة كانت لأحد الرجلين ثم خص النبي ص عمر لكونه يرجو إسلامه ، ولاشك أن الفرق بين الرجلين واضح ، وذلك لظهور العداوة الشديدة من أبي جهل المبنية على الحسد والحقد مع اعترافه بأن ما دعاإليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحق ، بينما كان عمر ملتزماً بجاهليته لكونه يرى الحق مع ما ورثه من الآباء والاجداد ، وفرق كبير بين من يلتزم بالباطل وهو يرى أنه على الحق وبين من يلتزم بالباطل وهو يعرف أنه باطل . وإن كانت الهداية ممكنة في كلا الصنفين .

رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بحُجْزَته [1] أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطابِ ؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة » .

وهنا تبدو شجاعة رسول الله ﷺ التي لانظير لها فهو لم يتّق الخطر بأصحابه بل قام وسبقهم ليقيهم بنفسه .

وهكذا تظهر عظمة الرجال وسُمُوُّهم ، فرسول الله ﷺ لم يقابل رجلاً عادياً ، وإنما قابل رجلا ملأ الرعبُ منه قلوب الناس في مكة ، واشتهر في أوساطها عداوته المتناهية للإسلام وأهله ، وقد أقبل متوشحاً سيفه ، نحو دار يجتمع فيها المسلمون سرّاً ، فكل الدلائل تدل على أنه قد أقبل يريد شرّاً برسول الله ﷺ ومن معه ، ومع ذلك ينهض له رسول الله ﷺ مفتدياً أصحابه بنفسه .

وتتم المفاجأة الكبرى حينما يقول عمر رضي الله عنه « يارسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ، قال : فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم » .

وتغمر الفرحة قلوب المؤمنين ، ويظهر أثر إسلام عمر على سلوكهم حيث قويت شخصيتهم وأظهروا شعائر دينهم ، وكمل

(١) يعني معقد الإزار .

اعتزازهم الظاهر بدينهم بعدما قطعوا شوطاً في ذلك بإسلام حمزة رضي الله عنه ، ويبين ذلك ما جاء في ختام هذه الرواية : « فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم »(1) .

وكان إسلام عمر فتحاً كما قال عبد الله بن مسعود ، حيث خرج الصحابة من ذلك البيت الذي اجتمعوا به ليأمنوا على أنفسهم بعد ماكان من حادثة اعتداء المشركين الجماعي على المسلمين ، على إثر خطبة أبي

---

(1) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٦ - ٣٦٠ .
وأخرجه ابن سعد من حديث إسحاق الأزرق قال : أخبرنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وذكر نحوه - طبقات ابن سعد ٣/ ٢٦٧ -
وكذلك أخرجه الحاكم والبيهقي بهذا الإسناد وذكرا نحوه ، وسكت عنه الحاكم والذهبي - المستدرك ٤/ ٥٩ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢١٩ - .
وأخرجه أيضاً أبو يعلى من حديث أنس بن مالك - المطالب العالية ٤/ ١٩٣ رقم ٤٢٨١ -
وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده - فضائل الصحابة تحقيق الدكتور وصي الله ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦ -
وأخرجه البيهقي من هذا الطريق - دلائل النبوة ٢/ ٢١٦ - وذكر الذهبي هذه الرواية وسكت عنها ، ثم ذكر رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما وحكم على إسنادها بالضعف - تاريخ الإسلام/ السيرة/ ١٧٧ - ١٨٠ - .
وقال الحافظ ابن حجر : وقد ورد سبب إسلامه - يعني عمر - مطولاً فيما أخرجه الدارقطني من طريق القاسم بن عثمان عن أنس - وذكر ملخصاً للرواية السابقة - ثم قال : وروى أبو جعفر بن أبي شيبة نحوه في تاريخه من حديث ابن عباس - فتح الباري ٧/ ٤٨ -
فهذه الروايات الثلاث المروية عن أسلم وأنس وابن عباس رضي الله عنهم تقوي رواية ابن إسحاق المذكورة .

بكر الدعوية كما سبق ، فلم يُخرج الصحابة من ذلك البيت ويجعلهم يأمنون بعض الأمْن إلا إسلام عمر .

وفي تكبير رسول الله ﷺ حينما أعلن عمر رضي الله عنه إسلامه دليل على استحباب التكبير عند الفرح ، فالله أكبر من كل شيء فلا يعظَّم غيره ولايقدس سواه ، تباركت أسماؤه وجلت صفاته .

هذا وقد أخرج أبو نعيم رحمه الله خبر إسلام عمر رضي الله عنه من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما وذكر نحو خبر ابن إسحاق ، وفيه أنه لما قرأ الآيات الأولى من سورة طه قال : فتعظَّمت في صدري وقلت : مِنْ هذا فرت قريش ، ثم شرح الله صدري للإسلام فقلت : لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، قال : فما في الأرض نسمة أحب إليّ من رسول الله ﷺ ، قلت : أين رسول الله ﷺ ؟ قالت - يعني أخته فاطمة - : عليك عهد الله وميثاقه أن لاتجبهه بشيء يكرهه ، قلت : نعم ، قالت : فإنه في دار الأرقم بن أبي الأرقم [1] .

ومن هذه السرعة في تحول عمر واستجابته للإسلام حينما سمع القرآن نفهم مدى الضغط الرهيب الذي كان زعماء مكة آنذاك يمارسونه على الناس حتى طوقوهم بذلك الحجر الفكري الذي حَرَمَ هذا العبقري الألمعي من سماع القرآن طيلة تلك السنوات ، فما أن لامست روعة

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٧٩ .

القرآن الكريم حسه المرهف حتى اهتز كيانه ، وانتعش وجدانه ، فأعلن كلمة الحق مدويّة في الفضاء بكل عزة وإباء ، وهاجم الباطل بكل شجاعة وإقدام واستفز رؤوس الطغيان واستهان بهم ، لأنه يعلم يقينا أنهم كانوا وراء بقائه سابقاً على الضلال ، وبقاء كل من تجرد من الهوى المنحرف على ضلاله بما يقومون به من الإعلام المضلل والإرهاب الفكري المنظم .

كما نلحظ في هذا الخبر دقة التربية التي تلقاها الصحابة رجالاً ونساءً ، فحينما سأل عمر رضي الله عنه أخته عن مكان النبي ﷺ كانت مخيلتها تدور بين أمرين : الأول : وجوب حماية النبي ﷺ وعدم جواز إفشاء أسرار المؤمنين ، والأمر الآخر : رغبتها الملحة في هداية أخيها إلى الإسلام بعدما قرأت في وجهه وفي سلوكه علامات الهداية والإقبال ، فكان أن جمعت بين الأمرين بإخباره عن مقر النبي ﷺ بعد أخذ العهد عليه بأن لا يجبهه بشيء يكرهه .

كما نلحظ مثالاً لما كان يتصف به العرب آنذاك من التحلي ببعض مكارم الأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة مما جعلهم أهلاً لحمل هذه الرسالة العظيمة ، وقد استقر في ذهن فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها اتصاف أخيها بهذه المعاني فإنها قد وثقت في أنه لن ينقض عهده ذلك فأقدمت على ما أقدمت عليه من إفشاء السر لتلك المصلحة العظيمة .

هذا ولما أسلم عمر سعى في إعلان إسلامه ليغيظ الكفار ولينال من الأذى على أيديهم مثل ما ناله إخوانه المسلمين من قبل ، ويصور ذلك ما أخرجه ابن إسحاق قال : حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيَّ أهل مكة أشد لرسول اله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت ، قال قلت : أبو جهل ، - وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة [1] - قال فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، قال : فخرج إليَّ أبو جهل فقال : مرحبا وأهلاً يا ابن أختي ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أني قد أمنت بالله ورسوله محمد وصدقت بما جاء به ، قال : فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح ماجئت به [2] .

وهكذا بلغ من قوة إيمان عمر أن تحدى بإسلامه أقوى رجل في قريش وأشدهم عداوة للإسلام ، وكان بإمكانه لو أراد السلامة لنفسه أن يستخفي بإسلامه ، أو على الأقل أن يترك الأمر حتى يعلم الكفار عن ذلك بالتدريج .

وحينما لم يصنع أبو جهل معه شيئاً ولم يعلن هذا الخبر بحث عن رجل آخر ليقوم بإعلان هذا الخبر .

قال ابن إسحاق : وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر

---

(١) يعني أن حنتمة أمه وهي أخت أبي جهل .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤ .

قال : لما أسلم أبي عمر قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحي ، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر : فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له : أعلمت ياجميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ فو الله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر واتبعت أبي ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - : ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

قال : ويقول عمر من خلفه : كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه ، حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال وطَلَحَ[1] فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

قال : فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبَرة وقميص موشّى ، حتى وقف عليهم ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، قال : فمه ؟ رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل ، قال : فو الله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه .

---

(١) يعني تعب .

قال : قلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذلك أي بني العاص بن وائل السهمي[1] .

وهكذا نجده رضي الله عنه يعلن إسلامه أمام الملأ من قريش وهو يعلم أنهم سيجتمعون على ضربه وربما قتلوه لكثرتهم ولم يكن في توقعه أن يأتي خاله العاص بن وائل السهمي لينقذه ، وذلك لأن إيمانه كان قوياً فهانت عليه نفسه من أجل إظهار عزة الإسلام وإرهاب الكافرين .

هذا وقد جاء في بعض الروايات أن عمر رضي الله عنه طلب من رسول الله ﷺ الظهور الجماعي بدعوة الإسلام إعزازاً لهذا الدين وتحدياً للمشركين .

ومما جاء في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ أبي الحسين خيثمة بن سليمان الأطرابلسي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت بعد أن ذكرت حادثة هجوم الكفار على المسلمين وعلى أبيها خاصة، التي سبق ذكرها[2] : واقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٢ .
وقد أخرج الإمام البخاري هذا الخبر مختصراً - صحيح البخاري رقم ٣٨٦٥ ، كتاب مناقب الأنصار (الفتح ٧/ ١٧٧) - .
وذكره الهيثمي من رواية الطبراني في الأوسط وقال : ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٩/ ٦٥- .
وكذلك أخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٨٥ - .
وذكره الحافظ ابن كثير وقال : وهذا إسناد جيد قوي - السيرة لابن كثير ٢/ ٣٩ - .
(٢) انظر ص ١٢١-١٢٢ .

وهم تسعة وثلاثون رجلاً ، وقد كان حمزة أسلم يوم ضُرب أبو بكر ، ودعا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب أو لأبي جهل ابن هشام ، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء فأسلم عمر الخميس ، فكبر رسول الله ﷺ وأهل البيت تكبيرة سُمعت بأعلى مكة ، وخرج أبو الأرقم - وهو أعمى كافر - وهو يقول : اللهم اغفر لبَنيَّ غير الأرقم فإنه كفر .

فقام عمر فقال : يارسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل ؟ قال : ياعمر إنا قليل وقد رأيت مالقينا ، فقال عمر : فو الذي بعثك بالحق لايبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان .

ثم خرج فطاف بالبيت ثم مر بقريش وهي تنتظره فقال أبو جهل بن هشام : يزعم فلان أنك صبوت ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فوثب المشركون إليه ، ووثب على عتبة فبرك عليه وجعل يضربه وأدخل إصبعه في عينيه فجعل عتبة يصيح فتنحى الناس ، فقام عمر فجعل لايدنو منه أحد إلا أخذ بشريف ممن دنا منه حتى أعجز الناس ، واتبع المجالس التي كان يجلس فيها فيظهر الإيمان .

ثم انصرف إلى النبي ﷺ وهو ظاهر عليهم ، قال : ما عليك بأبي وأمي والله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولاخائف .

فخرج رسول الله ﷺ وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب حتى طاف بالبيت وصلى الظهر مؤَمَّنا ، ثم انصرف إلى دار الأرقم ومعه عمر ، ثم انصرف عمر وحده ، ثم انصرف النبي ﷺ [1] .

هذا وماجرى من عمر من تخصيص مزيد من الهجوم على عتبة بن ربيعة يعتبر انتقاماً منه لما صنعه عتبة قبل ذلك بأبي بكر كما تقدم .

وبهذه المعركة التي صارع بها عمر وحده مجموعة من المشركين أثبت أن شأن الكفار ضعيف وأنه بإمكان المسلمين أن يُظهروا دينهم في وسط مجامع الكفار .

وقد جاء في آخر رواية أبي نعيم السابقة زيادة تفصيل لما جرى من عرض عمر على رسول الله ﷺ الخروج وقيامهم بذلك حيث جاء فيها «قلت : يارسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم ، قال قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه في صفين : حمزة في أحدهما وأنا في الآخر ، له كديد ككديد الطحين [2] حتى دخلنا المسجد ، فنظرَتْ إليّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٣٠ .

(٢) الكديد التراب الناعم فإذا وطيء ثار غباره ، أراد أنهم كانوا في جماعة وأن الغبار كان يثور من مشيهم - النهاية ٤/ ١٥٥ - .

مثلها ، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق ، وفرق الله بين الحق والباطل [1] .

وهكذا تقوى الصحابة بإسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهم فخرجوا جماعة إلى الحرم ، وما كانوا قبل ذلك يخرجون إلا فرادى ، بل كان الكثير منهم لايتمكنون من الصلاة في الحرم كما جاء في قول ابن مسعود رضي الله عنه السابق « ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر » .

هذا وإن موافقة النبي ﷺ على ذلك الخروج الجماعي من أجل إظهار شعائر الإسلام دليل على أنه كان ينتظر ذلك اليوم الذي يتمكن فيه من إظهار عزة الإسلام وقوة المسلمين من غير أن يتعرضوا للأذى ، فلما عرض عليه عمر هذا الأمر وافق على ذلك ، حيث انضم إلى صف المسلمين بَطَلان لكل واحد منهما مكانة كبيرة في مجتمع مكة المكرمة ، وهذا دليل على أن الأصل هو إظهار شعائر الإسلام والاجتماع على ذلك ليكون أبلغ في الدعوة ، وأكثر ارهاباً للأعداء ، وذلك لأن كثيرين في ذلك المجتمع مقتنعون بالإسلام ولكنهم ينتظرون بإسلامهم ظهور قوة المسلمين وانخفاض قوة الكافرين حيث إنهم لم يصلوا من القناعة إلى حد التضحية والبذل في سبيل الله تعالى .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٧٩ .

ولهذا فإن رسول الله ﷺ لم يعتبر عرض عمر هذا تعجلا في الظهور الجماعي لأن أمة المسلمين قد بلغت بانضمام هذين العملاقين إلى صفها حدا يمكّنها من مقاومة زعماء الباطل لو فكروا في صد ذلك الجمع بالقوة .

وهكذا رأينا تأثر المشركين واغتمامهم حينما رأوا المسلمين يخرجون لإظهار دينهم مجتمعين ، وقد كان النبي ﷺ يخرج كل يوم إلى الحرم ، فيعلن صلاته ويجهر بقراءته ، ولم يكن لخروجه وإعلانه نفس الأثر الذي كان للجماعة مع أنه رسول الله ، وهذا يدلنا على أهمية اجتماع المسلمين لإظهار دينهم وإنكار المنكر ، فإن الأعداء لايبالون بالأفراد الذين ليسوا في جماعة مهما علا ذكرهم واشتهر أمرهم لأنهم لن يغيروا من الأمور المنكرة شيئاً يذكر ، ويستطيع الأعداء أن يحتووهم أحياناً وأن يجابهوهم أحياناً أخرى حتى يضعفوا وينتهي وجودهم .

ومن خروج النبي ﷺ يقود تلك الجماعة حينما أصبحت جماعة المسلمين قادرة على المجابهة السليمة . . من ذلك نستفيد وجوب اجتماع المسلمين لإظهار وجود الإسلام واعزازه وإنكار المنكر ، وذلك في المنكرات الظاهرة التي تحميها بعض القوى المهيمنة ولايستطيع الأفراد أن يغيروها .

ومما يؤيد ثبوت خروج النبي ﷺ مع أصحابه ما أخرجه الحاكم من حديث عثمان بن عبد الله بن الأرقم عن جده الأرقم وكان بدرياً ، وكان

رسول الله ﷺ أوى في داره عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلمين ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، فلما كانوا أربعين خرجوا إلى المشركين .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي [1] .

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام أحمد والطبراني أخرجاه وقال : ورجال الطبراني ثقات [2] .

وهكذا تم إسلام عمر رضي الله عنه ، وانطلق من تلك اللحظة في العمل لخدمة الإسلام متفانياً في الدفاع عنه معليا من شأن المسلمين ، ومازال بعد ذلك مجاهداً في سبيل الله واهباً نفسه بكل ما تملك من طاقات لخدمة الإسلام والمسلمين حتى قتل شهيداً في سبيل الله تعالى في آخر خلافته .

وكان كما وصفته عائشة رضي الله عنها : « كان والله أحوذيا نسيج وحده ، كأنما خلق للإسلام ، قد أعدَّ للأمور أقرانها » فرضي الله عنه وأرضاه .

* * *

---

(١) المستدرك ٣/ ٥٠٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥ .

١٥ - مثل من الصبر على الشدائد

(حصار الشعب)

لقد غاظ المشركين إسلام بعض أشراف مكة وزعمائها خاصة حينما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حيث امتنع بهم المسلمون وعز بهم الإسلام ، فأقدم المشركون على أسوء وأخطر محاولة فكروا فيها وهي القضاء على حياة النبي ﷺ واجتمع أمرهم على ذلك .

وكان من أثر ذلك أن قام أبو طالب بتأكيد حماية النبي ﷺ ، فأمر بني عبد المطلب بالقيام بذلك داخل شعبهم المسمى شعب أبي طالب ، ودخل معهم في هذه الحماية بقية بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم ، فلمّا رأى المشركون ذلك قاموا بمقاطعتهم اقتصادياً واجتماعياً .

وقد أخرج الخبر في تفاصيل ذلك الإمام البيهقي من طريقين عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال : « ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهدُ ، واشتد عليهم البلاء ، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية .

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدْخلوا رسول الله ﷺ شعْبَهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله ، فاجتمعوا على

(١) المستدرك ٣/ ٥٠٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥ .

ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك ، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لايجالسوهم ولايبايعوهم ولايَدخُلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق أن لايقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ولا تأخذهم به رأفة حتى يسلموه للقتل .

فلبث بنو هاشم في شعبهم يعني ثلاث سنين [1] واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعاماً يَقْدمُ مكة ولابيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفكَ دمِ رسول الله ﷺ .

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكراً به واغتياله ، فإذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي ، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساؤهم من بني هاشم ،

---

(١) وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة كما جاء في إحدى روايات ابن سعد - طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠ فيكون دخولهم في العام السابع .

ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه ، وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي المكرُ فيها برسول الله ﷺ الأَرَضَة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق .

ويقال كانت معلقة في سقف البيت ، ولم تترك اسماً لله عز وجل فيها إلا لحسته ، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم ، وأطلع الله – عز وجل – رسوله على الذي صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب .

فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبني ، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد ، وهو حافل من قريش فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوا ليعطوهم رسول الله ﷺ .

فتكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لايشكُّون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم ، فوضعوها بينهم وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع

قومكم ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَفٌ ، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني : أن الله عز وجل بَرِئَ من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كلَّ اسم هو له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينابالظلم [1] ، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا ، فو الله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم .

قالوا : قد رضينا بالذي يقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا : والله إن كان هذا قط إلا سحراً من صاحبكم ! فارتكسوا وعادوا بشرٍّ ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين رهطه ، والقيام بما تعاهدوا عليه .

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب : إن أَوْلَى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون ؟ فإنا نعلم أن الذي اجمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد

---

(١) ورد في رواية ابن هشام عكس ذلك وهو أن الأرضة أكلت الصحيفة ماعدا « باسمك اللهم » - سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٥ - ولكن ذكر الإمام الزرقاني أن الرواية الأولى أثبت وهي رواية موسى بن عقبة وعروة بن الزبير - شرح المواهب اللدنية ١/ ٢٩٠ - .

صحيفتكم وهي في أيديكم ، طمس الله ما كان فيها له من اسم [(1)]، وما كان من بغي تركه ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟ .

فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم ، منهم أبو البَخْتَري والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو ، وكانت الصحيفة عنده ، وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم ووجوههم : نحن براء مما في هذه الصحيفة ، فقال : أبو جهل : هذا أمر قُضِي بليل [(2)] .

وقال الإمام البيهقي بعد رواية هذا الخبر : وهكذا ذكر شيخنا أبو عبد الله الحافظ رحمه الله هذه القصة عن أبي جعفر البغدادي عن محمد بن عمرو بن خالد عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير [(3)] .

وقد ذكر البيهقي هذه الرواية لتقوية الرواية السابقة حيث إنها مرسلة لأن الزهري لم يذكر من روى عنهم من الصحابة .

وأخرجه أبو نعيم من طريق أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال : لما أقبل عمرو بن العاص من الحبشة من عند النجاشي إلى مكة قد أهلك

---

(1) يعني من أسماء الله تعالى .

(2) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١١ - ٣١٤ .

(3) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤ .

الله صاحبه ومنع حاجته اشتد المشركون على المسلمين كأشد ما كانوا ، حتى بلغ [بالمسلمين] (١) الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وعمد المشركون من قريش فأجمعوا مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية فلما رأى ذلك أبو طالب جمع بني عبد المطلب ، فأجمع لهم أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله . . ثم ذكر مثل خبر موسى بن عقبة السابق (٢) .

وأخرج الإمام البيهقي رواية أخرى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال : فلما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به ، وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه وأبوا أن يسلموه وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه ، إلا أنهم أنِفُوا أن يُستَذلُّوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه ، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت قريش أن لاسبيل إلى محمد ﷺ معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لايُنكحوهم ولاينكحوا إليهم ولايبايعوهم ولايبتاعوا منهم ، وكتبوا صحيفة في ذلك وعلقوها بالكعبة ، ثم عَدَوْا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم ، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً .

---

(١) ما بين القوسين مستدرك من كتاب الخصائص ، أفاده محققا الطبعة الثانية لدلائل النبوة .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / ٩٢

ثم ذكر نحو خبر موسى بن عقبة ، إلا أن فيه من وصف ما تعرض له بنو هاشم وبنو المطلب أن أصوات صبيانهم تسمع من وراء الشعب وهم يتضاغون من الجوع [1].

وأخرجه ابن هشام من روايته عن ابن إسحاق قال : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لايُنكحوا إليهم ولايُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . .

ثم ذكر خبر الصحيفة إلى أن قال : فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب :

ألا أبلغا عني على ذات بَيْننا [2] ... لُؤَيّاً وخُصّاً من لؤيّ بني كعب

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب

وأنّ عليه في العباد محبةً ... ولا خير ممن خصه الله بالحب

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) يعني الخصومة والعداوة .

وأن الذي ألصقتُمُ من كتابكم	لكُم كائن نحسًا كَراغية السَّقب (١)
أفيقُوا أفيقوا قبل أن يُحفر الثَّرى	ويصُبح مَنْ لم يَجْن ذنباكذي الذَّنب
ولا تَتْبعوا أمرَ الوُشاة وتَقْطعوا	أواصرَنا بعد المودّة والقُرْب
وتَسْتجلبوا حَرْباً عَوَاناً ، وربما	أمرّ على من ذاقه جَلبُ الحرب (٢)
فلسنا وربِّ البيت نُسْلم أحمداً	لعزّاء من عض الزّمانْ ولاكَرْب (٣)
ولمّا تَبِنْ منّا ومنكم سَوالف	وأيد أُترّت بالقُسَاسيَّةَ الشُّهْب (٤)
بمُعْترك ضَيْقٍ تُرى كِسَر القَنا	به والنسورَ الطُّخم يَعْكفن كالشُّرْب (٥)
كأنّ مَجَال الخيل في حَجَراته	ومَعْمَعة الأبطال مَعْركةالحرْب (٦)
أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أزْرَه	وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب؟
ولسنا نَمَلّ الحربَ حتى تَمَلَّنا	ولا نَشْتكى ما قد ينوب من النكب
ولكنَّنا أهلُ الحفائظ والنُّهى	إذا طار أرواحُ الكماة من الرُّعب (٧)

---

(١) يعني أن تلك الصحيفة ستكون شؤما عليكم كشؤم ناقة صالح وولدها على ثمود حين عقروها، والراغية هي الناقة والسقب ولدها :

(٢) عوانا أي مستمرة ، أي لاتتسببوا في وقوع حرب مستمرة ربما كان مذاقها مراً على من جلبوها

(٣) يعني لن نتركه يواجه سنة قاسيه من عض الزمان وشدته .

(٤) « تبن » يعني تنقطع ، والسوالف جمع سالفة وهي صفحة العنق و « أترت » يعني قطعت ، و«القساسية» السيوف منسوبة إلى قاس مكان فيه معدن الحديد ، و « الشهب » الصقيلة اللامعه .

(٥) الطخم جمع أطخم وهو الذي في لونه سواد ، والشرب جماعة الشاربين .

(٦) المجال المكان الذي تجول فيه الخيل ، والحجرات النواحي ، والمعمعة صوت الأبطال في المعركة .

(٧) الحفائظ جمع حفيظة وهي الغضب ، والنهي جمع نهيه وهي العقل ، والكماة جمع كمي وهو الشجاع الذي يتكمى في سلاحه أي يستتر فيه .

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جُهدوا ، لايصل إليهم شيء إلا سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .

وقد كان أبو جهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهي عند رسول الله ﷺ ، ومعه في الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله . فقال : يحمل الطعام إلى بني هاشم ، فقال له أبو البختري : طعامٌ كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أنه يأتيها بطعامها ! خَلِّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البختري لَحْيَ بعير فضربه به فشجه ، ووطئه وطأ شديداً ، وحمزةُ بن عبد المطلب قريبٌ يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه ، فيشمتوا بهم ، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وجهاراً ، مُبادياً بأمر الله لايتقي فيه أحدا من الناس [1] .

في هذا الخبر تصميم من الكفار على قتل النبي ﷺ بعدما يئسوا من القضاء على دعوته ، وهكذا أهل الباطل لايتورعون عن التصفية الجسدية

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤ - ٣٦٨ .

لدعاة الحق إذا تمكنوا من ذلك ، وذلك لعجزهم الفاضح عن مقاومة أهل الحق بالحجة والمنطق .

والقوة إذا لم يصاحبها دعوة حق فهي حماقة ورعونة لأن صاحبها -والحال هذه - ليس أمامه مبدأ سليم يدافع عنه ، ولا ضوابطُ محكمة يرجع إليها ، فأما حينما تكون القوة مع أهل الحق فإنهم يستخدمونها عند الضرورة للدفاع عما يدعون إليه من الحق ، وإزالة العوائق التي تحول دون انتشاره ، ويتقيدون بضوابط إلهية لايمكن أن يتطرق إليها شيء من الظلم والعدوان .

وهكذا يلجأ أهل الباطل في كل زمن إلى القوة والعنف حينما تكون حجتهم ضعيفة ومهزوزة ، فيبطشون بأهل الحق إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، لأنهم لايستطيعون الوقوف معهم في مجال الحجة والبيان ، وهم يدركون جيداً أن أي محاولة منهم لطرح القضايا الفكرية على بساط البحث والنقاش سيئُول في النهاية لغير صالحهم ، لأنهم لم يُشغلوا أنفسهم منذ نعومة أظفارهم بالتأمل الجاد والبحث عن حقائق الأمور ، وإنما بحثوا عن أسهل الطرق وأسرعها للسيطرة والتمكن في الأرض فسلكوه ، وكوَّنوا لأنفسهم عقيدة يرون أنها تحمي نظامهم وتكفل لهم سيادتهم .

وقد تكون هذه العقيدة مزيجاً من الحق والباطل ، فليس في

مقدورهم أن يناقشوا أقواماً وهبوا أنفسهم لفهم عقيدتهم الحقة وبيانها والدفاع عنها ، فكان الطريق القويم في نظرهم أن يتفادوا الدخول مع دعاة الحق في نقاش علني يعلمون سابقاً نتيجته المروعة لهم ، فلم يبق في نظرهم إلا وأد دعاة الحق مع دعوتهم ماداموا في حال ضعف قبل أن يعلو شأنهم ويعظم خطرهم ، وما دام هؤلاء الطغاة مدعومين في مبادئهم الفاسدة من قوى الباطل .

وحينما اعتصم المسلمون بشعب أبي طالب لم يتركهم الكفار وشأنهم بل حاصروهم اقتصادياً ، وضيقوا عليهم حتى انقطعت الموارد عنهم ، وهذا سلاح خطير يستعمله أهل الباطل ضد أهل الحق ، حيث يعملون دائماً على إضعافهم من الناحية المالية ، والحيلولة بينهم وبين الموارد التي ترفع اقتصادهم ، وتمنحهم شيئاً من القوة والمنعة .

وإن بقاء المسلمين ثلاث سنوات داخل الشعب مع ذلك الحصار الشديد الذي ألجأهم إلى أكل أوراق الشجر ، ورفع أصوات أبنائهم بالبكاء من الجوع ، وعزلهم تماماً عن المجتمع . . إن بقاءهم على هذا الوضع دليل على قوة إيمانهم بقضاء الله وقدره ، وتجملهم بالصبر على الأذى .

هذا خبر من أسلم من بني هاشم وبني المطلب ، أما بقية المسلمين من قريش فإن منهم من هاجر إلى الحبشة ومنهم من بقي في مكة ،

وهؤلاء وقعوا تحت حصار المشركين ورقابتهم وأذاهم كما جاء في الرواية السابقة التي رواها يونس بن بكير عن ابن إسحاق وفيها « ثم عدوا – يعني المشركين – على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم» .

وإنهم بقيادة رسول الله ﷺ لأعلى مثل يمكن أن يَقتدي به كل من حوصر وسجن من المسلمين من أجل إيمانهم بالله تعالى ودعوتهم إلى سبيله .

وإنه لمما يطلب من المسلم في حال النكبات والشدائد أن يرضى بقضاء الله وقدره ، وأن يصبر صبراً جميلاً ، وأن يكون مستسلماً لله تعالى بحيث لايقوم أثناء المحنة بأي عمل مخالف للإسلام ، كأن يحني رأسه للطغاة ، أو يتنازل عن شيء من دعوة الحق التي يمثلها ، أو أن يهبط مستواه في مخاطبة ظالميه أو من تقاعسوا عن نصرته .

ثم هو مكلف بأن يعمل جهده بالأسباب المشروعة للخروج من المحنة ، وأن يكل أمره قبل ذلك كله إلى الله تعالى ، مستحضراً عظمته وجلاله وهيمنته عليه وعلى ظالميه ، وأن يكون دائماً حسن الظن بالله تعالى عظيم الأمل بقرب الفرج ، شديد الفزع من الذنوب والمخالفات التي تصرف عنه رحمة ربه جل وعلا .

فإذا فعل ذلك فإن الله سبحانه بِمَنّه وكرمه يكشف ضره وييسر له

أمره ، ويخرجه من محنته ، كما أخرج نبيه ﷺ والمؤمنين معه من محنة الحصار في الشعب ، وذلك بتسليط الأرضة على صحيفة المشركين ، وإعلام النبي ﷺ عمه أبا طالب ليخبر المشركين فتكون آية على صدقه ونبوته ، ثم بتسخير طائفة من زعماء المشركين ليعلنوا براءتهم من تلك الصحيفة الظالمة ، مما جعل المشركين ينقسمون إلى قسمين : قسم ظل معادياً للمسلمين متربصاً بهم الدوائر ، وقسم ظل معتدلاً نحوهم يحاول دفع الظلم عنهم وتأنيب الظالمين في مغامراتهم الكبيرة التي تسيء سمعة القبيلة بأسرها .

وقد كان ذلك من أهم أسباب خروج المسلمين من المحنة وعدم تكررها بنفس الحجم والمستوى .

هذا ومما يدل على أثر هذا الفريق المعتدل ما جاء في رواية الواقدي عند ابن سعد وفيها : وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم ، فيهم مطعم بن عدي ، وعدي بن قيس ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البَخْتَري بن هشام وزهير بن أبي أمية ، ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا ، فلما رأت قريش ذلك سُقِط في أيديهم ، وعرفوا أن لن يسلموهم [1] .

ولقد كان بعض هؤلاء وقف مع المسلمين حتى في أثناء حصارهم في الشعب كما سبق في رواية ابن إسحاق من خبر حكيم بن حزام

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠ .

وإيصاله الطعام إلى عمته خديجة رضي الله عنها ، وما كان من صراع بين أبي جهل وأبي البختري بن هشام حول هذا الأمر ، وقد كانت نهاية ذلك الصراع أن غلب أبو البختري في دفاعه عن المسلمين ولم يستطع أبو جهل منع حكيم بن حزام من إيصال ذلك الطعام داخل الشعب .

هذا وإن وقوف طائفة من المشركين مع المسلمين مبني على كون المسلمين جميعاً بقيادة النبي ﷺ كانوا يمتازون بمكارم الأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة وبذل المعروف ، ومن يتصف بمكارم الأخلاق يكون موضع التكريم عند العقلاء الذين يقدرون مكارم الأخلاق ومن يتصف بها ، فكان العقلاء من قريش يكرهون ذلك الحصار ، ولكن الكلمة الأخيرة عند وقوع الخلاف تكون غالباً للغوغائية الميالين للبطش والانتقام .

وقد يسكت المنكرون على مضض ، ويمنعهم من الإنكار الخوف من نقمة الغوغائية وتسلطهم ، فلما حصلت تلك الآية الباهرة حيث أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى سلط الأرضة على صحيفة قريش وقام أبو طالب بتلك المفاوضة التي تقضي بنقض ميثاق الصحيفة إن كان كما أخبر ، أو بتسليم النبي ﷺ لهم إن كان على غير ما أخبر به ، ثم كان الأمر على ما أخبر به . . لما كان ذلك ونكص زعماء الكفر على أعقابهم واتهموا النبي ﷺ بالسحر تشجع أولئك المعتدلون فأعلنوا رأيهم بالبراءة مما جاء في تلك الصحيفة .

وهكذا كان تخلُّق المسلمين بمكارم الأخلاق سبباً في انجذاب بعض زعماء المشركين إليهم والوقوف في صفهم لأنه لابد أن يوجد في كل مجتمع من يقدِّرون مكارم الأخلاق وينحازون إلى أصحابها .

ولهذا ينبغي للدعاة في كل زمن أن يجتذبوا إلى صفهم من ليسوا معهم في دعوتهم ولكنهم معهم في تمثيل مكارم الأخلاق والدفاع عن المظلومين ، والنقد الهادف للطغيان ومظاهره وسائر مساوئ الأخلاق .

ولقد كان تفرق الكفار إلى حزبين مما صنعه الله تعالى لنبيه ﷺ ليكون تمهيداً لفترة المواجهة الصعبة التي تلت موت أبي طالب حيث كان عَقَبةً تحول بين كفار مكة وتنفيذ كثير مما يعزمون عليه يوم أن كان أمرهم جميعا ، فلما مات أبو طالب أصبح أفراد الحزب المعتدل يتولون التخفيف من حدة الحزب المتشدد المندفع نحو الانتقام .

وهكذا كانت مكيدة كفار مكة بذلك الحصار الاقتصادي وبالاً عليهم ، حيث كان انتصار النبي ﷺ في تلك المفاوضة في أمر الصحيفة سبباً في تفرقهم وضعفهم عن مواجهة المسلمين بالقوة لوجود فريق معتدل من الكفار يمانع في استعمال القوة ضدهم ، فكان وجود هذا الفريق المعتدل تعويضاً للنبي ﷺ عما فقده من حماية عمه أبي طالب ، إلى أن اجتمع أمرهم بعد ثلاث سنوات يوم أن اتفقوا في دار الندوة على قتل النبي ﷺ فأنقذه الله عز وجل وأمره بالهجرة إلى المدينة .

* * *

١٦ - انتصار رسول الله ﷺ للمظلومين

(خبر الإراشي والزبيدي)

لما كـان رسـول الله ﷺ يدرك أهمـيـة إقـرار العـدالة في الأرض والانتصار للمظلومين ، فإنه كان يسارع إلى نجدة المظلومين وإنصافهم مـن ظـالميـهم لأنه يعلم أن ذلك يعتـبر من معـالم تطبيق الإسلام في الأرض ، وأن ذلك مـن أهـم أسـبـاب انجـذاب الناس لفـهـم الإسـلام والإيمان به .

ومن الأمثلة الرائعة لقيام النبي ﷺ بإنصاف المظلومين وإن كانوا غير مسلمين ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال : حدثني عبد الملك بن عبد الله ابن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعية ، قال : قدم رجل من إراش[١] بإبل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها .

فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس ، فقال : يامعشرقريش ، من رجل يؤديني[٢] على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب ، ابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ؟ قال : فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس - لرسـول الله ﷺ وهم يهـزءون به ؛ لما يعلمـون بينه وبين أبي جـهـل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤديك عليه .

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : إراشة .

(٢) يعينني وينصفني وكأنه مأخوذ من الأداة التي يتوصل بها الإنسان إلى ما يريد .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال : ياعبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قِبَلَهُ ، وأنا رجل غريب ابن سبيل ، وقدسألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقي منه فأشاروا لي إليك فخذ لي حقي منه يرحمك الله ، قال : انطلق إليه ، وقام معه رسول الله ﷺ فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه ، فانظر ماذا يصنع .

قال : وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إليّ ، فخرج إليه ، وما في وجهه من رائحة [1] ، قد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه ، قال : نعم ، لاتبرح حتى أعطيه الذي له ، قال : فدخل ، فخرج إليه بحقه فدفعه إليه . قال : ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وقال للإراشي : الحق بشأنك ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي .

قال : وجاء الرجل الذي بعثوا معه ، فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب ، والله ماهو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه وما معه روحه ، فقال : أعط هذا حقه ، فقال : نعم لايبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه ، فأعطاه إياه .

---

(١) قال السهيلي : أي بقية من روح .

قال : ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط ! قال : وَيْحَكُم ! والله ماهو إلا أن ضرب علي بابي ، وسمعت صوته فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ولاقَصَرته [1] ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلني [2] .

فهذا الخبر يحكي صورة من سلوك أهل الجاهلية في ظلم المستضعفين ومطلهم حقوقهم ، وهذا السلوك المنحرف ناتج عن خواء العقل من الوازع الديني الذي يترتب على الخوف من الله تعالى ورجاء ما عنده .

فالكفار خاوية قلوبهم من هذه العقيدة لأنهم لايؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر ، وإنما يؤمنون بالحياة الدنيا ، ويعتمدون في سلوكهم على نظرة المجتمع بما فيهامن قوة وضعف ، فيخضعون للأقوياء ، ويوفونهم حقوقهم كاملة ، ويهضمون حقوق الضعفاء لعدم مقدرة الضعفاء على الانتقام منهم .

---

(١) الهامة : الرأس ، والقصرة : أصل العنق .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠ ، وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه -دلائل النبوة لأبي نعيم / ٦٧ - وكذلك اخرجه البيهقي من هذا الطريق - دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٣ - .

ولذلك رأينا في هذا الخبر أبا جهل يشتري الإبل من ذلك الأعرابي ولايوفيه أثمانها ، لعلمه بضعفه وعدم مقدرته على استخلاص حقه منه .

ونجد في هذا الخبر صورة أخرى من صور الجاهلية حيث اغتنم أولئك الكفار شكوى ذلك الأعرابي ليتخذوا منها مادة للسخرية من رسول الله ﷺ وإحراجه ، حيث أشاروا على الأعرابي بشكوى أبي جهل إليه ﷺ ، وهم يعلمون عداوة أبي جهل الشديدة له ، وما يتصف به أبو جهل من العنف والحقد الدفين ، فأرادوا بهذه المشورة أن يوقعوا رسول الله ﷺ بأحد حرجين : إما أن يعتذر من الأعرابي وذلك إضعاف لموقفه في دعوته ، حيث لايسارع إلى نصرة المظلومين وهو الذي يدعو إلى ذلك ، وإما أن ينهض مع الأعرابي ثم يتلقى الرد القاسي والمعاملة العنيفة من أبي جهل ، وكلاهما أمر شاق على النفس ، ولكن النبي ﷺ لم يكن يبالي بما يواجهه في سبيل دعوته ، فلذلك نهض مع ذلك الأعرابي وانتصر له .

وفي مقابل ذلك نجد صورتين من السلوك الإسلامي :

الأولى : في اهتمام النبي ﷺ بتحدي المشركين وتفويت الفرص التي يحاولون بها أن يكيدوا للإسلام ودعاته ، فإن أولئك المشركين قد اغتنموا فرصة شكوى ذلك الأعرابي من أبي جهل لإحراج النبي ﷺ ،

ولكنه فَوَّت عليهم هذه الفرصة ، وكان إيجابيّاً في مقاومة مكيدتهم حيث سار مع ذلك الأعرابي وقضى له حقه ، ولاشك أن النبي ﷺ كان يعلم قصدهم من تحويل ذلك الأعرابي إليه ، إذ لو كانوا يريدون الشفاعة له لإنجاز حقه لأحالوه إلى زعماء قريش الذين يقدرهم أبو جهل ويخشى خلافهم .

وهكذا ينبغي للدعاة أن يبذلوا جهدهم في معرفة مكائد أعدائهم والحيلولة بينهم وبين تنفيذها حتى لايوهنوا موقفهم ويعزوا موقف أعدائهم .

والصورة الثانية : قيام رسول الله ﷺ بنصر المظلومين ، حيث قام مع ذلك الرجل انتصاراً له ليأخذ له حقه من ظالمه وهذا دليل على أهمية هذا الموضوع لأن النبي ﷺ قام معه وهو رجل كافر ، فكيف لو كان مسلماً ؟ ولأن الذي ظلم ذلك الرجل هو أعدى أعداء الإسلام ، وهو أبو جهل ، ومن المنتظر عادة أن يواجه النبي ﷺ بالعبوس والشتائم ، ومع ذلك قام ﷺ مع ذلك المظلوم حتى نصره وأخذ له حقه .

ويشبه هذاالخبر من ناحية وقوع أبي جهل في الظلم وقيام رسول الله ﷺ بالانتصار للمظلومين ما أخرجه أبو نعيم عن أبي يزيد المدني ، وأبي فرعة الباهلي ، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد معه رجال من أصحابه إذ أقبل رجل من زبيد يقول : يا معشر قريش كيف

تدخل عليكم المادَّة أو يُجْلب إليك جَلَبٌ أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم ؟ يقف على الحلَق حَلْقة حَلْقة ، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في أصحابه . فقال له رسول الله ﷺ : ومن ظَلَمك ؟ فذكر أنه قد قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله فسامه أبو جهل ثُلثَ أثمانها ، ثم لم يَسُمْه بها لأجل أبي جهل أحد شيئاً ثم قال : فأكسد عليّ سلعتي وظلمني .

قال رسول الله ﷺ : وأين جمالك ؟ قال : هي هذه بالحزوَّرة [1] ، فقام رسول الله ﷺ وقام أصحابه فنظر إلى الجمال فرأى جمالا فُرْهاً فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه ، فأخذها رسول الله ﷺ فباع جَملين منها بالثمن وأفضل بعيراً باعه وأعطى أراملَ بني عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس في ناحية السوق لايتكلم ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال : ياعمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الإعرابي فترى مني ما تكره فجعل يقول : لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد فانصرف رسول الله ﷺ .

وأقبل أمية بن خلف ومن حضر فقالوا : ذَلَلْت في يدي محمد فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رُعْب دَخلك منه . فقال : لا أتبعه أبداً إن الذي رأيت مني لِمَا رأيت معه ، قد رأيت رجالاً عن يمينه وشماله معهم

---

(١) اسم مكان في مكة .

رماح يَشْرعونها إليّ لو خالفته لكانت إياها - أي لأتوا على نَفْسي - [1] .

فهذا الخبر يبين لنا صورة من الظلم في المعاملات التجارية في حياة العرب في الجاهلية ، حيث يقوم بعض الأكابر بالتسلط على المستضعفين من التجار فيكسِّدون تجارتهم بحكم مالهم من جاه وسطوة في المجتمع .

فهذا الرجل الزبيدي يعرض إبله في سوق مكة فيسومها أبو جهل بثلث أثمانها ، ثم يتوقف الناس عن سومها مراعاة لأبي جهل أو خشية منه ، وهكذا يعمل أمثاله مع التجار الوافدين ، والويل للواحد من هؤلاء الأعراب إذا تعرض أولئك لسوم بضاعته ، فإنه - والحالة هذه - بين أمرين : إما أن يبيعهم بضاعته بثمن بخس ، وإما أن يضطر إلى إعادتها إلى مضارب قبيلته فيكون قد خسر سفرته تلك .

وهذا التصرف السيء يترتب عليه ضرر خاص بأصحاب البضائع المعروضة حيث تنزل أثمانها وضرر عام بسوق ذلك البلد حيث سيحجم التجار عن عرض تجارتهم بذلك السوق ، وبهذا يكون أبو جهل قد ظلم التجار ، كما أنه قد ظلم أهل مكة حيث سيكون سبباً في حرمانهم من رواج البضائع في بلدهم .

والظاهر أن هذا التصرف ليس خاصاً بأبي جهل ، إذ يبعد أن يقره

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٢٠ .

على ذلك كبار أهل مكة لو لم يكن لهم فائدة من السكوت عنه حيث يسكت عنهم إذا وقعوا في ظلم التجار الوافدين .

ولعل ذلك يفسر سكوت أهل السوق بمكة أنذاك حيث انساقوا وراء أبي جهل بتجاوزاته الظالمة إما رغبة أو رهبة .

ولكن ذلك الأعرابي لم يستسلم لذلك الظالم العنيف فأبى أن يبيعه إبله بذلك الثمن ، ولم يرجع بها ، بل قام باستنهاض همم أهل مكة لعلهم ينكرون ذلك الوضع الظالم ، وذكّرهم بمصير بلدهم التجاري المشئوم إذا لم يغيروا ذلك المنكر .

ولكنه في نداءاته المتكررة لم يجد قوماً يرتفعون بشهامتهم وشجاعتهم إلى تغيير المنكر ، بل وجد أقواماً يعلو وجوه بعضهم العبوس والامتعاض من ذلك التصرف السيء مما يوحي بالإنكار الداخلي ، وهؤلاء هم الذين لايستفيدون من تلك التجاوزات التجارية ويخشون من ضررها على السوق ، وأقواماً لم يرفعوا بذلك رأساً ولم يبد على وجوههم شيء من التأثر كما هو المعتاد في مثل ذلك المجتمع ، إما لكونهم مستفيدين من تلك التجاوزات أو لكونهم لايهتمون بأمور المجتمع ، ولكن الجميع قد عقرت ألسنتهم وهيمن عليهم شعور ضاغط باحترام إرادة عمرو بن هشام السليط اللسان الذي يستطيع في نظرهم القاصر أن يوصل إليهم شيئاً من الضرر لو تعرضوا له .

ولكن هذا الأعرابي لم يخب أمله فواصل عرض الشكاية حتى مر برسول الله ﷺ ومعه أصحابه ، فعرض عليه تلك المظلمة الفاقرة ، فما كان من رسول الله ﷺ بشجاعته العالية وعدالته البالغة إلا أن هب مع ذلك المظلوم وقام بشراء تلك الإبل بالقيمة التي رضيها صاحبها ، وحذر أبا جهل من القيام باحتكار السوق مرة أخرى .

ولقد كان لهذا الموقف الكريم أثر في رفع الظلم عن ذلك الرجل وإنقاذ حقه الخاص ، كما أن له أثراً في إنقاذ الحق العام ، وذلك بحماية سوق مكة التجاري من التعرض لنقص الموارد من البضائع الذي يترتب على تجاوزات أبي جهل وأمثاله من المحتكرين الظالمين .

هذا وإن أمثال أبي جهل يوجدون في بعض المجتمعات الإسلامية حيث يقيمون تجارتهم ومعاملاتهم على احتكار الأسواق واستغلال حاجة البائع والمشتري ، فإذا اشتروا خفضوا الثمن ، وإذا باعوا رفعوه .

وتتكرر نفس الصورة ، حيث يحجم التجار عن الإنكار ويتقاعس أفراد المجتمع عن ذلك رغبة أو رهبة أو من باب عدم المبالاة وعدم الاهتمام بإصلاح المجتمع .

وإن انحدار المجتمع الإسلامي في باب التعامل إلى التشبه بأوضاع الجاهلية يعتبر نذير سوء وبادرة شر .

هذا وإن ما جرى للنبي ﷺ من معجزة بحماية الله إياه وحياطته بالملائكة عليهم السلام ليس هو المشجع الذي دفعه للقيام بهذا العمل النبيل في الخبرين السابقين ، لأنه لم يكن يعلم بحدوث ذلك إلا بعد وقوعه ، وإنما قام به لأنه عمل صالح يؤجر عليه ، وإن ناله شيء من الأذى فإن أجره يضاعف .

وإن هذا السلوك العاليَ يعتبر قدوة حسنة للمسلمين ليدركوا بأن لأخوانهم المسلمين عليهم حقوقاً لابد من أدائها ، ومن ذلك نصرة المظلوم ، ولقد أوضح النبي ﷺ هذا الحق في عدد من الأحاديث ، فمن ذلك قوله « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره » أخرجه الإمام مسلم [1] .

فمن حق المسلم على أخيه بمقتضى هذه الأخوة أن لايتعدى عليه بالظلم ، وأن لايدعه فريسة لظالمه ، بل يجب عليه إذا قدر على مساعدته أن ينقذه من الظلم .

وما أكثر وقوع المسلمين المستضعفين تحت سطوة الجبارين الذين نهبوهم حقوقهم واعتدوا على أبشارهم وأعراضهم وأموالهم ، وما أقل من ينجد هؤلاء المظلومين ويمد لهم يد العون والنصرة ! .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر ، رقم ٣٢ .

وإذا كان النبي ﷺ قد انتصر لرجلين كافرين بحكم أنهما مظلومان فكيف يتخاذل المسلمون عن نصرة إخوانهم في الدين الذين يحاول الجبارون أن يهضموهم حقوقهم ، سواء كان هؤلاء الجبارون من أصحاب السلطة أو ممن وقعوا في الظلم في غياب حكم العدل والإنصاف ؟! .

تم بحمدالله هذا الجزء ويليه الجزء
الثالث وبه تكتمل موضوعات
العهدالمكي .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

